أوهام الحب

دراسة فى عواطف الأنثى

الجوادى، محمد.
أوهام الحب: دراسة فى عواطف الأنثى/ محمد الجـوادى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .
٢٨٨ ص ؛٢٤ سم.
تدمك : ٦ ٧١٦ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الحب ـ فلسفة.
أ ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٣٦١٨/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 716 - 6

ديوى٤٦, ١٢٨

الدكتور محمد الجوادى

أوهام الحب

دراسة فى عواطف الأنثى

الطبعة الثالثة

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

الإخراج الفنى : مادلين أيوب

تصميم الغلاف : الحبيبة حسين

إهداء

إلى كل من كان لها فضل على هذا الكتاب

تحية لذكرى

أيـــام خـــالـــيـــة لا تـــعـــود

وآلاء ثـــاويـــة لا تـــقـــود

وآلاء شـــافـــيـــة لا تـــفـــوت

وأمـــانٍ غـــالـــيـــة لا تـــمـــوت

د. محمد الجوادى

هذا الكتاب

هذا كتاب عن هوامش الحب لا عن قلبه، تعمد مؤلفه أن يبتعد به كل البعد عن الحديث عن الحب نفسه مركزًا على مقدماته ومعقباته.. وقد فعل هذا عن قصد وإصرار وترصد حتى إنه تعمد أن يحذف من السياق كل ما يصور ذات الحب ولذته وكل ما يصور لظاه وجذوته .. لكنه مع هذا حاول أن يكون دقيقًا فيما عبر به عن إحساسات أصحاب الحب بالوهم وبالحقيقة.. بالدراية وبالرواية.. بالمنى والخيال.

هو كتاب يهرب من القلب إلى الحواشى حتى إذا قادته الحواشى إلى القلب وصف القلب بالحشا.. وكذلك هو يفعل مع الحب؛ يظن أن الحب شىء آخر غير المقدمات والمعقبات.. يعرى الحب ويتوهمه وهما، ويعرف الوهم ويتوهما حبًا.. وهو لا يدرى من أمره شيئًا.

ليس لى أن أزيد على ما ذكرته فى تقديمى للطبعة الأولى من هذا الكتاب إلا أن أبدى عجبى من أنه قد أتيحت لى معرفة ما كل هذه الصور من صور الحياة، وقد عشت وكتبتها، وكان يكفينى أن أعيشها، وربما لم يكن يكفينى أن أكتبها.. ولكن .. قدر الله وما شاء فعل.

ليس فى هذا الكتاب إلا بعض تجارب أقدمها للقارئ لعله يجد فيها بعض ما يمتعه ، أو بعض ما يفيده ، أو بعض ما يعبر له عن بعض ما فى نفسه.

ولست أنكر أن كثيرين كتبوا إلىّ وهم يظنوننى قد أحطت علما ببعض ما فى حياتهم، وأن كثيرات سألننى هل كنت أصفهن بما كتبت فى فقرة هنا أو هناك.. ولست أملك إزاء هؤلاء وأولئك إلا حمد الله أن مكننى من أن أكون أداة لإسعادهم جميعا.

ليست هذه الانطباعات قصصا قصيرة ولا طويلة ، ولا هى بالأقصوصات، وإنما هى أقرب الصور الأدبية إلى ما نسميه فى العلوم البيولوجية بالقطاعات الطولية أو العرضية من النسيج الحى وإلى ما نسميه فى فنون التصوير (بالبوز)، أو بما نسميه فى التصوير الضوئى (بالمسقط)، أو بم أو ما نسميه فى الصورة الصحفية باللقطة اللحظية .

وليست هذه الفصول إلا صورًا متباينة لشخصيات متباينة فى لحظات متباينة، ويزيد من عمق التباين فى هذه الصور أنها كُتبت بنفسيات متباينة وبمشاعر متباينة وفى ظروف متباينة، ومع هذا فإنى لا أحسب أن هذا التباين سوف يكون هو الطابع المميز لهذا الكتاب ، وإنما سيجمع بين كل ما فيه شعور مسيطر باكتشاف الحقيقة ، ولا أقول باكتشاف الوهم ، ذلك أنى أومن بأن

التجربة كفيلة دائما بالوصول إلى الحقيقة متى احترمناها فى كل لحظاتها ، ومتى خضناها بروح منصفة بعيدة عن الرغبة فى إيذاء الآخرين أو خداعهم ، وأومن كذلك بأن خوض التجربة فى إطار غير هذا الإطار أو بروح غير هذه الروح هو الذى يقودنا إلى أن تتخلف لنا أو تتبقى فى نهاية التجربة أوهامٌ تتراكم مع أوهام كثيرة يقود إليها العبث ، لكن المشاعر الصادقة لا تنتهى إلا باكتشاف الحقيقة .

وبودى الآن أن أعود إلى ما بدأت به هذه المقدمة من أن التجارب قد قادتنى إلى اكتشاف الحقيقة لا الوهم ، بودى أن أعود لأقول إن الحقيقة التى تكشفت لى كانت أن التجربة لم تحظ من الحب إلا بأوهامه ، ومن هنا جاء اسم هذا الكتاب «أوهام الحب» . ولهذا فإنى أستطيع أن أقول باطمئنان إن «الحقيقة» كانت نتيجة طبيعية للتجربة ، على حين أن «الوهم» كان الطابع المسيطر على آمال الحب .

❑❑❑

من هنا يمكن القول بأن أوهام الحب التى يتحدث عنها هذا الكتاب ليست إلا حقائق موجودة وقائمة ومؤثرة وذات حق علينا فى معاملتها معاملة الأشياء والموجودات والمحسوسات ، ويبدو أن الحديث عن الحب لا يستقيم بدون الحديث عن أوهامه وأباطيله ، كما وأن الحديث عن الوجود لا يكتمل إلا بالحديث عن العدم.

هل أريد أن أقول إن للحب حقائق كما أن له أوهاما . . ومَنْ ذا الذى يستطيع أن ينكر ذلك؟

بودى الآن أن أنتقل من موقع الكاتب إلى صفوف جمهور القراء لأسأل نفسى: ولماذا لا تحدثنا عن حقائق الحب كما تحدثنا عن أوهامه؟.

وبمقدورى أن أقول لنفسى ولقرائى جميعا إن هذا الكتاب نفسه ليس إلا

حديثًا عن حقائق الحب . . حتى وإن طغت عليها أوهام الحب .

ومما يؤسف له أن أقول إن من الحقائق التى لا مراء فيها حقيقة تقول إن أوهام الحب قد طغت على حقائقه فى زمننا هذا الذى نعيشه ، حتى بلغ وجودها مرتبة الحقيقة وبلغ من طغيانها أنها قد انتصرت حتى فى عنوان هذا الكتاب .

❑❑❑

ومما ينبغى أن أشير إليه فى صدق وحب أنى لم أكن على الإطلاق من الذين يشغلون الوقت بأية علاقة ولا فى أية علاقة ، وإنما كنت فى واقع الأمر حفيا بالخبرة النفسية فى كل لحظة من اللحظات التى مرت بى أو علىّ فى أية تجربة خضتها ، ولهذا فإنى أكاد لا أعدو الحقيقة إذا قلت إن فى هذا الكتاب كثيرا من خلاياى، ومن دمى ، ولولا أن الحكيم العليم منَّ علينا بتجديد الدم والخلايا لكان هذا الكتاب قطعة من نفسى نفسها بكل ما فيها من ماديات ومعنويات .

ولست أزعم أن تسجيل هذه المشاعر كان بالأمر السهل أو اليسير ، وربما لم يكن بالجهد المحبب إلى النفس ، ولا الباعث لها على السعادة، ولست أستطيع من ناحية أخرى أن أتجاوز فأقول إنى وجدت نفسى مدفوعة إلى تسجيل التجارب لينتفع بها الآخرون . . وفيما بين هذا وذاك فإنى أظن أنى ألقيت عن عاتقى عبئا لم يكن يثقل هذا الكاهل وهو على العاتق بقدر ما يثقله وهو على السطور ، كما أنه يسعدنى وهو على هيئة سطور بأكثر مما كان يسعدنى وهو حبيس الصدور!.

وإنى لأرجو للقارئ أن يسعد بهذا الكتاب كما سعدت، وأن يسعد بقراءته على نحو ما سعدت بكتابته، وأن يستمتع بقراءة ما يحتويه على نحو ما سبقته أنا إلى هذا الاستمتاع الذى لاشك فيه.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يذهب عنى ما أشكو منه من وصب ومن

نصب، وأن يمن علىّ بالشفاء والعافية، وأن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه، وأن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يجعل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعنى وينفع غيرى بعملى وبعلمى، وأن يزيدنى علما وعملا وفهما وذكاء ووفاء وعطاء وولاء لوطنى وأهله أجمعين.

هذا وبالله وحده التوفيق ...

د. محمد الجوادى

الباب الأول

استثنـــاءات

1 أنا والأوهام*

أنا من ضيع فى الأوهام عمره ... نسى التاريخ أو أنسى ذكره
غير يوم لم يعد يذكر غيره ... يوم أن قابلته أول مره

قد قصدناه على غير اتفاق ... فنظرنا وابتسمنا للتلاقى
التقت عينى به أول مرة ... فعرفت الحب من أول نظرة

قلت والنشوة تسرى فى لسانى ... هاجت الذكرى فأين الهرمان
أين وادى السحر صداح المعانى ... أين ماء النيل أين الضفتان

آه لو كنت معى نختال عبره ... بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبرة ... حلم ليل من ليالى../كليوباتره

(*) هذه الأبيات للشاعر على محمود طه من قصيدته « الجندول » لم ترد بهذا الترتيب حين نظمها شاعرنا العبقرى ، ولكنها بالترتيب الذى بين أيدينا تلخص قصة حياة صاحب هذا الكتاب مع الأوهام ، وليس فيها من إضافة تغير الوزن أو القافية ، أما النقاط والشرطة المائلة التى فى الشطر الأخير من البيت الأخير فانها ترمز إلى موقف شخصى بحت ، وكأنها رسالة مشفرة ، وليس على القارئ أن يتعب نفسه فى المراد بها.

2 معشوقتى الهشة

لهذه الرسالة قصة بسيطة ، فهى التجربة الشعورية الوحيدة فى هذا الكتاب التى لم أمر بها مباشرة ، إنما هى تجربة صديق مقرب جداً إلى نفسى ، وقد قرأ كتابى « أوراق القلب » مرات عديدة ، وراقته فكرة رسائل الافتراق العشر التى تمثل الجزء الخامس من ذلك الكتاب الذى نشرته دار الشروق فى ١٩٩٥ وقد طلب إلىّ بحكم المحبة والصداقة أن أكتب له رسالة إلى حبيبته على نمط هذه الرسائل التى فى « أوراق القلب» .. وكان صاحبى جاهزا بعنوان الرسالة وهو العنوان الذى تحمله هذه الرسالة ، إذ رآه معبرًا عن الصفة البارزة فى حبيبته، وقد حاولت أن أثنيه عن هذا العنوان بالذات دون أن أفصح له عن السبب ، ولكن تصميمه كان حاسماً ، وكان تشخيصه واضحاً لا لبس فيه ولاغموض.. بل ربما حسدته على هذا التشخيص .

وفى إحدى المرات سألنى عن الصفة التى يمكن أن تحل محل « الهشة» فى وصف حبيبته ويبدو أن سؤاله كان مفاجئاً مع أن الحكمة كانت تقتضينى أن أتوقع منه مثل هذا السؤال منذ أن تحفظت على العنوان فى أول مرة ، ومع هذا فقد لجأت إلى اللغة الانجليزية لأقول له إننى اقترح عليه الوصف الذى تعبر عنه كلمة Brittle بديلاً عن الوصف الذى تعبر عنه كلمة Fragile وإذا بصديقى و له كل الحق يثور علىّ ثورة عارمة لأنه يعتقد أن حبيبته إن كانت قابلة للكسر أو القصف إلا أنها لم تنكسر أبداً .. وقد عذرت صاحبى فى ثورته ووعدته أن أضمن هذا المعنى الجديد فى الرسالة وكنا قد انتهينا من صياغة معظمها ، بعد إقراره ،وكانت نقاشاتنا حول كل فقرة تستغرق وقتا طويلا ، وظننت أن مثل هذا الاعتذار كان كفيلا بأن يريح ضميرى تجاه هذه الحيرة من جانبى فى موافقة صديقى على إضفاء هذه الصفة بالذات على حبيبته ، ولكنى لم أنم ليلتها .. وفى الصباح كنت أنا الذى توجهت إلى صديقى على غير موعد وعلى غير عادتنا فهو دائماً وأبدا مشغول ومنظم وهو الذى كان يأتينى فى كل الأحوال ، وبدأت له مقدمة طويلة كأنى أثبت بها لنفسى ما كان يقوله من أنه يعرف عنى الشجاعة الأدبية .. وبعد وقت غير قصير قاطعنى بالسؤال عن جدوى هذه المقدمة الطويلة فطلبت منه أن يسامحنى مقدماً ، ووعدنى بذلك بدون تردد ، وعندئذ اعترفت له بأنى كنت أدخر هذه الصفة لمعشوقتى أنا حين أكتب قصتنا ، ولهذا فانى كنت بكل الوسائل أريده أن يترك هذه الصفة دون استعمال حتى تكون لى أنا ولمعشوقتى حين يتاح لى أن اكتب رواية حبنا الخالد (أو ربما الفاشل) .

***

وفى الحق فقد تأثر صديقى كثيرا ، ووعدنى أنه سوف يجد الحل .... وبعد ثلاثة أيام لم أذق فيها طعم النوم فوجئت به وهو يقول إنه سامحنى ، وإنه فى ذات الوقت قد ازداد اعتزازاً بى وقد وجدنى أؤثره على نفسى وأكتب قصته ورسالته قبل أن أكتب قصتى ورسالتى فضلا عن أن أكتم مشاعرى طوال هذه المدة تجاه الصفة التى اختارها ، ثم إنه يفكر فىّ فى معشوقتى إذا حدث وتسرب إليها خطابه إلى حبيبته ذات يوم وهو بأسلوبى الذى لن تخطئه ... وفى نهاية حديثه أخرج لى ورقة مطوية من جيبه ، ودعانى إلى قراءتها فاذا بها تحوى إقراراً مكتوبا منه يوافق فيه بكل سرور على أن أنشر فى أى كتاب قادم من كتبى أو فى الطبعة الجديدة من « أوراق القلب » مسودة رسالته إلى فتاته « الهشة » بعد أن أحذف كل ما يشير إلى اسمها ووظيفتها ومكانتها فى المجتمع وأن أشير، وهذا هو الأهم، إلى أن هذه القصة ليست لى وإنما لآخر ... ومن العجيب أنه لم يكن يهمه أن يكون هو هذا الآخر أو ألا يكون .. وقد قال لى إنه يكفيه أن تقرأ حبيبته رسالته بين دفتى كتاب من كتب صديقه الذى كانت تشاركه الإعجاب به .. وكانت هذه أول مرة يخبرنى فيها صديقى أن حبيبته تعرفنى ! فاذا به هو الذى كان يعاملها معاملة الحريم فى العصر العثمانى لايعترف اليوم بأنها تعرفنى فحسب ولكنها، لحسن الحظ، كما يقول الآن قرأت كل حرف كتبته فى الكتب والمجلات والصحف .

***

وأردف صاحبى يقول إنى أعرف أنك لن تستفيد فى علاقتك بمعشوقتك شيئاً من نشر هذه الرسالة بل ربما شكت فيك أنك تقيم علاقة مع غيرها فى الوقت ذاته ، وربما تغضب حين تجدك تضفى بعض صفاتها على غيرها، وربما تظن أيضاً أنك تقصدها ، وتعرض بها بما ليس فيها من

صفات أو حتى بما فيها من صفات لاتريد للناس أن يعرفوها عنها ، وكان تقديره أن معشوقتى معروفة للناس لان الشعراء من أمثالى (وكان يضفى علىَّ هذه الصفة التى ليس لى منها نصيب) ليس لهم سر بينما هو شأن الفرسان لايذاع لهم سر ، وأردف صاحبى يقول : لهذا كله فانى قد كتبت لك هذا الإقرار ليكون شفيعك فى مواجهة معشوقتك .. ولم يكن صاحبى يعرف طبيعة مواجهاتى مع معشوقتى ، مع أنه هو وحبيبته يعرفانها حق المعرفة ، ومن حسن حظى أن معشوقتى لاتعرف أبداً أنهما يعرفانها ، ومن حسن حظى أيضا أنه لايعرف، حتى الآن، أن هذه التى يعرفها حق المعرفة هى معشوقتى !

***

وطيلة الأيام القليلة السابقة على نشر هذا الكتاب كنت فى حيرة : هل أضحى بهذه الرسالة الرائعة التى تفوق كل مافى كتابى هذا بما فيه من مشاعر وصور وتشبيهات وأخيلة كنت أنا عاجزاً عن الإتيان بها من دون تسجيل تجربة صاحبى مع حبيبته ! هل أنشرها على أنها من إبداعى مع أنها ليست كذلك ! وإذا حدث ونشرتها ماذا تقول عنى صاحبة التجربة؟ وماذا تقول لى معشوقتى التى مازلت أناديها بأنها هى الهشة؟

ولأن كلمة واحدة قد تكون كفيلة بانقاذ حياةٍ أوضياعها ، ولأن كلمة واحدة قد تكون كفيلة بانقاذ أمة أو دمارها فقد ظللت مترددا .. مترددا .. مترددًا .

وأخيرا جداً وجدتنى أكتب هذا الإيضاح .. ولايزال الإقرار معى ..

وقد بقى أن أذكر شيئين ربما سأل عنهما القارئ : فإذا كان للقارئ أن يسأل عن الوقت الذى استغرقته كتابة هذه الرسالة.. فانى أجيبه بكل

الصدق انها استغرقت خمسة شهور بالتمام والكمال ما بين أخذ ورد وشد وجذب وتعديل وترتيب حتى أصبحت على الصورة التى سوف يراها الآن ، أما الأمر الثانى فهو أن صديقى ألح على فى أن انتقى له من ديوان الشعر العربى الكبير بعض الأبيات التى تعبر عن حاله ، ولم أجد فى هذا المقام خيراً من أبيات الشاعر العربى « ديك الجن » وقد أعجب بها صاحبى أيما إعجاب ، بل إنه تمادى حتى جرحنى بأن قال إنه لو كان يعرف بوجود مثل هذه الأبيات منذ البداية ما كلف نفسه مشقة مراجعة وتنقيح وتعديل نص الرسالة الذى كتبته على مدى هذه الشهور الخمسة ، ولو أنه عرف ديك الجن لكان قد اكتفى بهذه الأبيات ... وعلى الرغم من أنى مجروح من هذا الرأى الذى يراه صاحبى وأرويه أنا بهذا القدر من الثقة بالنفس فإنى على كل الأحوال مازلت الفائز لأنى على أقل تقدير أعرف أبياتا لديك الجن بل لأنى أيضا قد أجدت صياغة رسالة صاحبى :

نص الرسالة

(١)

فى لحظات كثيرة أتصورك يامعشوقتى دون كل البشر أشبه ما تكونين باللبن الحليب ... ولم لا ؟ ودمك كله مثله قد يتعكر بذرة واحدة من التراب الذى خلق منه البشر ، وقد يتخثر بنقطة واحدة من الميكروبات التى يحملها البشر ، وقد يتجلط فى أى وقت تزداد عليه حرارة الحياة التى يحياها البشر ، وهو لهذا لابد له من وعاء يحفظه من كل ما يحيط به ولابد لك من ظروف مثالية حتى تظلى فى صورتك العليا .

وأنت يامعشوقتى كاللبن الحليب: غذاء كامل بوسع الذين يعرفونك أن يكتفوا بك عن كل شىء فأنت طعامهم وشرابهم فى الصباح والمساء ، فيك الحلاوة فلا يحتاجون المسَكرات كما أنك بما تصورين من آفاق السعادة الحقيقية لاتجعلينهم يحتاجون المسكرات ، وفيك الماء النقى فلا يصيبهم الظمأ بعد تناولك ، وفيك المناعة بكل صورها فأنت تحمينهم من كل صور الأمراض بل إن مناعتك تمتد فى الزمان ولاتقف عند ليلة أو نهار .

وأنت يامعشوقتى كاللبن الحليب لايمكن الاستغناء عنك أبدا ... لا فى الشتاء .. ولا فى الصيف ... لا فى أول الحياة كلها ولافى الطفولة ولا فى اليفوع ولا فى الشباب ولا فى الشيخوخة ولا فى آخر الحياة.

وأنت كاللبن الحليب لايلبث إلا أن يفور فى لحظة واحدة من لحظات الغليان ولكنه يتميز عن الماء الذى منه البشر حتى فى غليانه وفورانه ، فهو يرغى ويزيد إلى الأعلى فقط ، ويذهب هذا الغليان ببعض منه ، ولايفعل مثل البحر الذى يرغى ويزيد فى كل اتجاه ، والذى يرغى ويزيد ثم يعود إلى طبيعته لم ينقص منه شئ .

(٢)

أنت يامعشوقتى تبحثين عن مواصفات بعينها فى شريك حياتك ... تريدين منه أن يكون مثلك ، وأنت نادرة الوجود، ولهذا سوف يستحيل عليك أن تجديه ، لأنك لن تجدى مثلك أبداً ، ثم ماذا تفعلين بمثلك وأنت نفسك موجودة ، هل تظنين أنك تسعدين حين يتكرر طرازك النادر ، هل يتحمل الكون شمسين أو قمرين .. وماذا يفعل الكون بشمسين أو قمرين؟ إن وجودك وحده كاف ، وفى غيابك لايكون للأقمار الأخرى معنى ولا وجود ، ولا يكون للشموس الأخرى معنى ولا أثر .

أنت يامعشوقتى تظنين نفسك غير قادرة على التعامل مع مَنْ يختلفون عنك فى بعض طباعك ، وأنا أعجب بهذا و أعجب منه لأسباب كثيرة ، أعجب بهذا لأنه دليل بكارة مشاعرك وبراءة أحساسيك ، وأعجب من هذا لأنى لم أكن أتوقع أن أجد صاحبة هذا الخلق فى زمننا هذا ، وأعجب من هذا لأنى لا أستطيع أن أتصورك فى صورة غير هذه التى أعجب بها ، وقد حباك الله بكل القدرات التى وزع على خلقه أقداراً متفاوتة منها .

(٣)

ولهذا كله ، ولغير هذا فانى لا أستطيع يامعشوقتى أن أنكر أنى أعيش معك بوجدانى منذ عرفتك ، ومع أن الاعتراف هو أحد وسائل الإثبات على الإنسان فى حالات لايتمناها لنفسه فان للانسان السوىّ أن يفخر باعترافه فى أحوال نادرة .. ومن حسن حظى معك أنى فخور باعترافى أكثر من مرة، فإنى فخور بأن أعترف أنى أعيشك وأعيش معك بوجدانى منذ عرفتك ، ومرة ثانية فإنى فخور بأنى حين أعيش معك بوجدانى فانى أعيش مع نفسى الماضية التى كانت لى فى مرحلة هانئة ومبكرة من حياتى، والتى أتمنى أن تعود إلىّ ، أو أن تستبقيك لى على الصورة التى أنت عليها من براءة النفس ، وطهارة القصد ، وصفاء الضمير ، وأن تستبقينى أيضا لك – إذا أردت – بأضعاف ذلك القدر من الإيمان بك ، والامتنان لك، ، والسعادة معك .

إنى أعرف يامعشوقتى أن أمثالك فى عصرنا نوادر ، أعرف هذا عن يقين شديد لأنى كنت كمثلك ، ولأنى لم يسعدنى الحظ أن أصادف مثلك قبل أن أصادفك .. ومع أنى كما ترينني أوضح لك كثيراً من الصور والأمثلة

الكفيلة بأن تجعلك تستوعبين الحياة والأحياء ، فإننى مع هذا أتمنى لك أن تظلى على ما أنت عليه من قصور فى فهم الشر والأشرار حتى لو كلفنى بقاؤك هكذا بعض نفسى ، وحتى لو كلفنى الإبقاء بعض رضاك عنى الذى تريدينه بكرمك كاملا ... ولكنى لعجزى لا أستطيع أن أطلبه كذلك !! .

(٤)

إننى أقدر يامعشوقتى بكل حب كل ما تعيش روحك فيه من قيم سامقة ، وأقدر فى ذات الوقت مالا تظنننى أعلمه عن كل ما تعانين من الحياة ومن البشر ، وأقدر أيضا كل ما تطمحين إليه فى خضم ما تسعين وتبذلين من جهود .. ولكنى فى حقيقة الأمر أقدر أكثر من هذا كله الروح التى تختفى خلف كل ما يتبدى من سلوكك ، وهكذا فإنى أدرك عن حق كيف تعيشين القيم السامقة بفطرة نقية يفوق أثرها كل ترتيب ، وكل تعويد ، وكل تأقلم ، وكل تهذيب ، وأدرك أيضاً عن إيمان كيف أنك تتقبلين معاناة البشر بما جُبلت عليه النفس السوية من صبر على المعاناة وتقبل لها .. وأدرك أيضا كيف أنك لاتطلبين من الحياة شيئا لم تبذلى من أجله ما يفوقه من جهد، وكيف أنك لاتأخذين مما تعطيه لك الحياة إلا ما تعتقدين أنك تستحقينه مع أنك تستحقين كل ما فى الحياة من حياة وسعادة ورفاهية ونعيم وثراء .

لهذا كله فإنى يامعشوقتى كنت بكل ما كان يمكننى وبكل مالم يكن يمكننى أقدر كل ما يصدر عنك من تعبير راق عن مشاعر سامية ، وكنت على الدوام أتلقى الجرعات التى تتيحينها من تعبيرك بما ينبغى لهذه الجرعات النفيسة من التقدير اللائق بجوهرها ومخبرها ومظهرها

وملمسها وجرسها وشذاها.. وكنت ولازلت أرى أن كل الصفات الجميلة التى تنفرد بها تعبيراتك وهمساتك وسكتاتك وانفعالاتك وايماءاتك وانطباعاتك لاتزال تتأبى على الوصف الدقيق لأن كل صفاتك الجميلة لم تتح من قبل أبداً لمن أجادوا الوصف أو حاولوه .. ولا أخفى عليك أنى كنت بعد كل لقاء بك أحاول أن أستعين بكل ما أملك من ثقافة وخبرة على أن أجد سبيلا إلى الوصف الدقيق لهذا الذى يصدر عنك ، وأنى مع هذا كنت أجد نفسى عاجزاً عن أن أحيط به أو ألم باطرافه ، ومع أنى كنت أشعر بالأسى لهذا العجز الذريع فإنى كنت أحمد لله وأسجد له شكرا على النعمة التى لم يكن قلمى وحده قادراً على شكرها ، ولا أظن كذلك أن جسدى كله بسجودى لله كان قادراً على الوفاء بشكره سبحانه وتعالى على هذه النعمة التى أنعم علىّ بها فى وقت من الأوقات .. والتى يبدو لى اليوم أن نعيمى بها كان مؤقتا لأنى لم أؤد له سبحانه وتعالى حق الشكر الواجب عليها ولا اللائق بها ..

(٥)

أنت يامعشوقتى تخافين مسئوليات الارتباط، وأنت تقولين دائما لنفسك ولغير نفسك إنك لم تتصورى أن تكونى مسئولة عن نفسك قبل اليوم فكيف بك بعد هذا العمر الطويل تكونين مسئولة عن الآخرين ... وسوف تسارعين إلى أن تقولى إنك لم تصرحى لى بهذا .. نعم يا معشوقتى لم تصرحى ولم تلمحى ، وما أظنك كنت بحاجة إلى التصريح أو التلميح ، ولا أظننى كنت بحاجة إلى التصريح أو التلميح لأفهم هذا ، ولا أظنك كنت تظننى بحاجة إلى التصريح أو التلميح ، بل ولا أظننى أحسب أنك كنت تظننى ... ذلك أن عويناتك وبصيرتك وسلوكك وآراءك وهمساتك ولمساتك ولفتاتك كانت تنطق بهذا منذ أول يوم وحتى آخر لقاء .. ولقد كان بودى أن أقنعك بما أنا مقتنع

به طوال حياتى من أن الكفء منا يكون فى موضع القيادة أكثر راحة منه فى موضع التبعية ، وأن الانسان الذى يُعتمد عليه يجد فى المسئولية عن الآخرين راحة تفوق راحته حين يلقى بمسئولية نفسه على الآخرين ، كنت أود أن أؤكد لك هذه المعانى وأن أقنعك بها مرة بعد أخرى ، ولكنى بعد تأمل لحياتك الماضية وجدت أن إقناعك بمثل هذه الفكرة لن يتحقق إذا لم يرتبط بتجربة شخصية متكررة تعيشينها وتكررين معايشتها فى كل يوم .. وكنت واثقاً أننى لو استطعت أن أمكنك من أخذ زمام المسئولية عن نفسك وعن الآخرين ولو بعد شهور معدودة فسوف يتغير فهمك وتقديرك للمسئولية من نقيض إلى نقيض ، وعندئذ فقط يمكن لك أن تحكمى على قدراتك فيما مضى وفيما هو آت.

وبودى أن أعترف لك أنى كنت أتوجس أنى سأكون الضحية طيلة الفترة التى سيستغرقها منك تنامى إحساسك بالمسئولية وقدرتك على القيادة ، ولكنى كنت، كما تقولين، أحاول أن أكون بعيد النظر وواسع الأفق ، وكأنى كنت كما كنت تستنطقيننى حين كنت أسألك : إذ ما جدوى أن نبدأ حياتنا بقدم على الأرض ، وقدم على الفرس الجامح ؟ .

(٦)

ولقد كنت يامعشوقتى قريبا منك طيلة الفترة التى كنت تنمين فيها مهاراتك القيادية وتعمقين ما يستتبع هذا من روح المسئولية ، ومن فضل الله أنى ظللت قريبا جداً دون أن تشعرى بهذا القرب أو أن تحسيه ، ولربما كانت سعادتى فى كل تلك اللحظات أضعاف سعادتى الباكرة حين مررت بمثل هذه التجربة فى فترة مبكرة من حياتى .

وعلى الرغم من شوقى المتأجج يامعشوقتى إلى أن تخوضى التجربة بنجاح فقد كنت على الدوام مدفوعا إلى الدعاء لك حتى تجتازى العقبات التى قد تعيدك إلى نقطة الصفر ، والمصاعب التى قد تثنيك عن المضى فى الطريق ، وفى جميع الأحوال فقد كنت متيقنا أنك بحمد الله سرت فى طريق لايمكن الرجوع عنه حتى وإن رجعت فيه بعض خطوات ، كما كنت متيقنا أيضاً أن محصلة تجاربك فيه لن تتمثل فى النقطة التى وصلت إليها فحسب ، ولكنها سوف تتمثل فى نقطة متقدمة عن هذه النقطة بمقدار الخطوات التى قطعتها خطأ فى الاتجاه المعاكس ، كأنى أريد أن أقول لك إن رصيدك فى التجربة يوازى عدد الأميال التى قطعتها حتى وإن لم تكونى قد وصلت إلا إلى مسافة أقل بحكم أنك سرت أكثر من مرة فى الاتجاه المعاكس أو الاتجاه المائل .

ولعلى، يامعشوقتى، لا أكذبك إذا قلت لك إنى متيقن أن رصيدنا من بناء الحب يخضع هو الآخر لنفس القاعدة حتى وإن كنت بحكم شفافيتك المفرطة ورهافتك المطلقة وهشاشتك البالغة تظنين أن ما تبدد منك فى عبثٍ وخطأ قد انتقص من الرصيد الضخم لتجربتنا الثرية ... ولكنى أكاد أتيقن وأجزم أنه زاد فى هذا الرصيد حتى لو لم تكونى قادرة على تصديقى..

ولا أظنك الآن غير قادرة .

(٧)

إنى أفتقدك يامعشوقتى ، ولقد كنت أفتقدك فيما بين كل لقاءين بأصعب مما تتصورين وبأشق مما تتخيلين ، ولسوف تعجبين منى اليوم وأنا أعترف لك أن افتقادى لك رغم هذه الفترة الطويلة التى حرمتنى منك فيها

لم يؤجج فىّ مشاعر جديدة ، سوف تدهشين من هذا الاعتراف ، وسوف تعجبين لصدوره عنى بهذه السهولة ، ولكنى أستطيع أن أدلك على السبب دون خوف أو وجل ، ذلك أنى كنت بالفعل أصل إلى أقصى ما يمكن للشوق أن يصل إليه حين كنت أفتقدك على موعد بلقاء قادم ، ولا أظننى اليوم أفتقدك بأكثر مما كنت أفتقدك من قبل، وذلك لسبب غريب وعجيب ولكنه حقيقى ، وهو أنى كنت فى افتقادك الماضى قد وصلت إلى أقصى ما يمكن للشوق أن يصل بتباريحه بالعاشق إليه .. كنت أشتاق اليك بكل عمرى الماضى والآنى والآتى .. وليس فى وسعى اليوم وأنا أشتاق إليك على بعدك أن أزيد فى شوقى إلا أن اشتاق إليك بكل عمرك أنت الماضى والآنى والآتى .. ولا أظننى أملكه ، ولا أظننى كذلك أعيش من دون أن أملكه ، ولا أظننى أشتاق بدونه ، ولا أظننى كذلك بدونه قادراً على أن أشتاق .

(٨)

سامحينى يا معشوقتى إذا أنا لم أوفك حقك فإنى أنا نفسى لا أوفيك حقك .. وسامحينى مرة ثانية إذا لم تكن نفسى كلها قادرة على أن توفيك حقك فإننى أنا نفسى لست إلا حظك .. وسامحينى مرة ثالثة إذا لم أكن أنا قد أصبحت بالفعل حظك لأننى لا أتمنى اكثر من أكون أنا بعض حظك .... وبعض حقك .

قُولى لطيفكِ ينثنى عن مضجعى عند المنامْ
عند الرقاد ، عند الهجوع عند الهجود عند الوسنْ

***

قُولى لطيفكِ ينثنى عن مضجعى عند المنامْ
عند الرقاد ، عند الهجوع عند الهجود عند الوسنْ

***

فعسى أنام وتنطفى نارٌ تأجَّجَ فى العظامْ
فى الفؤادْ، فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البدنْ

***

جسدٌ تقلبه الأكفُّ على فراشٍ من سقامْ
من قتادْ ، من دموعْ من وقودْ ، من حزنْ

***

أما أنا فكما علمتِ فهلْ لِوصْلِكِ مِنْ دَوَامْ
من معادْ ، من رجوعْ من وجودْ ، من ثمن

***

3 كانا مقامرين

(١)

كانت سمة المقامرة المحسوبة أبرز ما يجمعهما فقد كان كلاهما مقامراً ولكنهما كانا يغامران بالألف من أجل الألف الثانية لا من أجل المليون ، وكانا يقامران بالمليون من أجل المليون الثانية لا من أجل المليار ، وكانا يظنان نفسيهما قادرين على المضى إلى آخر حدود المقامرة ماداما قادرين عليها ومتحسبين لها ، ولم يحدث أن أحداً منهما استشعر حرمة ولاخطراً فى هذه المقامرة ، ولا استشعر كذلك رغبة فى زيادة حدودها عما ينبغى أن يكون.

ولكنهما مع هذا كانا مختلفين إلى أقصى حدود الاختلاف فيما يتعلق بروح المقامرة ... فعلى حين كانت هى لاتعلن عن نيتها فى المقامرة إلا عندما يكون فى يدها ما تقامر به فقد كان صاحبها يعلن عن عزمه على

المقامرة متى توافر له ما يقامر به .. كان يقامر على أنه سيقامر ، ولكنها كانت لاتقامر إلا حين تجد ما تقامر به بالفعل.

وعلى قدر ما كانا مختلفين فى الروح التى يقامران بها فقد كانا كذلك مختلفين فى نظرتهما إلى سلوكيهما فى هذه الناحية فقد كانت تظن أن خيالها لا يصل إلى ما يصل إليه خياله ، ولكنه كان يعتقد أنها كانت أكثر تحرراً بخيالها من أن تحصره فى إطارات من التوقعات ، وكان يلخص لها الفرق بين طبيعتيهما فى قوله إن احترامها للمقامرة يفوق احترامه لها ، بينما حبه للمقامرة يفوق حبه لها ، وكانت ترد بالقول إن العكس هو الصحيح وإن احترامه هو الذى يفوق احترامها ، وإن حبها هو الذى يفوق حبه.. وكانت تعلل هذا بفكرة صائبة وهى أنه يستعد للحظة ويوفيها حقها من قبل الحصول عليه ، أما هى فانها تدخر فى نفسها ما يليق باللحظة ولا تبذله إلا عندما تأتيها ....

(٢)

وعلى هذا النحو عاش هذان الحبيبان العاشقان أحلى فترات عمريهما حين كانا معا .. وعاشا أتعس لحظات عمريهما حين قُدر لهما أن يفترقا ، فلم يكن فى وسعه أن يجد سلواه فى سواها ، ولم يكن فى وسعها أن تجد سلواها فى سواه ، ومن المدهش أنهما كانا يعرفان فى نفسيهما طبيعة انتماء بعضهما لبعض ، ولكنهما كانا يعاندان ، وكان عنادهما صورة طبق الأصل من نفسيهما ، فقد كانت تعاند بالرفض المتكرر والحاسم والقاطع والبات وكانت تتعدى الرفض إلى ما هو بعده ، وكانت صديقاتها من ذوات الخبرة بالنفس البشرية يجدن فى كل هذا الرفض دلالة على حب لايعرفن له حدوداً ، وكان هذا الاكتشاف يغيظها ويدفعها دفعاً إلى الارتماء فى أحضان الرفض حتى ضاقت بها أحضان الرفض نفسه .

(٣)

أما هو فقد كان أكثر حبًا للمقامرة ، كما ذكرنا ، وكان لايفتأ يردد لكل الذين يعرفونهما أنه لايستغنى عنها ولن يستغنى عنها ، وأنه لا يعيش إلا ما دامت هى حية ، وأنه يعشق كل ما فيها حتى الرفض ، وأنه لن يرتبط بغيرها ما قدر له أن يعيش ، وأنه يكفيه منها بعض ما منحته فيما مضى ليستبقى نفسه لها طول عمره الباقى ، وعلى الرغم من أن نبرة الصدق كانت واضحة جداً فى كل ما ينطق به فإن أحداً ممن استمع إليه لم يتقبل فكرة أن يعيش انسان بمثل هذه المشاعر دون أن يبذل بعض الجهد فى سبيل تحقيقها ، ولكنه كان ، كما ذكرنا ، يقامر ، وكان يعترف لخلصائه أنه يقامر بحياته من أجلها مع أنه لايملك هذه الحياة بعد ما استحوذت عليها منه.

وكانوا يعجبون ، ولم يكن هناك قدر من العجب يمكن أن يصف عجبهم من هذا المتفانى فى الحب دون أن يبذل أى جهد فى أن يعبر لمعشوقته بفعل حقيقى ولو كان متهوراً عن بعض هذا ، ولم يكن لهم ليعجبوا لو أنهم فهموا ما ذكرناه من أنه كان يعلن عن عزمه على المقامرة حتى من قبل أن يتوافر له ما يقامر به !! ولكنه كان كما فهمت هى دون غيرها يحترم المقامرة ويستعد لها ويوفيها حقها حتى من قبل أن يتمكن من الحصول على ما سوف يقامر به.

(٤)

أما هى فكانت تقامر به وهو فى يدها بينما تتظاهر للناس أجمعين أنها لا تقامر به لأنها رفضت أن يكون فى يدها بينما كان من الواضح لكل ذى بصيرة أنه فى يدها وفى قلبها وفى كل نقطة من دمها وفى كل خلية باقية

من أعصابها على الرغم من كل ما بذلت فى سبيله جهدها من إنكار ورفض.

وكان الذين اتيح لهم أن يتعمقوا البحث فى علاقتهما لايجدون أنفسهم أكثر من حائرين من أن يحدث كل هذا الذى يرّونه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم على هذا النحو الغريب ، ولكنهم فى خضم هذه الحيرة كانوا متأكدين من شئ واحد فقط هو أنها لم تخلق إلا له ، وأنه لم يخلق إلا لها ، ومع هذا كان هؤلاء جميعاً يتطلعون أن تمتد بهم الحياة حتى يروا نهاية لهذا الذى حسبه بعضهم عبثا ، وحسبه الآخرون عذابا، وحسبته هى شيئا يتأرجحُ بين التشويش والتشويق .. أما هو فكان يرى فى كل ما حدث نوعاً من التكفير عن سيئاتهما قبل أن يلتقيا .

4 من حب الذات إلى عشق الآخر

(١)

كانت إذا أرادت تذوب رقة ... فلا تنطق إلا همسا ، ولا تتكلم إلا بالحب ولا تتحدث إلا عن ولائها للعشق وانتمائها لحبيبها ، وكانت تفعل هذا عن رغبة حقيقية فى أن تفعله ، ولكنها كانت فى أغلب الأحيان تظن أن هذا لايليق بها فاذا بها تنهى نفسها عن أن تبدأ فيه ، وكانت إذا وصلت إلى مرحلة متقدمة من هذه الرقة ترتفع حتى لا يصبح من المتصور إعادتها إلى طبيعتها البشرية إلا بجهد جهيد ، وكان سلوكها فى هذه الأحوال أقرب إلى التسامى منه إلى الذوبان فهى تستحيل من الجمود إلى حالة لايمكن وصفها وكأنها ذلك الخيال الذى لأيمكن وصفه إلا على سبيل التقريب بأنه الروح الطائرة الموحية العطرة ومع هذا فانها فى حياتها اليومية كانت لاتكف عن إظهار أقصى درجات التعاظم ، ولم يكن تعاظمها غروراً أبداً على الرغم من أن كثيرين ظنوه كذلك ، ولكنها كانت فيما بينها وبين نفسها تعلم حق العلم أن هذه الدرجات المفتعلة من التعاظم كانت بمثابة الصور المقلوبة لإحساس عميق ودفين ومتجدد بالدونية دون أن يكون لها ذنب فى هذا الدونية ، ولكنها لم تكن فى حكمة أبى العلاء المعرى لتنجى نفسها من الاتهام .. ومع أنها كانت تلجأ إلى التعاظم فى كل ما يمس صورتها

الاجتماعية فإنها نادراً ما كانت تلجأ إليه فيما يمس صورتها العقلية فقد أنعم الله عليها بعقل متقدم عن أقرانه من العقول ، وشاء جل جلاله أن يحرمها مما كانت تتوق إليه من سند اجتماعى يتوازى مع تفوقها العقلى ، ولهذا فقد كانت تلجأ إلى هذا التعويض فيما هى محتاجة إليه فيه.

(٢)

وكانت تحرص فيما يتعلق بنفسها على إبداء روح التعاظم والافتخار بالتعاظم الذى حال بينها وبين انتهاز الفرصة للإثراء بقبول عروض عمل فى الخارج بالآلاف المؤلفة ، وكان محدثها يصحح لها أن العمل الوظيفى فى الخارج لايهيىء الاثراء ولكنه يهيىء اليسر فحسب ، ولكن ثقافتها الاجتماعية كانت أضعف من أن تفرق لها بين الدرجتين .. وظلت على هذا الزعم يوما بعد يوم حتى جاءت لحظة وجدها فيها زملاؤها وقد قبلت عرضاً بآلاف لاتتعدى أصابع اليد الواحدة ، ولم يكن أحد منهم ولا ممن هم أدنى كفاءة منها ليقبل هذا العرض ، وحين استنكروا عليها هذا القبول اعتذرت بأنها تفعل هذا لمجرد تغيير الجو ، ولكن جو العظمة الذى كانت فرضته حول نفسها لم يسمح لها أن تستمر فى القبول بعد كل هذا الاستنكار الظاهر الذى قابلها به زملاؤها .. ومع أنها كانت فى أمس الحاجة إلى هذا القدر الضئيل من المال فإنها حُرمت الرزق «الحاضر» بسبب تضخم مزاعمها عن الرزق «الماضى» ، وظلت صاحبتنا على هذا النحو مهيبة الجانب أن يعرض عليها ما هو دون أوهامها .. ومع أن الجميع كانوا قد أيقنوا أن كل ما ترويه وهم ، فانهم كانوا يدركون أيضا أنه وهم مقدس عند صاحبتهم وأنه ليس من حقهم الاقتراب من هذا الوهم.

(٣)

كانت تزعم أن بداخلها كثيراً من المشاعر الكفيلة بغمر مَنْ يحبها ، ولكنها فيما بدا لصاحبنا كانت تستحوذ لنفسها على كثير من المطالب الكفيلة بغمر مَنْ يحبها

إلى درجة إغراقه فى الديون والمشكلات ، ولم تكن فى واقع الأمر تريد من محبها إلا أن يكون أقوى من الخيال ، ولم تكن فيما تصرح به تقبل أن يكون أقل من أن تجتمع فيه كل طموحاتها بحيث يكون فى ذات الوقت عاشقاً مولعا بها، وخادماً أمينا عليها ، وسيداً مشرّفا لنفسه ولها ، ومَصّرفاً لايكف عن طبع البنكنوت ، وعصا سحرية تحيل لها أوهامها إلى حقائق ، وأحلامها إلى أوامر ، وكانت تقنعه بأنها تستحق كل ذلك وأكثر من ذلك ، وأنها تستحق هذا لذاتها لا لصفاتها ، ولم تكن لتعترف أن الصفات هى التى تقدم الذات إلى المحب ، وإنما كانت على عقيدة راسخة بأن ذاتها تتجاوز كل الصفات ، وأنها تستحق الحب والعشق والوله والهيام حتى ولو لم تتألق لها صفات تثير العشق والحب والوله والهيام ، وكانت تختزل هذه المعانى فى قولها لحبيبها إنه ينبغى أن يحبها لأنها هى فلانة وكفى ! فاذا حاول أن يطلب منها أن تتحلى بصفات يوصف بها اسمها قالت إن اسمها فى حد ذاته أكبر من كل صفة ، ولم يكن حبيبها قادراً على أن يفهم كيف يكون الاسم أكبر من كل الصفات ، أما هى فكانت تظهر دوما أنها متيقنة تمام اليقين من أن اسمها هى بالذات أكبر من كل شئ ذى قيمة فى كل هذا الكون .

(٤)

وحاول صاحبنا أن يقنعها بأن تعبر عن نفسها بالمقارنة بعظيمات التاريخ ، ولكنها كانت تعتقد أنها أعظم من هؤلاء جميعا لأن لكل واحدة منهن عيباً استطاعت هى تجاوزه ، فهى أعظم من كليوباترا التى وقعت فى حب الرجال بينما هى لم تقع ، وهى أعظم من امرأة فرعون لأن تلك الزوجة الصالحة تخلت عن نصرة زوجها ولم تستطع السيطرة عليه بافكارها الجديدة ، وهى أعظم من مارى انطوانيت لأنها لم تسمح للشائعات بأن تنال منها... فاذا قيل لها ومن أدراك ؟ هبت كالعاصفة الهوجاء التى لاتبقى ولاتذر ! ، وهى أعظم من جان دارك لأنها تؤدى وظائف الرجال دون أن ترتدى أزياءهم ، وهى أعظم من صوفيا لورين لا لشىء إلا لأنها جاءت إلى الدنيا من زواج شرعى ، وهى أعظم من أنديرا

غاندى لأنها صنعت مجدها بنفسها ولم ترث أباها فيه ، وهى أعظم من بنت الشاطئ التى قبلت على نفسها أن تكون زوجة ثانية ، وهى أعظم من جيهان السادات التى قبلت أن تتزوج رجلاً سبق له الزواج .... وهكذا .. وهكذا .

ومع كل هذه المقارنات التى كانت فى ظنها تنتهى لصالحها فقد كانت عاجزة على الدوام عن أن تواجه أى موقف دون اللجوء إلى أهلها أو زملائها وكانت تبرر هذا اللجوء بأنه سنة الحياة وأنه من دونه لن تصل إلى شىء، ومع هذا فقد كانت تلعن المحسوبية فى كل مرة تلجأ إليها فيها ، لكنها كانت أيضاً تعتز بأنها استطاعت تدبير المحسوبية المناسبة لكل موقف قابلها فى الحياة ، وكانت تعلق على هذا المعنى بأن كثرة المعارف مفيدة ، ولكنها لم تحاول فى يوم من الأيام أن تكون هى نفسها بمثابة الملجأ أو الملاذ الذى ينقذ أياً من الآخرين.

تنامت فيها القدرة على الأخذ والأخذ المستمر حتى أصبحت تتصور العطاء نوعاً من العار فى بعض الأحيان ، ونوعا من الغفلة فى أحيان أخرى، ولم يكن هذا الخلق الذى أصبح بمثابة سمتها البارزة ، من صفاتها الأصيلة ولكنه تنامى فيها بعدما رزقها الله ترتيباً متقدماً بين أترابها فى مرحلة الدراسة وكانت قد احتالت من أجل الوصول إليه حتى كادت تبذل فى سبيلة نفسها كلها ، واحتالت من أجل الحفاظ عليه حتى بذلت من أجل ذلك أعصابها كلها.

وعلى الرغم من بقائها فى موقع متقدم فإنها لم تقدم لنفسها ولا لمجتمعها ولا للأجيال التالية لها ما ينبغى أن تقدمه مَنْ هى فى مثل موقعها ، وظلت على مدى سنوات فى نقطة البداية المتقدمة ، والدنيا تموج بالحركة من حولها حتى سبقها كل مَنْ كانوا تالين لها ، وهى لا تزال تعيش فى وهم أنها كانت قد سبقتهم فى البداية ، ولهذا فهى السابقة على كل الأحوال ، وهكذا باتت تقنع نفسها يوما بعد يوم بما ليس بالحقيقة ، وقد تناست أن الحياة حياة ، ولكنها كانت تعتقد أن من حقها إيقاف الصورة بطريقة « الفريز » على نحو ما تفعل فى مشاهدة شرائط الفيديو بالريموت كنترول .

(٥)

وصفها واحد ممن رأوها لوهلة عابرة بقوله إن كل جزء من أجزاء وجهها جميل بمفرده، ولكن وجهها كله ينقصه الجمال ، كانت لها عيون ساحرة بعض الشئ ، وأنف رومانى ، وشفتان دقيقتان ، ووجنتان ملتهبتان ، وجبهة عريضة ، ولكن تعبيرها بوجهها كان دائماً مشدوداً إلى المجهول ، وكانت عيناها فى أغلب الأوقات قلقتين وفيما تبقى من الأوقات كانتا أقرب إلى ذبول الاسترخاء منهما إلى نعسة الحوالم ، وكان أنفها مشتعلا كأنه يخرج الدخان باستمرار ولو أنه كان لغيرها ممن رزقن نعمة الرضا لكان أكثر الرموز تعبيراً عن أرفع معانى العزة والكرامة ولكنه كان عاجزاً عن أن يشى بهذا المعنى ، وعاجزاً أيضا عن ألا يشى بمعنى الغضب والانفعال ، وكانت شفتاها ملتويتين تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار ، مع أنهما كانتا بدون ذلك الجهد المبذول فى الالتواء أقرب إلى الدقة الرقيقة والرقة الدقيقة ، ولكنها كانت للأسف الشديد، وكأنها تجهد نفسها فى تشويه صورة وجهها ، وكانت أبشع صورها حين تنفخ شدقيها وتقلب شفتيها تعبيراً عن الاشمئزاز ، فى هذه اللحظة كانت تبدو فى اكثر الصور إثارة للاشمئزاز بينما هى تريد أن تعبر عن الاشمئزاز ، وكانت تظن نفسها اكبر من الاشمئزاز فاذا بالاشمئزاز نفسه يحيلها إلى صورة مشوهة منه .

وكانت تحب أن تبدو واثقة من نفسها ولكن عينيها كانتا قادرتين على الكشف عن خوفها حتى بدون أن تقصد أو تدرى ، وفضلاً عن ذلك فان أسنانها المصطكة كانت تحاول أن تحبس تعبيرات الخوف حتى لاتخرج من فمها ، ولكن وجنتيها سريعتى التلون كانتا قادرتين على الكشف عن مكنون نفسها بوضوح ، وحين كانت تعرف من محدثيها أنهم اكتشفوا ذلك منها لم تكن تجد حرجاً فى أن تعترف ، ولكنها كانت تختلق لهم سببا آخر لهذا الخوف على حين لم يكن يهمهم إلا أن يستحوذوا منها على الإقرار بأنها كانت خائفة !

(٦)

كانت تتعطش للرفاهية ولكنها كانت تحاول بكل ما أوتيت من قدرة على الإنكار أن تنفى عن نفسها وقوعها أسيرة لهذا التعطش .. وكان إنكارها المستمر كفيلا بأن يعطيها صورة الزاهدة فى الرفاه ولكن إنكارها الشديد كان ينهار تماماً فى اللحظة قبل الأخيرة حين تجد أن قرار حبيبها قد يتجه إلى الغاء برنامج الرفاهية أو تأجيله ، وفى تلك اللحظة بالذات - وقد تكررت كثيراً - كانت تقول لنفسها بصوت خافت : ولكن ربما لاتأتينى الفرصة لهذه المتعة مرة أخرى .. وكان حبيبها بنبل شديد ينحاز إلى قرار الرفاهية فى اللحظة الأخيرة بعدما كان قد قرر من باب الاستجابة لسياستها الأولى أن يؤجل الرفاهية إلى حين آخر .

(٧)

كان صاحبنا يعتقد أن أصعب أوقات حياتها حين تعيش بعاشق واحد فقد كانت تهوى تجميع العاشقين حول قلبها ، وعلى الرغم من أنها كانت تفعل ذلك فى الخفاء ودون أن يعلم بعضهم عن بعض شيئاً فإن حديثها كان يكشف للمجربين منهم عن هذا السر الدفين بسهولة شديدة (وللأسف فإن صاحبنا لم يكن من المجربين) ، فقد كانت تسأل الأول لماذا لم يفعل بحياته مثلما فعل الثانى ، وكانت تسأل الثانى لماذا لم يفعل بحياته مثلما فعل الأول ... وهكذا ... وكان من السهل على الأذكياء ممن وقعوا فى عشقها أن يحددوا " الآخر " الذى شاركهم نفس الحقبة الزمنية وذلك من تذكر الاسئلة التى وجهتها إليهم فى ذلك الوقت المحدد ، كذلك فقد كان من السهل على عشاقها الذين طال عشقهم لها، من أمثال صاحبنا، اكتشاف أنها أوقعت عاشقًا جديداً فى عشقها عندما يجدونها تطرح أسئلة جديدة عن سلوك جديد أو عن نمط من الحياة جديد .. وعلى الرغم من هذا كله فقد كانت تحتفظ بذاكرة قوية تعى كل الآراء التى يبديها العشاق فى بعضهم .. وحدث لعاشقها الأخير أنه أراد أن يغيظها فى أحد عشاقها العابرين بآراء كانت تتناقض مع آراء أخرى له فى عاشق سابق فاذا بها تواجهه بآرائه

السابقة ، ومع أنه كان من السهل عليه أن يجد المخرج من التناقض الذى دفعه إليه حبه لإثارتها فإنه فضّل أن يصدمها بقوله: إنه يتعمد التقليل من كل ما قد تحبه حتى تظل دائماً أقل مما تبتغى أن تصور نفسها فيه أمامه !

(٨)

فى تلك اللحظة انهارت صاحبتنا تماماً وأقسمت أنها لاتحب غير ما يفعله هو ... ولاتكره إلا ما ينتقده هو .. ولم يكن صاحبنا من السذاجة أو الغفلة بحيث يظهر لها أنه صدّق ما أقسمت عليه ، ولكنه مع ذلك أكد لها أنه يعرف ذلك تماماً من أخلاقها النبيلة ، وكانت النتيجة أنها ازدادت قلقاً لأنها كانت تحب لنفسها أن تبذل الجهد فى إثارته فاذا به يُظهر لها وبدون أى مجهود أنه صدقها، وإذا به يظهر لها أنه هو الذى يبذل الجهد فى إثارتها، وحين عبرت له عن هذا المعنى فى اليوم التالى سألها وهل تعتقدين أن الحب شئ غير ذلك ؟ وراعه منها أنها أجابته بقولها إنها كانت تعتقد أن هذا هو الكره بعينه .. ولكنه مع ذلك استطاع على عجل أن يهدئ من روعها بقبلة عميقة جداً خُيل إليه فيها أنه قد بذل من روحه بعض عمره بينما صاحبته مستسلمة تمام الاستسلام على غير عهدها معه فى قبلاتها البروتوكولية الطائرة... ولم تكن فى حقيقة الأمر قد سمحت لغيره حتى بالقبلات البروتوكولية الطائرة.

وأفاق صاحبنا على صاحبته وهى تقول له إنها لم تذق طعم الحياة قبل هذه القبلة! فاذا به يجيبها بأنه كان يظن أنها لن تقول أكثر من إنها لم تذق طعم الحب قبلها .. ولكنها قالت له بكل استسلام : وكيف يذوق طعم الحب من لم يذق طعم الحياة؟ وساعتها فقط أحس صاحبنا أنه ظلمها كثيراً جداً دون أن يدرى أنه كان يظلمها حين ظنها متعددة العشاق بينما كانت فى ذلك الوقت كالوثنيين تظن الأصنام آلهة ، وتعبد أكثر من صنم فى وقت واحد دون أن تعرف معنى الألوهية ولا معنى العبادة !!

ولربما بدأت الآن، والآن فقط، تعرف معنى العبادة ومعنى الحب أيضاً .

الباب الثاني

أمنيـــات

5 كانا يمضيان فى نفس الطريق

(١)

لم يكن يجد فيها بعض ذاته فحسب ، ولكنه كان يجد فيها كثيراً جداً من ذاته ، وإن لم يجد فيها بالطبع كل ذاته .

كان يجد فيها طموحاً لا حدود له لكنه طموح يستند إلى أساس من الجد والاجتهاد ..

وكانت رغبتها فى الاتساع بمعارفها لاتقف عند حد ، وإن كانت تظن نفسها غير قادرة على هذا التوسع فى المعرفة والمعارف ، وكانت فى رغبتها قريبة إلى حد بعيد من الصورة التى تكونت عنه هو نفسه فى أذهان مَنْ عرفوه ، ولكنها كانت تختلف عنه فى أنها لم تكن تعرف فى نفسها هذه القدرة ولم تكن أيضاً تظن نفسها بهذه الصورة، فقد كانت تحصر هذه

الرغبة فى أن تتعرف على الطرق التى أمامها فحسب ، وكانت تظن أن معرفتها بهذه الطرق كفيلة بأن تعرف بقية ما خلق الله من طرق وطرائق .. ولكن صاحبها كان يؤكد لها أن معرفة الطرق لاتبدأ أبداً من الجدول الضيق وإلا ما وصلت إلى المحيط الواسع إلا بعد زمن طويل ، ولكنها تبدأ بالاحاطة من علٍ بالمحيط الواسع ثم الخلاص منه إلى البحار فالبحيرات والأنهار والجداول ، وكانت تصدّقه لبعض الوقت ولكنها كانت تشك فيما أقنعها به حين كانت تفاجأ بمعرفته بالأجزاء الدقيقة فى موضوعات كثيرة جداً رغم منهجه الذى يبدو وكأنه يقتصر على الإحاطة بالكليات من كل شئ فحسب ، وكان ينبئها بأن هذا لم يأت إلا من أنه استوعب الكل ليصل إلى الجزء ، وكانت تظن أن التعمق فى الجزء سيبعدها عن الكل ، ولكنه كان يؤكد لها أنها لو تعمقت فى أكثر من جزء فستكتشف الكل بكل سهولة ، وحين كانت تفعل هذا وتصل إلى ما وصلت إليه كانت تبدى لنفسها الندم على أنها لم تسلك هذا السبيل من وقت بعيد .

(٢)

وكانت تبدى له الندم على أنه لايأخذ من حياته بعض الوقت ليقلدها كما تفعل هى حين تقلده ، كانت تأخذ عليه أنه لايجاملها بأن يسلك سبيلها فى بعض الأوقات حتى يكونا شيئاً واحداً ، وعبثا حاول أن يثبت لها أنه مضى أحيانا فى نفس السبيل الذى مضت فيه ، وعبثا حاولت أن تثبت له أنها لن تمضى دائماً فى السبيل الذى هو ماض فيه ، ومع هذا كله فقد كانا يمضيان فى نفس الطريق ، وكانت تظن أنها لو ابتعدت عنه فلن تمضى

فى طريقه ، وقد فاتها أنها مهما ابتعدت فإنها فى نفس الطريق لأن طريقه (وطريقها أيضا) كان أوسع بكثير من أن يضيق عليها .

كانت تجيد الاستماع وتجيد المقاطعة وتجيد التعليق ، ولكنها كانت تحاول أن تجعل سماعها انتقائيا بحيث تستمع لما تريد أن تستمع إليه ، وتأبى أن تستمع إلى ما لاتريد .. وحين كانت تقاطعه فإنها لم تكن تستفسر عن شىء فاته أن يرويه ، وإنما كانت تعبر عن رغبتها فى ألا تستمع إلى ما بدأ فيه من حديث فرعى أو جديد ، كأنها لاتريد أن تثبت على نفسها أنها استمعت إليه.

(٣)

أما تعليقاتها فكانت صادقة جداً فى التعبير عن كل ما فى النفس الشريفة من تطلع إلى المثل العليا ، ولكنها على الرغم من ذلك كله كانت لاتزال حيرى تماما بين كنه الصواب وكنه الخطأ ، ولم تكن ، حتى قابلته ، قد عرفت مغزى القيم الانسانية الكبرى : الحب والخير والجمال ، وكانت شأن بعض الفئات المنعزلة من الشعوب السالفة لاتؤمن إلا بالصواب ، وشأن بعض الفلاسفة ضيقى الأفق لاتحتكم إلا للعقل ، وكان يأخذ بيديها فى رفق لتفهم معنى الحق ومعنى الخير ومعنى الجمال ، وكانت تتمتع بفكرة سريعة عن الجوانب المختلفة التى تتبدى بها كل قيمة من الثلاث فى حياتنا الدنيا ، ولكنها لم تكن تدرى معنى ما يقوله من أن الحياة كلها ليست إلا صراعا من أجل إمكانية نجاح هذه القيم فى السيطرة على الحياة وعلى الأحياء ، وكانت كثيرا ما تسأل عن الصواب والخطأ فى كثير من التصرفات فلا

يجيبها معشوقها إلا بأن السؤال نفسه خارج عن الموضوع ، وأن الأولى أن يكون السؤال عن قيمة أخرى .. ولم تزل به (ولا نقول لم يزل بها) حتى استطاعت أن تتشرب نظرته للحياة وهى نظرة الذين مَنَّ الله عليهم بالقدرة على السعادة بالحق والخير والجمال ، ووصلت فى فترة قصيرة إلى السعادة بالسعادة الجديدة التى لم تكن قد عرفتها من قبل ، وكانت لغرامها بهذه السعادة أكثر حرصاً منه على تدبر كل ما يقابلها فى ظلال فهمها الجديد.

(٤)

ولكنها على الرغم من ذلك كانت تُفاجأ بنفسها وقد خضعت فى لحظات كثيرة لهواجس ووساوس تصور لها أنه لابد من الاحتكام إلى العقل .. وكانت فى تلك اللحظات أصدق مثل للذين لا يخطئون إلا حين يظنون أنهم وصلوا إلى الصواب فيصيبهم الشك بينما هم قد أوشكوا على اليقين ، ولولا أن الله حباها عاطفة قوية ما أمكن علاجها من هذه اللحظات القاسية.

وكان فضل الله عليها عظيما أن هيأ لها موقفا انتصرت فيه نفسها العليا على وساوس العقل وهواجسه الدنيا ويومها قالت لنفسها بعد لحظة سعادة عميقة إنها اخطأت وعملت شيئاً صوابا ... ولم يكن عاشقها بعد ذلك بقادر على أن يبعد عنها وساوس العقل المجرد إلا بأن يدعوها إلى أن تخطئ وتعمل شيئاً صواباً ... وعند ذاك فقط كانت تتحول إلى الطبيعة الملائكية وتنضو عن نفسها أخطاء العقل لتفعل الصواب المطلق.

6 ظل يبحث عنها منذ زمن بعيد

(١)

كان يبحث عنها منذ زمن بعيد، وكان كلما وجدها أو خيل إليه أنه وجدها انتابته السعادة، ولكنه كان يفيق من سعادته ليجد أنه وجد السراب فحسبه ماء.. ولم يكن اكتشافه لحقيقة السراب يأخذ منه إلا سويعات قليلة جدا، ولهذا فإنه حين أفضى إلى نفسه أنه وجدها هذه المرة لم يكن يبالغ، ولم يكن يخدع نفسه، فقد أقنعته نفسه هذه المرة أنها مادامت قد تقبلتها طيلة كل هذه الأيام فإنها هى تلك التى يبحث عنها، ولكن نفسه الأخرى كانت تسول له الشك وتدفعه إلى الريبة وتثير فى وجه نفسه الأولى الاستفهامات والاستنكارات والتعجبات، ولكن نفسه الأولى تصمد أمام نفسه الثانية، وتزعم أنها هى الأنا العليا، فتتقبل نفسه الأخرى هذا الزعم إلى حين، وتنبهه إلى أنه مخدوع، أو قد يكون كذلك، فيقول لها إذا كانت الصورة

شبيهة بالأصل إلى الحد الذى يجعلنى أنخدع طوال هذ الوقت فمرحبا بالانخداع، فتجيبه نفسه الأخرى أنه انقلب رأسا على عقب، وأنه لا يجوز للذين يقفون على رءوسهم أن يصدروا أحكاما تتوقف عليها حيواتهم، فيسأل هو كيف أقف على رأسى؟ فتجيبه نفسه الأخرى التى يراها هو الآن أمارة بالسوء: ألا ترى أنك تشبه الأصل بالصورة بدلا من أن تشبه الصورة بالأصل؟ ألم تنتبه إلى عبارتك السابقة!!! ويعود ليتذكر أنه قال إن تلك التى وجدها الآن لحما ودما هى الأقرب إلى الصورة التى رسمها من زمن بعيد وبحث عنها.

ويتشابه الأمر عليه مرة بعد أخرى! ويقع صاحبنا فى حيرة شديدة أهو يبحث فى الواقع عن صورة فى الخيال؟ هل أصبح حقا يقف على رأسه كما تقول نفسه الأخرى؟ ولكنه لا يشعر بالدوار الآن!! هل كان يشعر به من قبل، نعم! أفكان وقوفه على قدميه داعيا إلى الدوار ثم أصبح وقوفه على رأسه سببا للاستقرار؟!.

هل تكون الحقيقة الغائبة عنه منذ زمن طويل أنه يجب علينا إذا أردنا الاستقرار أن نقف على رءوسنا، أهذا هذيان أم أنه عين العقل؟ أيكون الأمر شبيها بالاعتقاد القديم الذى ثبت أنه خطأ بينما الصواب أن الأرض تدور؟

هل لابد له من الوقوف على رأسه؟ أم إنه يمكن له أن يقف على قدميه ويصل أيضا إلى الصواب؟ هل الصواب أن يكون الأصل صورة طبق الأصل من الصورة؟ أم أن تكون الصورة صورة طبق الأصل من الأصل؟

(٢)

و كانت نفسه الأخرى تشفق عليه من هذا التفكير الذى قاده إلى الشرود فتبسط الأمر له وتقول إنه مادام الشىء طبق الأصل من شىء آخر فلا فرق

بين الأصل والصورة ... هل هذا حقيقى؟ يسأل نفسه، ولكنه لا يجد للصورة التى فى ذهنه هذه اللذة التى يجدها فى حديث محبوبته، وتجيبه نفسه الأخرى أن هذه اللذة التى يجدها فى حديث محبوبته لم توجد إلا بفضل الصورة التى فى ذهنه، وتؤكد له نفسه الأخرى وهو يصدقها أن اللذة التى يجدها ناشئة من فعل الصورة لا من فعل المحبوبة.

ولكنه يعود ليسأل نفسه: ولكنى لم أكن أجد هذه اللذة من قبل، فتجيبه نفسه الأخرى: لأنك كنت لا تزال تصفها، هل أحسست للطعام مذاقا قبل أن يكتمل طهيه؟ كذلك الأصل الذى وجدته لم يكن ليبعث فيك اللذة لو لم تكن قد انتهيت من رسم صورته فى ذهنك، وربما مرت بك أصول أخرى أكثر قدرة على إثارة غيرك، ولكنها لم تكن لتطابق الصورة الذهنية التى رسمتها لأنه لم تكن هناك صورة ذهنية بعد، وإنما كان هناك مشروع، فلما اكتمل المشروع وجد نفسه فى الأصل الذى قابله.

(٣)

ولكنه لا يكاد يصدق، فهو سعيد جدا بما وجد، وحريص على ألا يفقد هذه السعادة بأى نوع من التفلسف، ولكن فتاته التى وجدها لا تفتأ تبعث فيه القدرة على التفلسف، وهو سعيد بتلك الشرارات التى يطلقها كيانها على عقله وبتلك الشرارات التى يطلقها عقله على عقلها، وهى سعيدة بسعادته وهو سعيد بسعادتها، ولكن سعادته تبدو وكأنها تفوق سعادتها أضعافا مضاعفة، ولكنه يحس فى صوتها بسعادة تفوق تلك التى ينبئ عنها حديثها، ويحس بخفقان قلبها من بعد بأكثر مما يحس بخفقان قلبه، ويحس بها وهى تطير من أمامه رغم أنها تزعم له أنها مخلدة إلى الأرض!

ومع هذا فإنه مشفق عليها من حالة عدم التصديق التى تحب أن تتقمصها ، فهى لا تتقمصها بوعيها، ولكنها تتخذ منها ثيابا مفصلة على قدر أعضائها، ودروعا واقية لصدرها الحنون، وقفازات تحمى أناملها من الإحساس، وقيودا تمنع يديها من الحركة فى اتجاه الحب، ولكنها تكاد تنزع عن نفسها دروعها كل يوم بأن تجدد هذه الدروع تماما كما يفعل الجلد البشرى بطبقته الحرشفية حين ينضوها بعد أن جهز أخرى تحل محلها، وهكذا كانت فتاته تجدد ظاهر نفسها أو هكذا كانت تجدد دروعها.. ولكن نفسها الباطنة لا تزال تشتعل حتى تلهب صاحبنا من دون أن تلهب صاحبتها، كأنها عصارة المعدة التى تهضم الطعام ولا تهضم المعدة.

ومع هذا فإن المحب سعيد بأحوال محبوبته هذه، يزداد شوقه ويتجدد، يتعجل الوصول لكنه يسعد بالطريق، وتحدثه نفسه الأخرى أن النعيم قد يكون فى الطريق لا فى نهايته، وهو لا يكاد يصدق نفسه الأخرى لأنه يعتقد أن الطريق وسيلة لا غاية، ونفسه الأخرى لا تريد له أن يفصل بين الوسائل والغايات لأنها متأكدة من أنه سوف يعجز عن تحديد الفرق بينهما كما عجز عن تمييز الأصل من الصورة! أو بعد ما وجد أصل الصورة ... هو الصواب!!

(٤)

كانت ذكية إلى أبعد الحدود، وكانت قادرة على التعبير عن هذا الذكاء ولكن اللفظ كان يخونها فى كلمة من كل عشرين، وكان يسعفها باللفظ الصواب، لأنه كان يستوعب حديثها جدا، وكان يستوعب ثقافتها، وكان بالإضافة إلى هذا يمتلك ناصية اللغة الخاصة بعلومها، ولأنها كانت عظيمة

فقد كانت متواضعة، ولأنها كانت متواضعة فإنها كانت تقر له بالصواب فى تلقائية شديدة، وكان هذا الموقف المتكرر بينهما كفيلا بإذابة الصورة الشمعية التى كانت تحرص على تقديم نفسها فيها اعتزازا بنفسها وضنًا بها على أى إنسان كائنًا مَنْ كان.

كانت تنتقل من موضوع إلى موضوع، فتبدع فى وصف الواقع وفى وصف المجاز، ولكنها كانت ، كما تقول ، بحاجة إلى لمحاته الذكية التى تحيل المجاز واقعا، وتعيد صياغة المجاز، ولأنها كانت تبحث عن هذه اللمحات منذ زمن بعيد فإن عقليها الواعى وغير الواعى كانا يعبران فى وقت واحد عن الإعجاب بالفكرة التى صدرت عن محبها فى لمح البصر، ولكنها كانت تستدرك لتقول له إن إعجابها بأفكاره لا يعنى أنها معجبة به، ولأنها كانت متواضعة بحكم عظمتها الحقيقية، فإنها لم تكن تجادل على الإطلاق بهدف التحفظ أو الاعتراض على فكرة جيدة حين يبديها، حتى وإن كان الجدال سهلا عليها، كانت عظمتها التى تراكمت فى داخلياتها كفيلة بأن تمنعها من الانصياع لغباء الغرور.. وهكذا كان الغباء يتوارى ليفسح المجال للذكاء الجميل.

كانت تأبى الاعتراف بأنها تحبه، وكان يحتال عليها فى أن يعترف لها بأنه يحبها، ولكنها كانت مصممة على تعطيل مفتاح الاعتراف بالحب، بل كانت حريصة على نزع الثرموستات الذى ولدت به، ولكنها لم تكن تدرى أن هناك ثرموستاتا ضخما وثرموستاتا دقيقا، وأنها وإن كانت تستطيع نزع الثرموستات الدقيق الذى يقيس حرارة العاطفة حتى درجة عشرة، فإنها لا تملك تعطيل الثرموستات الأكبر الذى يقيس حرارة العاطفة حتى درجة مائة، وذهبت تسأل عن السبب فى عجزها عن تعطيل الثرموستات الأكبر، وقيل لها إن شاشات العرض الخاصة به متعددة، وقيل لها إن هذه الشاشات يستحيل تعطيلها إلا فى حالة واحدة، هى الموت الأكبر.

(٥)

ولم يكن عنادها يسمح لها بأن تتخلى عن الحياة، لمجرد الرغبة فى التخلى عن الحب، لم يكن عنادها قد وصل إلى هذه الدرجة من الجنون، لأنه كان عنادا عاقلا، ولأنها كانت لاتزال أعقل العاقلات، مع أن بعض اللغات لا تعترف بوجود كلمة العاقلات من الأصل.

وذهبت إلى طبيب القلب تسأله وسيلة لتثبيت سرعة القلب حتى لا تظهر نبضاته المسرعة ما تريد إخفاءه من علامات الحب، وتعجب الطبيب لقولها ولكنه كان واسع الأفق، فعزّ عليه أن تفكر مَنْ تملك جمالها ورشاقتها ومظهرها الجميل،وأسلوبها الراقى بهذا الأسلوب الساذج ، وسألها كيف تتصورين ياسيدتى أن يكون هذا بالإمكان؟ وقالت له فى هدوء شديد: إنى أريد جهازاً كذلك الذى يسمونه «مثبت السرعة»، ويركبونه فى السيارات الفاخرة، حتى لا ترتكب مخالفات السرعة ويرصدها الرادار.. عندئذ قال لها الطبيب: إن هذا ممكن يا سيدتى!!

واستبشرت وظنت أن الحياة يمكن أن تخضع لمنطقها الذى كانت تعتز به وتدافع عنه وتعتقد فيه.. ولكن الطبيب أردف يقول: بشرط أن نستأصل المنظم الطبيعى الذى فى قلبك ثم نركب جهازا لتنظيم ضربات القلب من ذى السرعة الثابتة، وأخذت تستفسر حتى علمت أن هذا المنظم الصناعى يدار ببطارية كهربية يتم تبديلها كل عشر سنوات، وأن مخاطر تركيبه ليست بالشىء الذى يذكر، صحيح أن طبيبها أعلن لها فى صراحة ووضوح أنه لن يتولى إجراء مثل هذه العملية لها، لأنها عملية غير أخلاقية فى نظره، ولكنها كانت تمنى نفسها بأن تجد مَنْ يقبل القيام بهذه العملية على نحو ما يجد الناس من الأطباء مَنْ يقوم بإجراء عمليات الإجهاض.

(٦)

ونامت ليلتها تقرأ فى كتيب صغير أعدته جمعية القلب الأمريكية عن أنواع أجهزة تنظيم ضربات القلب، فوجدت أن من عيوب هذا الجهاز «مثبت السرعة»، أو ذى السرعة الثابتة، أنه قد لا يلبى احتياجات المريض عند صعود السلالم مثلا، أو بذل الجهد، ووجدت أن هناك أنواعا من منظمات ضربات القلب قادرة على إتاحة الفرصة لتنظيم ضربات القلب سرعة وإبطاء.. وذهبت فى اليوم التالى إلى الطبيب، وهى فى غاية البشر والتهلل والسعادة، كأنها وجدت كنزا، ولشدّ ما كانت دهشتها حين أنبأها الطبيب وهو فى غاية النشوة بأن هذه الأنواع كفيلة بأن تظهر انفعالاتها وحبها مثلما يفعل قلبها الذى أرادت نزع منظمه الطبيعى!!

وكان يوما من أشد أيامها إيلاما لعقلها، وإتعاسا لنفسيتها!! ووجدت أن منطقها قد أصيب بالضربة القاتلة من حيث لا تدرى، وباتت ليلتها تبكى ابنها الوحيد: وكان اسمه: منطق، كما لم تبك أم ابنا لها من قبل.

ولكنها كانت عنيدة، وسولت لها نفسها أن الشاشات الأخرى قد تكون أكثر قابلية للتحكم من هذا القلب الذى لا علاج لصدق انفعاله، وأضاعت من عمرها أسابيع تتجادل فيها مع الأطباء على اختلاف تخصصاتهم، وهى تمنى نفسها بأنها سوف تقابل اختصاصيا قادرا على إيقاف انفعال الحاسة عندما تريد، ولكنها لم تجد حتى مَنْ يستسيغ مجرد الفكرة!.

(٧)

وقررت أن تدرس الطب بنفسها لعلها تستطيع أن تستخرج من نصوصه ما لم يصل إليه غيرها.. وكانت ثقتها بعقلها تساعدها على أن تمضى فى

هذه الفكرة بنجاح، ولم لا.. ألم يكن الأستاذ العقاد ملما بكثير جدا من الأمراض وتشخيصها وعلاجها؟.

واجتهدت فى دراسة الطب فيما بينها وبين نفسها، وكانت تضع لنفسها بمعاونة أصدقائها من أساتذة الطب برنامجا جميلا للقراءة والاستيعاب وتقييم النفس بالامتحانات، وكانت كل هذه الكتب بما فيها كتب تقييم النفس متاحة فى مدينتها الكبيرة وبأسعار معقولة!.

ودرست فى علوم التشريح كتبا كثيرة، ولكن الأمر بالنسبة لها كان أشبه بمن عرفت باريس ومع ذلك لم تعرف دقائق شوارعها ، أو بمن تعرف لندن ولكنها لا تعرف ميادينها وأحياءها .. ثم درست علم وظائف الأعضاء ووجدت نفسها فى منتهى السعادة عندما بدأت تفهم للمرة الأولى كيف أن هذا العضو مصمم هكذا ليقوم بوظيفة ما.

وبلغت فى دراستها لعلم وظائف الأعضاء فرعا من هذا العلم يتناول «الجهاز العصبى التلقائى»، وكانت تعجب من هذه التسمية، ولكنها بعد أول صفحتين أغلقت هذا الكتاب، وقد وصلت إلى الحقيقة التى أفنت ما مضى من عمرها حتى تصل إليها..

ولأنها كانت متواضعة، ولأن تواضعها كان فى إطار العظمة، فإنها قامت إلى التليفون لتقول للرجل الذى أحبها إنها لا تملك أن تنكر أنها تحبه!!.

(٨)

هكذا كان صاحبنا قد وصل إلى أن محبوبته قد اقتنعت بالحب واعترفت به بعد جدال عقلى استمر سنتين، ولكنها لا تزال ترفض أن يكون لهذا الحب مدلول يخرج به من التجريد إلى التجسيد، فلم تكن ترفض الارتباط

فحسب، لكنها كانت ترفض فكرة الزواج والبيت الواحد، وكانت بالتالى ترفض اللقاء، كانت تعتقد أن الحب لابد له لكى يبقى أن يظل فكرة متجردة مجردة، ولأنها كانت تحب الحب من قبل أن تقع فيه، فإنها كانت تريد لهذا الحب أن يظل كما هو فى ذهنها، ولم يكن الحب الذى فى خيالها يتعدى ذلك الذى فى ذهنها، فقد تصورته على نحو ما فكرت فيه، وفكرت فيه على نحو ما تصورته، ولم يكن عندها أدنى استعداد لأن تتخيله فى صورة غير صورته التى فى ذهنها والتى فرضتها على خيالها كذلك.

وكانت تعتقد أن استبقاء العذرية نوع من التسامى الذى لابد منه حتى يكتمل الحب، وكان حبيبها يلجأ إلى حكمة شكسبير الخالدة فى أن الخلاص من العذرية هو الذى يخلق عذريات جديدة، فى حين أن استبقاءها لا يولِّد هذه العذريات، ولم تكن تستطيع الرد على هذه الفكرة ولكنها لم تكن ترى نفسها ملزمة بها، فما الذى يضطرها دون غيرها أن تضحى؟ فإذا قيل لها إن كل بنات جنسها يضحين، أجابت سائلة عما يضطرها أن تضحى شأن غيرها وهن يُضحين؟ وهكذا كانت تتهرب بالمنطق وهى مدركة أنها تتهرب، وكانت تغالط وهى مدركة أنها تغالط، ولكنها كانت تفعل ذلك لأنه خير عندها من أن تفعل الصواب فتقبل الزواج.

(٩)

كان صاحبنا يبحث عن مخرج يتيح له اقتحام حصن أفكارها الخاطئة عن الحب، وحدَّث نفسه أنه إذا كان قد فشل فى إقناعها بالمبدأ، فإنه قادر على أن يقنعها من خلال الاستثناء، وتصور نفسه ساعتها وقد فتح فى هذا الحصن ثغرة ينفذ منها الضوء الكفيل بتبديد ظلمات الإدراك الخاطئ

الناشئ عن انعدام التصور.. ولكنه كان يجد نفسه أمام رغبة عاتية فى إبقاء كل شىء على ماهو عليه حتى ولو كان فى هذا الإبقاء تدمير للشىء نفسه.

ولكن القدر يحل للناس مشكلاتهم بحلول شائقة، كما تحل الطبيعة مشكلاتها بحلول رشيقة.. وها هى ذى المحبوبة تسأل نفسها ذات يوم بصوت عال عن سر هذا الاندفاع الذى تجده فى بنات جنسها نحو تجسيد العواطف المجردة على هذا النحو الذى لا تجده فى نفسها! ويلتقط المحب الخيط لينبئها بكل اليقين عن الفارق بين التليفونات المتصلة بالسنترالات القديمة، وتلك المتصلة بالسنترالات الالكترونية.. وكيف يرفع الإنسان التليفون الالكترونى فيجد ما نسميه بالحرارة متصلة كفيلة بأن تستقبل طلباته وتجيبه عليها (بالرفض أو الإيجاب) بمجرد الانتهاء من الطلب، على حين تتأبى عليه التليفونات المتصلة بسنترالات قديمة الطراز فلا تتهيأ لقبول طلبه إلا بعد دقيقة، ولا تجيبه إلا بعد دقيقة أخرى، ولا تعود لتتهيأ للطلب الآخر إلا بعد وقت آخر.. وهكذا.

وكانت صاحبتنا تبحث عن نفسها فى هذه الصورة، وكان أكثر ما كان يزعجها أن تكون أقل حرارة من غيرها!! ولم تشأ أن تعبر عن ذلك حتى لا تفتح الباب أمام الآخر (مهما يكن) ليوجه لها مثل هذا الانتقاد القاسى، ولكنها كانت تتململ وهى تبحث عن نفسها فى هذه الصورة المكتملة التى ساقها لها حبيبها ليشخص لها موقفها من الحب!

(١٠)

وحين اطمأن صاحبنا «الشرير» - كما كانت تدلله - إلى أنها عجزت عن نقل الصورة من عالم المجاز إلى عالم الحقيقة، أخبرها وهو سعيد بأن مشكلتها تكمن فى «السنترال» نفسه، لا فى «آلة» التليفون، وأن عقلها هو

ذلك السنترال، وأنه لابد من أن تدخل على شبكات الاتصال فى العقل الذى تمكله أو يملكها بعض الميكانزمات الحديثة (بالنسبة لها) فى أداء وظيفته الاتصالية.

وهكذا بدا لصاحبتنا أن تقتنع بهذا الذى كانت تظنه حتى يومين فقط نوعا من الهراء الذى كانت تعترف فى دعابة بأنه قوى وجذاب ومنطقى، ولكنها لم تكن تريد أن تتقبله على أنه أكثر من هراء!!

وحين لم يكن هناك بد أمام المحب إلا أن يقتحم هذه الثغرة التى توصل إليها بعد عناء شديد، فإنه كان يخشى أن تنغلق عليه الصخرة فيصبح هو الآخر أسيرا لهذا الحصن الذى يحاول اقتحامه!

وظل صاحبنا مترددا غاية التردد وهو يحاول إقناع نفسه بأن الثغرة التى تتيح له الدخول ستتيح له الخروج بكل تأكيد، ولكنه كان يخشى من قوة المجال المغناطيسى داخل الحصن نفسه أن تجتذبه ليظل واقعا تحت تأثيرها أبد الآبدين.

وهكذا انتقلت المشكلة منها إليه! وأصبح بالفعل يخشى ما كان يدفعها إليه!

وأصبح يقدم رجلا ويؤخر أخرى.

ولم يفت هذا بالطبع على المحبوبة التى كانت من الذكاء الكفيل بإدراك طبيعتى الإقبال والانسحاب مهما تغلفتا بإطارات مغايرة.

(١١)

ولأول مرة بدأت صاحبتنا تشجع حبيبها على اقتحام الحصن.. ولكنه من ناحية أخرى كان قد انقلب خائفا من الانطلاق فى هذا الاتجاه، وهو الذى لم يعهد فى نفسه إلا الجسارة!

كان يريد منها وعدا بألا تستأثر به، بينما هو يتمنى أن تستأثر به.

وكان يريد منها أن تترك له الفرصة ليعود، بينما العودة فى يقينه تمثل قمة الفشل.

وكان يريد من نفسه أن تتهيأ للدوران، بينما كانت نفسه لا تريد إلا الخط المستقيم.

كان يريد أن يصل إلى السر الذى يحول محيط الدائرة إلى خط مستقيم من دون أن يقطع تواصل الدائرة، وتوصل بعد بحث وتفكير طويلين إلى أن هذا هو المستحيل بعينه!

ولكنه وهو فى سبيله إلى هذه النتيجة، أدرك أن كل محيط لكل دائرة ليس إلا خطا مستقيما استحال برشاقة ليصبح محيطا لدائرة.. وحين كان قد أوشك على الوصول إلى هذه الحقيقة كان سعيه هو الآخر قد صاغ دائرة لا يدرى أين طرفاها!!

7 كان لا يجد ذاته إلا فيها

(١)

كان يجد نفسه مندفعا إلى لقائها على الرغم من نفسه، كان يحس فى وجوده معها بشىء هو أكبر من اللذة، وأكبر من الحب، وأكبر من الاكتمال، وأكبر من أن يجد نفسه.. كان يحس بشىء هو أكبر من ذلك كله، ولم يكن هذا الشىء تحليقا فى خيال أو حلما من أحلام اليقظة.. ولكنه لم يكن أيضا شيئا أرضيا، إنما هو فى وجودها يرتفع معها إلى طبقات أعلى من التى يعرفها، وإن لم تكن هذه الطبقات كتلك التى يتخيلها وقد تلاشى فيها أو توحد معها، فهو يظل فى هذه اللقاءات شيئا آخر ، وإن ظل أيضا شيئا آخر غير هذا الذى يعرفه من نفسه حين لا يكون معها، وكان يحاول أن يصل إلى سر هذا الشعور وكنهه، لكنه كان يجد نفسه عاجزا تماما عن أن يصل إلى هذا الكنه..

وكان يخشى أن يذهب تفكيره ببعض سعادته، لكنه مع هذا كان يمنى نفسه بأن تفكيره قد يقوده إلى الوصول، وأن الوصول قد يضاعف من سعادته، ولكنه كان حائرا بين أن يخاطر بهذه السعادة.. وبين أن يظل هكذا مترددا فى حرصه على أن يبلغ منتهاها.. ولكنه كان يجد نفسه حيث يكون معها، ولهذا كان حريصا على هذا الوجود بأكثر من حرصه على نفسه، وأظنه وصل إلى الدرجة التى كان مستعدا فيها لأن يضحى بنفسه من أجل نفسه..

وهو عاجز عن أن يدرك كيف تكون التضحية، وبمن تكون، ولماذا تكون، ولمن تكون.. ولكنه كان قد أيقن من نفسه رغبتها الأكيدة فى هذه التضحية من أجل هذا الوجود، حتى لو كانت التضحية بالوجود نفسه، إلا أن تكون التضحية بالوجود معها.

(٢)

لا يمكن القول بأن حديثها وحده كان كافيا لأن يثير فيه كل هذه الأحاسيس والمشاعر، كما لا يمكن الاقتناع بأن وجودها نفسه وحده كان كفيلا بأن يثير هذا الذى تثيره حين تتحدث، وحين كان يحلل حديثها كان يعجب من هذا الأثر الذى يتركه هذا الحديث.

وحين كان يتأمل لفتاتها كان يحار كيف استطاعت أن تصل إلى أن تجعل من لفتاتها البسيطة ألحانا فى سيمفونية متصلة، وأن تجعل من كل حركة

من حركاتها صورة أخرى من صور الحياة التى تتجدد فى القلوب وتجدد هذه القلوب فى كل جزء من كل جزء من كل دقيقة.

كان يحاول أن يستكنه هذه العواطف التى تهزه هزا وهو يرنو إليها أو هى ترنو إليه، وكان يأمل أن يحقق بعض النجاح فى هذه المحاولات، ولكنه كان عاجزا عن أن يصل إلى طبيعة هذا السر، وإن كان متأكدا من أنه يصل به إلى قمة النشوة والانتشاء..

وكان يكفيه أنه يسعد وهو يفكر فى هذا الاستكناه بقدر ما لم يسعده أى تفكير من قبل.. وكان يعجب أن يكون التفكير نفسه نوعا من أنواع الانتشاء البالغ بينما هو جهد جهيد!!

(٣)

كان حديثها - على سبيل المثال - ممتعا، وكان صوتها ممتعا، وكان إلقاؤها ممتعا، وكانت مشاعرها تجاه كل ما ترويه أكثر إمتاعا وإثارة.. كانت براءتها أكثر بياضا من أن تصبغها التجارب بأية درجة من درجات الرمادية..

وكان طهرها أقوى من أن تجرفه الدنيا فى تيارها المتلاطم برغبات البشر وأمانيهم المشروعة.. وكان قلبها مع هذا أقوى من أن يخضع تماما لهذا الطهر الجارف أو لهذه البراءة المطلقة، فقد كان قلبها أذكى من أن تفوته طبيعة البشرية.

وكانت روحها أقوى من أن تبقى مقيدة فى الجنة العلوية، وكانت هذه الروح قد تقلبت على مدى الزمان فى أكثر من جسد لتقود الفارس القوى

الشجاع الجسور، ولتلتقى فى علياء الروح بشهداء القيم النبيلة، ولتبقى لفترات طويلة فى خيال أعظم الأدباء المحلقين.

وكانت نفسها قد خاضت أمواج الحياة فى مشارق الأرض ومغاربها.. فى الزمان القديم وفى العصر الحديث، وقد اكتسبت طواعية لا حدود لها على الاستجابة الرفيعة لكل الأجواء، وعلى تحقيق الانتصار على كل الأهواء.

(٤)

كانت تعرف أن الهوى قدر.. ولكنها كانت قادرة أيضا على أن تصنع قدرها، وأن تجعل هذا القدر يصنعها حتى ليحار الرائى أيهما صنع الآخر وأيهما سبق الآخر فى الوجود..

كانت تجسيدا للذرى السامقة من القيم النبيلة النادرة، لكنها كانت أقوى من القيم لأنها كانت متجسدة فى وضوح بأكثر من وضوح القيم فى أطياف الأمانى التى تقيدها أبعاد الزمان ولا المكان.. ولكنها فى وجودها الملموس والمحسوس والمسموع والمقروء والمتنفس والمرئى كانت أقوى من أن تحدها الحدود التى اعتادت حواسنا أن ترسم بها الإطار الخارجى للكيان.

كان قوامها يستعصى على الثياب التى تعجز عن الإحاطة به، وكذلك كان حديثها يستعصى على أن تحيط الأسماع بنهاياته التى تمتد كما يمتد صدى الشوكة الرنانة إلى ما لا نهاية حتى ولو حسبناه يتلاشى..

أما الأفهام فإنها كانت أكثر عجزا عن أن تحيط بكل ما تعنيه الألفاظ التى كانت تخرج فى تعاقب جميل وتصاعد لا يتناهى إلا إلى أسماع المحبين

القادرين على أن يتلقوا إشعاعات حبها التى تشرق فى كل ذرة من ذرات صوتها المضيء بكل أنوار الحياتين: الحية والغائبة.

(٥)

لم يكن يتاح له لقاؤها إلا أسبوعين من كل عام، وكان يظن أن قلة لقائهما هى السبب في هذا الشوق، ولكه كان يرى نفسه أضعف من أن تستوعبها لأكثر من هذين الأسبوعين.

كان حين يلقاها يزداد شوقا، وحين تغيب عنه يزداد صبرا، فإذا ما اقترب موعد اللقاء ازداد شوقه، وإذا ما اقترب موعد الفراق بدأت نفسه تعينه على الصبر عليه، وتمر الأعوام عاماً بعد عام فإذا هو راض بهذه الفترة القليلة التى يلقاها فيها، وإذا هو مطمئن إلي أنه سيظل يلقاها، لأن تعودهما على هذا اللقاء أصبح كالطبع المتأصل فيهما.

ومع أنه كان بطبعه يتحسب لما تأتى به الأيام فإنه ظل مطمئنا لها من دون أن يدرى لاطمئنانه سببا، كان علي يقين أنها ستظل له طيلة حياته.. وكيف لا.. وهو لا يجد ذاته إلا فيها. بل إنه كان يحسب كذلك أنها لا تجد ذاتها إلا فيه!

وقد سيطر عليه هذا الشعور بذوبانه فيها وبذوبانها فيه حتى أصبح لا يحسب حسابا للفراق إلى عام قادم، ويسأله المقربون منه عن هذا المنطق الغريب فيقول لهم بكل ثقة واطمئنان: هل تتصورونني أعيش بلا روح ومتي

يحدث ذلك؟ فإذا قالوا له: إنه الموت.. أجابهم بكل يقين: كذلك غيابها عنى.. فإذا سئل: ولكنها تغيب عنك بالشهور؟ أجابهم بقول الحق جل في علاه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ويعقب على هذا بقوله: صدق الله العظيم، وكأنه ينهى المناقشة.

8 وضاعت من بين يديه إلى الأبد

(١)

كانت روحها المقبلة على الحياة أبرز ما فيها، وكانت لا تفتأ تعبر عن هذه الروح فى تلقائية محببة بابتسامات ساحرة وضحكات عميقة.. كانت ضحكاتها وابتساماتها تقول إنها تريد أن تحيا وأن تعيش، وكانت كذلك تقول إنها تعرف كيف تحيا وكيف تعيش.

ولم يكن أحد يستطيع أن يتحول بها عن هذا الاتجاه الذى ارتضته لنفسها وروضت هذه النفس عليه.. فهى تتفتح للحياة وللحب وللكفاح الذى تقتضيه الحياة لأنها لا تستطيع أن تتصور نفسها تفعل غير هذا.. وكانت حيويتها نفسها تعبيرا عن الحياة الإنسانية كما ينبغى أن تكون.. فهى مقبلة على الدنيا بلا حدود لكنها فى الوقت ذاته تتمتع بحسها العميق الذى ينبئها أن الحياة نفسها ليست إلا مرحلة من وجود الإنسان.. وأن قدرة الإنسان على طول هذه الحياة حتى على أن يحيا عرضة أيضا للتغير والتبدل.. ولهذا فقد كانت تأخذ من حياتها اليوم لحياتها فى الغد.

وكانت أكثر الناس قدرة على الإفادة من خطواتها الماضية.. فقد كانت على حداثة سنها تستخلص العبرة مما مضى بها وتضعها أمام عينيها واضحة وضوح الحق.. وكانت إذا أرادت الابتعاد عن الحقيقة تعترف لنفسها بهذا ولا تزعم لنفسها، كما تعود الناس أن يفعلوا، أنها تسير فى درب الحق..

(٢)

كانت قادرة على أن تنصف نفسها من نفسها ومن الناس.. وكانت قادرة فى الوقت ذاته على أن تنصف الناس من نفسها بدون أن تؤذى مشاعرها.. كان حرصها على مشاعرها أروع من أن يصاب بالأنانية وأعقل من أن يمضى فى الطريق الذى تأتيه فيه الإصابات من رذاذ الناس.. ولهذا فقد كانت ترتفع بنفسها فوق كل مجال يحتمل وجود هذا الرذاذ.

وكانت كذلك تحرص على أن تظل مرتفعة على الدوام، وهكذا كانت تمضى فى علاقاتها مع الناس من حولها وكأنها تستقل مركبة ترتفع بها عن الأرض رغم أنهم يرون هذين القدمين وهما تلامسان الأرض فى رشاقة شديدة ويتركان آثارهما عليها.. لكنهم إذا تأملوا هذه الآثار وجدوها قليلة جدا وكأنما كانت صاحبتها تطير ثم لا تفتأ تهبط إلى الأرض كى تتزود بالوقود.. ويبدو أن هذا كان شأنها فعلا، فقد كانت فى عليائها تعطى الإحساس بغلبة الطبيعة البشرية فى أخلاقها الملائكية.

كانت تجنح إلى القيم الفاضلة عن اختيار، وكان اختيارها يتحدث من تلقاء نفسه عن أنه اختبر الشر وآثر الابتعاد عنه رغم كل ما فيه، وكانت لا تحتقر الشر ولكنها كانت تبتعد عنه، وكانت وهى تفعل ذلك تبدو وكأنها قد اختارت هذا الطريق من لحظات قصيرة فحسب، فإذا ما تأملت دوافعها أيقنت أنها خُلقت وخلق معها هذا الامتناع.

لكنها تحدثك فتكتشف أنها لم تصل إلى هذه الاختيارات إلا بعد اختبارات متعددة.. ثم تكتشف أن يقينها بما وصلت إليه يفوق كل قدراتها العقلية، وهى

تعترف بأن هذا اليقين لا يصدر عن العقل وحده، ولكنه يستهدى فى الوقت ذاته أنوارا متعددة من قلب مؤمن، وبصيرة نافذة، ونفس تسلم أمرها لله.

(٣)

كانت إذا استشعرت السعادة عبرت عن فرحها بأقصى ما يمكنها من تعبير.. كأن عضلاتها وقسماتها لم تخلق إلا للفرح والابتسام.. كان صوتها يتهدج بالتعبير الواعى عن هذا الفرح البرىء.. وكانت إذا غضبت تنفعل بأقصى ما يمكنها من الاندهاش والاستنكار المهذب..

وكانت تحرص على أن تصوغ استنكارها فى صيغة تساؤلات مهذبة، لكنها محملة بكل ما كانت تريد أن تعبر عنه من الاستنكار الشديد. كانت لهجتها صادقة وكانت انفعالاتها أكثر صدقا..

كانت مشاعرها دافئة، لكن تعبيرها عن هذه المشاعر كان أكثر دفئا من المشاعر نفسها.. ولم يكن هذا لينتقص من دفء هذه المشاعر الذى كان بلا حدود، ولكنه كان تعبيرا عن مدى الصدق المطلق فى تعبير الدفء عن نفسه بعد أن حول الغليان والفوران إلى إشعاع دائم ومتواصل .

(٤)

عرفها صاحبنا فعرف الهدوء والسكينة فى الحب الهادىء الهادى، ولكنه لشىء فى تكوينه وثقافته ظل حريصاً على أن يبحث عن الجانب الآخر فى هذه الشخصية.

وكانت خبرته بالدنيا قد أتاحت للحماقة الفرصة لتقنعه بفكرة أنه لابد من جانب آخر فى مثل هذه الشخصيات، وكأنما كان قدره أن الله أراد أن يعذبه حين وجد شخصية كهذه ليس لها الجانب الآخر الذى كان يتوقع حتميته.

وفيما كان يطيل البحث عن الجانب الآخر، ويجهد نفسه فى العثور على مفتاحه ضاعت من بين يديه إلى الأبد؛ لأنها التقت على حين غفلة بَمنْ كان عنده استعداد ليتقبل نعمة الله الظاهرة دون أن يبحث فيها عن النقمة المستترة.

ويبدو أنه لم تكن فيها نقمة مستترة

الباب الثالث

شكايات

9 حتى الجفا محروم منه

(١)

كانت سريعة الغضب، وكانت فى غضبها أقرب إلى الافتعال منها إلى الانفعال، فهى تسمح بالتجاوز ثم تلوم عليه، وتبدأ المزاح ثم لا تلبث أن تنصرف عنه، وتفجر النقاش ثم تنسحب منه، وهى فى كل هذه الأحوال غضبى، وغضبى بشدة، دون أن يكون هناك أدنى مبرر لهذا الغضب إلا الافتعال.

أما حين يكون الغضب مدعاة للتعبير عن الانفعال الحقيقى، فإن عقلها يصبح قادرًا على أن يسيطر على عواطفها بحيث تبدو قوية أمام ما من شأنه أن يستفزها أو أن يثيرها ،أو أن يستدعى غضبها على أقل تقدير.

على هذا النحو كانت تغضب حين تريد، وكانت تمتنع عن الغضب حين يُراد لها أو بها أن تغضب أو حين يُتوقع منها الغضب، لكنها كانت عندما تغضب سريعة التعبير عن هذه الرغبة، حادة فى التعبير عنها، مثابرة على التأكيد عليها، وبعد ذلك كله فإنها كانت صعبة فى الارتداد عن غضبتها.

وكانت فى غضبها نموذجا بارزا لغضب هادر لا يبقى ولا يذر، لا يلين ولا يرتد، لا يهادن ولا يتهادن، حتى إن الغضبة المضرية التى يحكون عنها كانت تتوارى أمام غضبها حتى لا تغضبها.

ولكن نفسها المتعقلة، كانت قادرة على أن توقف هذا الغضب عند لحظة معينة، فقد كانت المنطقية المسيطرة على هذه النفس بمثابة الصمام الذى يحميها من أن تصدق نفسها فى النهاية.

وعلى هذا النحو كانت تجد لحظة ما ينتهى عندها غضبها لتبدأ حالة الرضا والتراضى التى تتسع للناس وللأفكار والمعتقدات جميعا.

(٢)

ولم يكن غضبها - على الرغم من سرعته - كثير الحدوث، ولم يكن بالشىء النادر، ولكنه كان أقرب إلى ما يوصف فى اللغة الإنجليزية بأنه ليس بالشىء النادر، وكان شبيها بالزلزال، يأتى فى لحظة ما ولا يستمر طويلا حتى إن كانت له توابع، ولا يمكن التنبؤ به على وجه الدقة، ولكنه كفيل بأن يحمى الأرض نفسها من أن تنفجر كلها بفعل تزايد الطاقة فى داخلها، فهو ظاهرة صحية وإن بدت مرة، وهو رحمة من الله وإن بدا عذابا، وهو قابل للتكرار، وإن كان غير قابل للتنبؤ الدقيق، وهو يتبدى فى صور شتى وإن كان الطابع واحدا، وهو يحدث بالليل كما يحدث بالنهار، وهو

يحيل الهدوء قلقا، ولكنه يترك للناس مساحة أكبر من الهدوء حين يطمئنون على كوكبهم الذى تخلص من شحنة زائدة كانت كفيلة بتفجير الكوكب كله ومَنْ عليه وما عليه بالطبع.

هكذا كان غضبها أقرب إلى طبيعة الزلزال حيث الاهتزاز الشديد، وأبعد ما يكون عن غضب صويحباتها الذى كان كالبراكين تقذف الحمم الملتهبة من حين إلى آخر، أما غضبها فلم يكن فيه من حمم البراكين ولا حماقتها أى قدر، إنما هو طاقة زائدة تتبدى على هذا النحو الذى هو شديد، وهو رقيق فى الوقت ذاته، وهو كفيل بالتدمير ولكنه لا يدمر أى شىء ولا كل شىء، وإنما يكتفى بتدمير ما لابد له من تدميره بحكم قوته وضعف الشىء!!

وكان فى هذه الخاصية من خاصيات غضبها سر من أسرار روعة ملحمة حياتها، فقد نجحت بهذا الغضب فى أن تتخلص طيلة حياتها من كثير من العشوائيات التى سمحت بوجودها الخطأ فى الزمن الخطأ، وأن تختبر مدى صلابة كثير من المعانى التى كانت تود الاطمئنان إلى صواب حكمها عليها.

(٣)

ولكنها ظلت رغم ذلك كله تعانى من معالجة بعض آثار هذا الغضب على شعورها الرقيق، ولم تكن تنكر أنه يغير مزاجها بعض الشىء، وأنه يتعب أعصابها نوعا ما، وأنه يهد قواها البدنية إلى حدود متفاوتة، وأنه يقطع عليها فى كثير من الأحايين سباحتها فى ملكوت الله الواسع.

ولكنها كانت تؤمن بأن لكل علاج مضاعفاته الجانبية، بل كانت تؤمن أكثر من ذلك بأن العلاج لا يصل إلى غايته إلا إذا وصلت مضاعفاته الجانبية إلى غاياتها.

ولهذا السبب كانت حريصة كل الحرص على ألا تتنازل عن قدرتها على افتعال الغضب حتى مع نفسها، وحين وصلت نفسها إلى غاية ما تتمناه كل نفس من الصفاء والنقاء والهدوء والرضا والسلام، فإنها لم تشأ أن تفرط فى هذه القدرة.

وكان عقلها يحدثها بأن استبقاء القدرة على افتعال الغضب قد ينقص من قدر سعادتها بالصفاء والنقاء والهدوء والرضا والسلام، ولكن نفسها كانت لحسن حظها أذكى من عقلها - كانت تتأبى الانصياع لهذا العقل المتزن الراجح، وكانت تؤثر أن تحتفظ بهذه القدرة.

وحين دار الصراع ذات يوم بين نفسها وعقلها، واتهم عقلها نفسها بأنها تسعى إلى الاستسلام، غضبت نفسها غضبا شديداً من هذا العقل الذى كانت تسميه بالحارس، وقالت له إنه يبدو أنه أصبح فى حاجة إلى الاستبدال!

ولم يكن بد أمام العقل إلا أن يستسلم هو ليفتدى نفسها التى كانت فى حاجة إلى الاستسلام.

ولكن نفسها أبت على هذا العقل أن يستسلم، لأنها كانت ترى أن الاستسلام من حقها هى لا من حقه هو.

وبعد صراع طويل قبل العقل أن يستسلم هو على ألا تستسلم النفس.. ولكن حنان النفس المؤمنة التقية النقية كان أقوى من أن يقبل الالتزام بهذا الوعد، خاصة بعد أن وجدت اليقين. وحينذاك اكتشفت أن عقلها لم

يستسلم إلا لنفسها، وأن نفسها لم تستسلم إلا لعقلها، وأن صراعها لم يكن إلا نوعا من العناق القوى.

(٤)

كان رأيه قد استقر على أن يقاطعها أو أن يفارقها على الأقل لفترة طويلة، فقد كانت قد بلغت منتهى قدرتها على إصابته باليأس منها، فهو يحادثها فيجد صدى تفكيره فى حديثها، ويجد صدى حديثه فى تفكيرها، ويجدها أقرب ما تكون إليه، وتقترب منه حتى لا يصبح بينهما إلا الاتحاد، لكنها فى نفس اللحظة التى يبلغان فيها الذروة، تفاجئه بأن تبتعد مرة واحدة، وليتها كانت تتباعد بالتدريج، ولكنها كانت تعمد إلى الفرار المتعجل.

وكان حائرا فى قدرتها على هذا الفرار المتعجل، ولكنه كان أكثر حيرة فى بحثه عن القوة التى تمكنها من هذه القدرة على هذا النحو، فقد كانت قوة لا حدود لها، ولم يكن يعنيه مدى هذه الحدود، ولكنه كان فى غاية التعجب من غياب منبعها عن ناظريه وفكره، فهو لا يجد هذا المنبع الذى يزود معشوقته بكل هذه القوة القادرة على أن تجعلها تنسحب حين تكون روحها قد أقبلت على الحب، وحين تكون نفسها قد استسلمت لهذا الحب، وكان يبحث فى الميتافيزيقيات فلا يجد ما يمكن أن يكون سببا ثم يعود إلى الفيزيقيات نفسها فلا يجد أن بإمكانه أن يتصور وجود هذا المنبع الخفىّ الذى يسيطر هذه السيطرة فيتحول باتجاه المغناطيس إلى الاتجاه المعاكس، فى اللحظة التى تبلغ فيها قوة الانجذاب مداها.

كان يجدها حريصة على الفرار إلى «الفريجيدير» العميق كلما قاربت الانصهار، وكان يعجب لهذا «الفريجيدير» الذى يتقبل ماهو مقدم على الانصهار بنفس الترحاب الذى يتقبل به الأشياء المتجمدة، وكان يصور لنفسه أن «الفريجيدير» يقول: إنه لا يهمه من أين يبدأ، ولكنه قادر حتى على تجميد الغازات المتطايرة متى دخلت إلى مجاله وأقفلت على نفسها بابه!!

(٥)

على هذا النحو كان يفكر فى قرار الابتعاد، فى قرار الهجران، فى قرار المقاطعة، فى قرار الإهمال، فى قرار الفراق ، وفى قرار الجفاء.

كان يفكر فى الابتعاد فيفضل عليه التباعد، لأنه كان فى حاجة إلى قلبها الدافئ حتى ولو كان فى الفريجيدير، كان فى حاجة إلى هذا القلب الذى يحب الحب ويخشاه، والذى يسعى إلى الحب فيكتوى به، والذى يهرب من الحب فيشتاق إليه.

وكان يفكر فى الهجران فيفضل عليه التظاهر به، ويوحى إلى محبوبته بأنه على وشك الهجرة، فإذا ما أوشكت على التصديق، عاد إليها بتكذيب ما أوشكت على تصديقه، وهكذا كان يبادلها تلك القسوة التى يمارسها عقلها بقسوة يمارسها هو على عقلها.

ولكنه لا يكاد ينتصر حتى ينهزم، أو قل حتى يمكنها من هزيمته ويمكن نفسه من الانتصار عليها بإظهار هذا الانهزام الذى كانت تسعد به، بينما هى تضع قدميها على طريق الرضا.. وتمضى على الطريق حتى إذا اقترب هو تباعدت، وإذا تباعد اقتربت، لكنهما لا يلتقيان.. ومع هذا فإنهما لا يفترقان.

نعم .. كانا لا يلتقيان .. ومع هذا فإنهما لايفترقان.

وكان يفكر فى المقاطعة، وقد بات يظن أنها هى الوسيلة المثلى التى تفوق فى فاعليتها الابتعاد والهجران، فالمقاطعة المشروطة شبيهة بالعقد القائم على السلبية.. وهو أقوى من عقود القانون المدنى لأنه لا يحتاج إلى توقيع ولا إلى شهود، لكنه يستند إلى بيع الامتناع بثمن محدد هو الامتناع عن شىء آخر.. وكان يريدها أن تمتنع عن تعذيبه بتمنعها فى مقابل أن يمتنع عن عدم الامتناع عنها.. لكنه مع هذا كان يفهم هذا المعنى بعقله من دون أن يستسيغه بقلبه، إذ كيف يمكن له أن يمتنع عن عدم الامتناع عنها، وهو الذى لا يستطيع الصبر على امتناعها عنه!!

وكان يقول لعقله إن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع يده اليسرى من أجل الحرص على التماثل الظاهرى الذى قد يُظن أنه هو الجمال بينما الجمال شىء آخر، ولكنه كان يعود ليحدث نفسه بقول العرب القدامى: إن الدواء قد يكون من نفس الداء.

(٦)

وهكذا قادته حيرته إلى أن يقرر لنفسه أنه لا الابتعاد مجد، ولا الهجران ولا حتى المقاطعة.

وها هو يفكر فى الإهمال.. كان يرى ضياءها فيتعمد إغماض عينيه.. وكان يسمع جرسها فيصم أذنيه، وكان عطرها يترامى إليه فيتنفس بفمه حتى لا يحرم نفسه من الهواء، وإن حرمها من العطر، ولكنه مع هذا كله كان يحس بطعم لذيذ فى لسانه وهو يحادثها حتى لو كان الحديث بالهاتف..

كان يجد قلبه يضطرب بين ضلوعه وهى راضية عنه، وكان يجد قلبه وهو يكاد يقفز من بين ضلوعه حين تريه الوجه الآخر.

وهكذا لم يعد أمامه إلا الفراق.. ولكنه لم يكن يؤمن بأن الفراق ممكن إلا بواسطة كبير مندوبى الإعلانات فى جريدة الأهرام.. فقد كان قد أيقن

أنهما شيء دنيوى واحد، وأن ما يفرق بينهما هو شيء واحد فقط.. هو الروح التى لا يملكان من أمرها شيئا مهما أوتيا من العلم.. ولأنه أيقن أن الفراق مستحيل فإنه لجأ إلى الصعب وهو الافتراق.

وكان الافتراق يتكرر... ولكنه يعود.. يعود ليتكرر.

(٧)

ولم يكن أمامه بد من أن يلجأ إلى الجفاء، وكان يسأل المجربين كيف يكون، فكانوا يجيبونه بأنه قد يتحقق بمقابلة التقارب بالتباعد، والتلاقى بالاجتناب، فيجيبهم بأن هذا هو ما تفعله، ولكنه غاضب منه، وهو لا يريد أن يفعل شيئا يؤدى إلى غضبها، لأنه لا يريد لها أن تتألم كما يتألم، حتى لو كانت هى التى جعلته يتألم.. وكان أصحابه ينصحونه بأن يحاول أن يقابل الإحسان بالإساءة، والمعروف بالمنكر، والحسن بالقبيح، ولكنه كان يجد نفسه أعجز من أن تستطيع أن تفعل هذا بالحبيب حتى لو لم يكن هناك من سبيل إلى استرجاعه إلا بهذا الطريق الذى أكد له أصحابه أنه الطريق السريع والمؤكد للوصول، لكنه لم يكن يتصور نفسه أبدًا قادرًا على أن يسلك هذا الطريق، لأنه لم يكن يجد فى نفسه القدرة على إيذاء محبوبته، ولا على التظاهر لها بالابتعاد عنها، ولا بالقدرة عليه.. وكان أصحابه يضحكون من عجزه، وهو الذى كان يظن نفسه قادرا على كل شيء.. وكان يضحك من غفلتهم، ولكنه كان، لأول مرة فى حياته، يفهم معنى استغلق عليه طيلة سنوات حياته، حين كان يسمع كوكب الشرق وهى تشدو فتقول: حتى الجفا محروم منه..

وها هو نفسه محروم حتى من الجفا.

10 عاشا كما تعيش القطط

(١)

كان قد تعلم من ثنانى البورتريه أن يبدأ برسم ملامح أولية للشخصية، وكان قد سمع فى مرحلة مبكرة من عميد هؤلاء الفنانين أنه لابد أن يتحدث حديثا طويلا إلى الشخصية قبل أن يتناول فرشاته ولوحته.. ولكنه اليوم بدأ يتشكك فى جدوى هذا الأسلوب.. فما كان أسهل الأمر لو أنه بدأ هذا البورتريه بطريقة تقليدية جدا ليصور الطبيعة الجميلة بدلا من أن يعانى فى تصوير هذه النفسية الفريدة.. كانت المقاييس المثلى للجمال متوافرة إلى النهاية فى صاحبتنا، لم يكن فيها أى ابتعاد ولو طفيفا عما يتمناه الرائى لناظريه وعما يتمناه الفنان للوحة التى يضمن بها الفوز على ملكات الجمال أنفسهن.. فقد كانت صاحبتنا قد بلغت من العظمة والجمال والرفعة

والمكان، ذلك القدر الذى لا يسمح لها أن تتنازل لتخوض المقارنة أمام ملكات الجمال الأرضيات، كانت فى سمائها تتسامى، وفى رفعتها تتسامق، وفى علو كعبها تشرف على الدنيا فتشرق الدنيا حين تشرف هى عليها، ولهذا فلم يكن من الصعب على فنان متمرس أن يصورها، لكن المشكلة كانت فى أن كل صورة لها لم تكن قادرة على أن تحيط بها مهما بلغت من الدقة والتعبيرية والتصوير والتمثيل والتقليد.. وهكذا كان فناننا يريد أن يتخلى عن الأسلوب التقليدى ليضمن النجاح، فإذا به عاجز عن النجاح، ويعود إلى الأسلوب التقليدى فيجده هو الآخر عاجزا عن النجاح، ويستزيد من حديثها فيجد نفسه يبتعد تماما عن الأمل فى النجاح. ولا شىء يوتر الفنان ويمزقه من داخله كعجزه حين تتوقف به القدرة عن التصوير إلى هذا الحد.

(٢)

كانت صاحبته فتاة عالمية بالمقياسين المفضلين للعالمية.. كانت تجيد الاختلاف، وكانت تبدع فى إبداع التكامل.. كانت تمتلك فى فمها جهازا دقيقا جدا للترجمة الفورية من كل اللغات وإليها، ولم يصادف صاحبنا مثل هذا الجهاز التلقائى السريع المنضبط المعبر.. كانت تجيد كل لغة من اللغات كأنها ابنة هذه اللغة.. وكانت تعبر عن كل حضارة من الحضارات كأنها من اللائى صنعن هذه الحضارة فى الماضى ولازلن يصنعنها فى الحاضر.. بل إنها كانت فى حديثها تعبر بلغات مختلفة عن الشعوب المختلفة التى تتداول اللغة نفسها، ففرنسيتها التى تتحدث بها عن «بارى» مختلفة تماما عن تلك التى تتحدث بها عن «جنيف».. والفرنسيتان مختلفتان تماما عن فرنسية

«الجابون».. وهكذا كانت إنجليزيتها فى حديثها عن هوليوود غير تلك التى تتحدث بها عن «كيب تاون» أو «لندن».

ولم تكن لكنتها هى الصورة الحية الوحيدة لإدراكها المعجز للفروق الدقيقة بين الأنواع والطوائف والشعوب.. لكن ذوقها نفسه كان قادرا على أن يميز الاختلاف بين الدرجات المتقاربة وشبه المتطابقة من اللون الواحد على سبيل المثال. ومع أنه يستحيل على كبار المثقفين والفنانين أن يستوعبوا كل قدرتها المعجزة على الإحساس الدقيق، وقد استوعب منها ـ على سبيل المثال البسيط ـ أن هناك فروقا كبيرة بين الأحمر الذى فى العلم الفرنسى، وذلك الذى فى زى الحرس الملكى البريطانى، والذى فى إعلان سجاير المارلبورو، والذى على غلاف النيوزويك، وذلك الذى تكتب به كلمة الكامى على غلاف الصابون.. وذلك الذى فى خرطوشة الحبر الباركر.. ولك إذا تخيلت ما تدركه من درجات متطابقة بنفس اللون أن تتخيل ما كانت قادرة على إدراكه من درجات متفاوتة للون نفسه، وما تدركه مما قد ندركه نحن من ألوان مختلفة.

(٣)

وكما كانت قادرة على إدراك وتمثيل الفروق الدقيقة بين كل شيئين فقد كان تفكيرها قادرا على التفريق الدقيق بين الشجاعة والإقدام، وبين الجسارة والجرأة، مع أن أحدا لا يستطيع أن يفرق بين كل زوجين من هذه الأزواج، ولكن حديثها كان قادرا على أن يفرق لك بين كل شىء حتى إنك لتحس وأنت تستمع إليها بأنه ليس هناك فى اللغة شىء اسمه المترادفات،

ولا فى الحياة أشياء اسمها المتشابهات، وإنما يقوم كل شىء بذاته، وصفاته، حتى لا يمكن أن يكون هناك من الشىء الواحد صورتان، وكانت صاحبتنا نفسها نموذجا مجسدا لهذه الفكرة، فلم يكن من الممكن أن تجد نسخة أخرى من صاحبتنا هذه على الإطلاق.

(٤)

كانت تجيد التواضع، ولأنها تمرست على إجادة هذا التواضع فى كل لحظات حياتها، فإنها أصبحت نموذجا حيا لهذا الخلق الرفيع، وعلى الرغم من أن إجادة التواضع من أصعب الطبائع على النفس البشرية، فإنها كانت قد تطبعت بها إلى النهاية، وكانت فى تواضعها الظاهر تستند إلى ثقة لا متناهية فى نفسها وقدرتها، لكنها مع هذا كانت تجيد التعبير عن التواضع حتى ليظهر لمحدثها أنها تعانى من التواضع بقدر ما هى سعيدة به، وأنها سعيدة به بقدر ما كانت تعانى منه، فقد كان التواضع قد تحول فى نفسيتها إلى مكون أساسى تنطق به قسماتها وهمساتها ولمساتها ولمحاتها فى كل لقطة ولفتة وإيماءة.

ومع هذا التواضع اللانهائى فإنها كانت قادرة على أن تصوب للناس آراءهم الخاطئة، وأن تصحح لهم مفاهيمهم الزائفة، ولم تكن تجد أدنى قدر من الحرج أو التحرج فى أن تواجه المخطئ بما تراه يستحق التنبيه، وكانت تفعل هذا حتى مع أكثر الناس غرورا وأكثرهم نفوذا عليها، ولم تكن تسمح لنفسها بأن تتخلى عن عقيدتها فى الحق من أجل إسعاد الآخرين، أو إرضائهم، أو مداراتهم.. وكانت كلماتها لهؤلاء المخطئين كفيلة بأن تردهم، ولو إلى حين ، إلى الصواب والرشد، لأنهم كانوا يقدرون مدى صدقها وإخلاصها للقيم السامية من صدق وجمال ويقين.

(٥)

وكانت أكثر معاركها مع النرجسيين وأولئك الذين يودون لو أصبحوا نرجسيين، ولم يكن يعنيها فى قليل أو كثير أن تقلل من انتفاخ بالونات هؤلاء أو أن تنهى هذا الانتفاخ، لأنها كانت تؤمن بما هو أعمق من هذا، وهو أن وجود هؤلاء جزء من ناموس الكون الأعظم، وأن وظيفة أمثالها أن تحول كل ميولهم إلى ما فيه خير الناس حتى ولو أفادوا هم أنفسهم من هذا الخير، وكانت تصدر فى رؤيتها هذه عن إدراك ذكى لتاريخ الحياة الإنسانية وصراعات النفس فى صناعة التاريخ، وكانت قادرة بعد هذا على أن تعظم إفادة المجتمع من النرجسيين الذين يطفون على سطحه يوما بعد يوم، وذلك دون أن تدعى أنها قامت بهذا الدور، وكانت تقول لنفسها إنها ما دامت قد أجرت على أيدى هؤلاء الخير لبعض الناس فإنهم لا يهمونها فى شىء، ولكنها كانت مع كل هذا التسامح الظاهر لا تفرط على الإطلاق فيما تراه حقا أو صوابا.. وهكذا كانت تعامل النرجسيين وأشباههم على أكثر من مستوى، فهى تتقبل وجودهم لأن الحياة لابد أن تقدم لنا بعضا منهم، وهى تتسامح فى دلالهم إذا ما كان هذا التسامح يفيد البشرية، لكنها فى كل الأحوال حريصة على أن توقفهم عند حدهم إذا رأتهم يتمادون فى الخطأ أو الخطيئة.

(٦)

كان استعدادها للعطاء لا يتوقف عند حد، ولكنها لم تكن أبدا على استعداد لأن تخاطر بهذا العطاء فى زراعة الأرض الصخرية، وكانت تعرف جيدا أنها قد تنخدع فى بعض الناس أو بعض البشر، لكنها كانت تفضل أن

تتألم بهذا الانخداع عن أن تتألم بسبب قبضها يدها أو نفسها عن العطاء، كانت تحب أن تصنع من غيرها المعجزات وأشباه المعجزات، وكانت تجد نفسها فيما صنعته أو بالأحرى فيمن صنعتهم، ولم يكن يهمها من قريب أو بعيد أن يراها الناس عظيمة، لكنها كانت فى الوقت ذاته تسعد كل السعادة حين تجد الناس يهمسون بأنها صنعت العظماء، وكان هذا الخلق المتأصل فيها يقودها من حيث لم تكن تدرى إلى التعاسة، فقد كانت حريصة على أن تحافظ المعجزات البشرية التى صنعتها على عينها على تلك العظمة التى أشربتها لهم، وفاتها أن البشر دون المخلوقات الأخرى يحبون لأنفسهم الرذيلة، وهكذا كانوا ينتقصون من الصورة الجميلة التى اجتهدت وسعها حتى جعلتهم يظهرون فيها، وكانت تعجب، ولم يكن لها حق فى ذلك العجب، من أن ترى نجومها وهم ينجذبون إلى الأرض بينما هى قد أبعدتهم عن الأرض بجهد جهيد وجعلتهم يقتربون من سماء هذه الدنيا.

(٧)

كانت صديقاتها ينصحنها بأن تبدأ الحديث من بدايات أكثر تأثيرا، لكنها كانت تتأبى وتصمم على أن تبدأ الحديث من بدايات أكثر صدقا.. ومن العجيب أن المستمعين كانوا ينجذبون إلى حديثها بأكثر مما ينجذبون إلى حديث صويحباتها، وأنهم كانوا كذلك يعجبون بهذا الحديث بأكثر مما يعجبون بالأحاديث الأخرى.. كان إعلاؤها لقيمة الصدق يرتفع بها هى الأخرى إلى ذرا سامقة فى أفئدة الناس وعقولهم، ولم تكن تعجب من هذا، فقد نشأت فى بدايات حياتها على القيم الرفيعة كلها، ثم علمتها الأيام الدأب فى العمل والإخلاص للهدف والصدق فى التعبير عنه، وعلمتها

التجربة أن الدأب يغنيها عن الحظ، وأن الحظ الحقيقى هو فى القدرة على نشدان التوفيق.. وهكذا ظلت ترتفع من نجاح إلى آخر، ولم يكن يزعجها فى حياتها إلا ذلك الشعور بالحيرة الذى كان ينتابها حين تتلقى الإساءة ممن قدمت لهم المعروف، وكانت إذا بحثت عن الشعور بالندم على أنها قدمت المعروف لا تجد نفسها قادرة على أن تندم، وإنما هى فى حيرة شديدة من أمرها، وكانت هذه الحيرة تعذبها بأكثر مما يعذبها نكران الجميل، ولم تكن بقادرة على أن تخاطر بقيمها وتتوقف عن إسداء المعروف، وفى الوقت ذاته فإنها أصبحت تتردد تجاه كل معروف تقدم عليه، وهى تخشى أن يعود عليها بالألم.. وكانت هذه الحيرة تمزقها وتبعدها عن الناس بعض الوقت، لكنها كانت لا تلبث أن تعود.

(٨)

كانت قد بدأت تؤمن بأن هناك نقيضين لا يجتمعان، هما الإنسانية والأنانية، وكانت تؤمن إيمانا صوفيًا غريبا بأن حرف السين الذى يفرق بين الكلمتين ليس إلا ذلك السين التى ترمز فى علوم الرياضيات للمجهول، وكانت تبنى فلسفتها على أن سين الإنسانية ينبغى أن تبقى للمجهول، وأنها إذا ترجمت إلى معلوم فإنها تصبح نوعا من أنواع الأنانية المستترة التى تقدم باليد اليمنى ما تنتظره باليد اليسرى.

وكانت تبنى وجهة نظرها فيمن تعرفهم من خلال هذا الإطار، فالذين يستحقون الحياة هم أولئك الذين يقدرون على أن يهبوا السعادة للآخرين، وأن يقدموا لهم ما يضفى على حيواتهم زهورا وثمارا، أما أولئك الذين يتمحورون حول أنفسهم فإنهم فى رأيها لم يكونوا أكثر من بقايا الإنسانية حين نفدت عموميتها وانحصرت فى أنانيتها.

(٩)

كانت تجمع فى شخصيتها بين طبيعتين مختلفتين، ولم يكن أحد يتصور أن تجتمع هاتان الطبيعتان فى شخصية واحدة، ولكن كثيرين كانوا يتصورون أن هاتين الطبيعتين وجهان لعملة واحدة، فقد كانت صاحبتنا رقيقة إلى أبعد الحدود، وحادة الطبع إلى أبعد الحدود أيضا.

كانت تبدأ طقوس الحب بالرقة التى تتزايد فى تؤدة فتزداد الرقة رقة، وكان صاحبنا يشعر بالرقة فى كل لحظة، وكان يشعر بالرقة مرة ثانية وهو ينتقل معها من مرحلة إلى أخرى من مراحل التعبير عن العاطفة الصادقة المشبوبة، وكانت فى لمساتها ولفتاتها ولمحاتها وإحساسها وكلماتها ونظراتها وصوتها، تجيد التعبير عن الانفعال بالحب وعن صناعة الحب نفسه، كانت تتثنى بأدق عضلة من عضلات أصابعها على نحو ما تتثنى بكل كيانها، وكانت تتمنى بينما تجعل حبيبها يتمنى، وكانت تتفانى فى التعبير عن الحب حتى يتمنى الحب نفسه أن يتشبه بأدائها.. كانت ناعسة الطرف، ساهمة اللحظ كما يقولون، لكنها كانت فى اللحظة ذاتها تحتفظ بتورد وجنتيها وبريق عينيها.. كان دفء يديها كفيلا بالتهاب القلب، ولكنها كانت تدغدغ القلب نفسه بعباراتها الحالمة، فكان القلب يستريح لعباراتها بينما هو يعانى من القفز فى غشائه وهى تتلمسه عن بعد بيديها الدافئتين.

كان صوتها كفيلا بأن يثير فى القلب الرغبة فى الذوبان من أجل الخلود، وفى التلاشى وهو يذوب من أجل الخلود،وكان صوتها يبعث كل المشاعر الدفينة إلى التعبير القوى عن وجودها، وإلى التعبير الأقوى عن رغباتها فى إثبات وجودها، ثم عن التعبير الحى عن رغباتها فى التمتع بهذا الوجود نفسه.

(١٠)

ولكنها مع كل هذا كانت قادرة فى اللحظة المناسبة على إيقاف كل المشاعر التى اكتسبتها واحدة وراء أخرى وجعلت منها هرما رائعا ترتفع به إلى أعلى ما يستطيع إنسان أن يرتفع.

كانت قادرة فى لحظة واحدة، بفضل حدة غير مألوفة فى الطبع، أن تحيل كل هذا إلى سراب يتطاير فى سرعة الصوت حتى لا يكاد أحد أن يحسه أو يلمسه أو يتذكر له وجودا أو مدى فى نفسه.

كانت قادرة على أن تسحب البساط الذى أقامت عليه كل هذا البناء، وأن تطويه فى لمح البصر، فإذا بهذا الهرم المتنامى من دفء المشاعر والعواطف والكلمات وقد تلاشى تماما.. ويظن حبيبها أنه انهار فحسب، لكنه لا يجد أثرا لهذا الهرم على الإطلاق، وعند ذاك كان يدرك أن كل الحب قد تلاشى.... ويظل يتمنى لو كان قد انهار فحسب!!

على هذا النحو كان صاحبنا يمنى نفسه يوما بعد آخر أو حينا بعد آخر، لأن كل صدمة من هاتيك الصدمات كانت قادرة على أن تصيبه بالوجوم لفترة طويلة يعود بعدها ليعاود التمنى أن ينجح فى أن يستبقى الهرم حيا بعد بنائه، وكان يبذل جهده فى أن يتعرف على الأسباب الكفيلة بأن تحفظ له القدرة على أن يتحكم فى مشاعره حين تصل هذه المشاعر إلى الذروة.

كان يظن أن الإرضاء هو أنسب السبل إلى التحكم فى هذه المشاعر.. ولكنه وجد الإرضاء يسرع بدفعها إلى التدمير، وفيما بعد عرف أنها لا تحب الاستجابة بقدر ما تستعذب التطويع.

وكان يظن القسوة قادرة على أن تبرز ما قد يكون فيها من وداعة، فإذا بها ترحب بالقسوة كما ترحب عيدان الكبريت بجدران صندوق الكبريت

وسرعان ما تتفاعل معها، ولكنه يكتشف أن الكبريت يفقد ذاته بعد أن يكون قد أدى وظيفة لحظية قد تكون ذات فائدة وقد لا تكون.

وكان يظن التجاهل ذا قدرة على أن يصرفها عن تكرار لعبتها، فإذا هى شأن الأطفال الأبرياء ترفع صوتها لإثبات وجودها، وتزيد التحطيم لتلفت الأنظار، وتكثر من الانفعال لتحقق لنفسها رضاها.

وكان يظن أن البعد عن لقياها لفترات طويلة كفيل بأن يخفف من حدة طبعها حين يعودان إلى اللقاء، ولكنه وجد أن هذا الاجتناب لا يثير فيها الرغبة والتعطش إلى تعويض ما حرمت منه لفترة طويلة.

(١١)

وأخيرا اهتدى إلى أنها قد تكون من أولئك الذين لا يسعدون إلا من تكرار التجربة فى المدى القصير.. كالذين ينفرون من الأغنية الجديدة حين يسمعونها لأول مرة، ثم إذا هم يعجبون بها فى اليوم التالى بعد أن يكونوا قد سمعوها خمس مرات أو ست ..

وحين كانت الظروف التى تتيح لقاءهما على هذا النحو تتكرر بعيدا عن الناس..كان يجدها تزداد فى كل مرة اشتعالا.. وعلى قدر ما كانت رقتها تزداد وهى بسبيلها إلى الحب، فإن حدتها كانت تتضاعف حين تصل إلى الحب.. ولم يكن أمامه بعد سنتين من الحب إلا أن يخضع للتفسير الوحيد الكفيل بأن يحقق له الحب.. وأصبح هو الآخر أكثر منها حدة حين تصل به إلى ذروة الحب.. وأصبحا قطتين..

وقد عاشا خمس سنوات كما تعيش القطط!

11 لا تزال تنتظر فارساً على حصان أبيض

(١)

ها هى ذى تشغل خياله بالليل والنهار، وهى واقفة على ساقها اليسرى وعلى نصف ساقها اليمنى، أو على سيف ساقها اليمنى كما يقولون، وقد تدلت خصلات شعرها الذهبى على جانبى وجهها كما تتدلى هذه الخصلات عن قصد بعدما تنتهى الفتاة الصغيرة من تحريكها إلى الجانبين.. وهى تتناول أطراف هذه الخصلات بأناملها، وتتحسسها وكأنها تريد أن تستشعر بيديها ما تحمله الأجواء المعبقة المحببة إلى أطراف هذا الشعر..

كانت تدرك أن شعرها وهو جزء منها سينقل إلى وجدانها ما تحمله الأجواء، لكنها كانت تحب ليديها أن تتلمسا الإشارات التى بدأت فى الوصول إلى أطرافها العليا متمثلة فى هذه الخصلات.

كانت تشعر - ربما لأول مرة فى حياتها - بنوع غريب من السعادة، بل إنه نوع آخر من السعادة.. بل إنه شىء آخر غير السعادة، لعله يفوق السعادة فى تأثيرها على روحها وقلبها ونفسها.. إنها تحس بأن قلبها قد بدأ يحاول أن يسرّع بعض الشىء من دقاته.. بل إنها لتكاد تحس الآن بأن هذه الدقات تبدو أقوى من الدقات التى تعودت عليها من قلبها.. وهى تحس فى بدنها كله بإحساس غريب وكأنه يتهيأ لشىء ما.

وهى لا تستطيع أن تحدد هذا الشىء، بل إنها عاجزة عن أن تحدد ما إذا كانت مقبلة على استرخاء أم مندفعة إلى تحفز، إنها تحس كما لو كانت تمر بموجات متعاقبة من الاسترخاء والتحفز، وساقاها اللتان لا تستعملهما بأكملهما فى وقوفها لا يتململان من هذا الوقوف الحائر الذى كان يدفعها إلى التململ بسرعة.

وهى تريد أن تتحرك إلى الأمام فى نفس اللحظة التى تعتقد أن عليها فيها أن تعود إلى الخلف، لكنها لن تعود إلى الخلف بوجهها، إنها ستعود بظهرها لتستبقى هذه الصورة التى أمام عينيها.

إنها خائفة.. لكنها مقبلة على هذا الخوف، وربما تكون واجمة، لكنها لا تريد هذا الوجوم أن ينقطع عنها، إنها تريد أن تستمر وأن تتواصل، ولكنها لا تدرى ماذا تكون فكرة الآخر عنها؟ إنها لاتزال حريصة على صورتها فى أعين الآخرين كما ينبغى أن تكون.

ولكن مَنْ قال بهذا الوجوب، إنها الحتمية القديمة التى ترسبت فى كيانها، هل تضحى بهذه الحتمية التى عودت نفسها عليها؟ هل تستطيع حقا أن تثبت لنفسها أنها قادرة على الاختيار؟ هل تستطيع حقا أن تقنع نفسها

بالاستجابة للاختيار الذى سعت عمرها كله من أجل أن تجده فى لحظة واحدة؟ هل هذه هى اللحظة التى انتظرتها؟ وهل هذه هى اللحظة التى سمعت أنها تجىء ولا تتكرر؟.

ما أقسى الحياة!! هل بلغت قسوة الحياة أن تختزل حياتنا وتجربتنا وخبرتنا كلها فى لحظة واحدة تكون فاصلا بين الانطلاق إلى السعادة وبين البقاء فى القيود؟ وهل تظل تعاستها بالبقاء فى القيود بالقدر الذى كانت تشكو منه؟ أم أن هذه التعاسة سوف تتضاعف لأنها ستتذكر أن الفرصة قد جاءتها وأنها هى التى رفضتها؟

أما كان بوسع الفرصة أن تعلن عن نفسها قبل مقدمها حتى تكون على استعداد للقائها، وهب أن الفرصة كانت أخبرتها بأنها قادمة ماذا كان فى وسعها أن تفعل وهى التى طالما تمنتها؟ ألا تكون هذه الفرصة رحيمة بعض الشىء ولا تضعها هكذا بين فكى الرحى؟ هل قُدِّر عليها الشقاء حتى عندما تأتيها السعادة؟ وهل يمكن حقا ألا تأتى السعادة إلا فى هذه الصورة الفجائية!!.

(٢)

كانت أكبر مشكلاتها فى الحياة كثرة المحبين ثم كثرة العشاق ثم كثرة المعجبين.

بدأت حياتها فى بيت جدتها التى كانت لا تفرط فيها على الإطلاق، وكانت تعُنى بها عناية أشد مما تعنى أم بطفلتها، ولم يكن فى حياة جدتها

غيرها، فقد توفى الجد فى ريعان شبابه بعد أن أنجب ابنا وابنة، وكرست الجدة حياتها لتربية ولديها، وها هى ذى اليوم تضاعف من سعادتها وهى تتلقف بيديها الحانيتين ابنة ابنها، وهى تبذل كل اهتمامها وحنانها وحبها وثروتها ودفئها فى العناية بهذه الطفلة المدللة التى لم يكن لها أن تتوقع كل هذا الحظ المتدفق.

وهذه هى خالتها هى الأخرى تريد أن تستأثر بها لأنها لم ترزق من الذرية غيرها، نعم، فقد كانت تعتبر أن هذه الطفلة ابنتها هى، وكانت تستكفى بوجودها عن كل حاجة إلى الأبناء، وكانت تنازع الجدة فيها حتى إذا ما توفيت الجدة أصبحت خالتها تنظر إلى أمر أمومتها للطفلة المحبوبة على أنه من البدهيات التى لا تستحق المناقشة ولا الجدال، وكانت تعطيها من حنانها وحبها واهتمامها ما لا يقل عما كانت أمها تعطى الفتاة.

وكان أبواها هما الآخران يتطلعان إليها وهى التى تمثل الرباط المقدس الذى ربط بين حياتيهما بعدما ربط بينهما الحب القوى العاصف القادر الذى لم يترك للظروف فرصة فى أن تتغلب عليه أو أن تقف فى طريقه.. وهكذا أتيح لفتاتنا أن تنشأ بين أحضان متنافسة على حبها، ولم يكن لأحد أن يشعر بما شعرت به من كل هذا الحب، ولكن أحدًا غيرها لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذا الحب كله.

نعم.. فقد كان حب الجدة ينتقص من حب الأم دون أن يدرى المحبان، وهكذا كان حب الخالة يتنازع هذين الحبين، ولا يمكن القول بأن الغيّرة كانت تأكل هذا الحب، ولكن الحب نفسه هو الذى كان يأكل هذا الحب، ولعل أصعب المشكلات ما يكون ناشئا عن الذات نفسها، لأن المناعة ضد المشكلة تتوارى فى هذه اللحظة لتفسح المجال أمام الحب لأن يأكل نفسه..

ولولا أن الله سبحانه وتعالى لطف بالطفلة اللطيفة ما كان فى وسعها أن تعرف طعم الحب بعد هذا الحب المتصارع مع الحب.

(٣)

وكأن الحياة اختارت لها أن تتكرر تجربتها مرة أخرى مع الجنس الآخر، فهى حتى اليوم لا تستطيع أن تزعم أن بإمكانها أن تحصر أولئك الذين وقعوا فى غرامها فى سنيها الأولى من الحياة، وهى إذا تذكرت أحدهم فإنها لابد أن تتذكر واحدا آخر فى طريقه، وثالثا فى الطريق إليه، وهكذا لا تنتهى سلسلة العشاق الذين طرقوا أبواب قلبها فى مرحلة مبكرة، حين كانت قلوب أترابها لم تعرف بعد معنى أن تتلقى هذا الطرق.

إنها لا تدرى من أمر نفسها شيئا.. وهى تنظر إلى الأفق القريب بعين ونصف تماما كما تقف على ساق ونصف، فهذه الخصلات المتدلية من شعرها الحريرى تغطى النصف الأيسر من عينها اليسرى.. وكأن هذا التكوين البديع يرمز بصورة مجسمة إلى حال قلبها فى هذه اللحظات الحاسمة.. إنها تتردد فى اتخاذ القرار، لكن قلبها يدفعها إلى الاستجابة وهى تدفعه إلى التحدى.. وتتسارع ضربات قلبها فتظنه قد بدأ يستجيب لرغبتها فى التحدى..

ولكن عقلها يقنعها فى بساطة شديدة بأن التحدى الذى تطلبه من قلبها لا يتطلب هذا التسارع وإنما يكفيه السكون أو البقاء على الإيقاع نفسه، وإذًا

فإن هذا التسارع الذى بدأ يسيطر على قلبها ليس إلا رغبته فى الاستجابة... وهكذا فإن عقلها الذى كان من المفروض أن يقنع قلبها أصبح هو ضمير هذا القلب المتحدث برغبته فى الاستجابة.. ولكنها لا تريد..

إنها تستحضر أمام عينيها كثيرا من عذاباتها حين كانت لا تبخل بالعطاء ....حين كانت تصنع الصورة الجميلة، وحين كانت تبقى بمثابة الصورة الجميلة، إنها لا تريد أن تكرر المأساة، إنها لا تريد أن تستجيب لأن الاستجابة قادتها فى الماضى إلى عذابات أصبحت تعيش فيها الآن، ومن أدراها أنها لن تعود إلى نفس الآلام التى اجتاحتها حين أدركت أخيرا أنها كانت تعطى مَن لا يستحق؟

مَنْ أدراها أن هذه الآلام لن تعود لتعصف بها فى المرة القادمة؟ ومن أدراها أنها ستكون قادرة فى المستقبل على أن تتحمل صدمة ثانية؟ ولماذا لا تحرم نفسها من السعادة المحتملة حتى تتجنب صدمة الشقاء المؤكدة؟ ولكن قلبها لا يوافقها على هذا التفكير.. لأنها تشعر اليوم بمشاعر لم تذق طعمها من قبل.

(٤)

ولم يكن صاحبها بقادر على أن يستنقذها من براثن الخوف والشك، ولكنه نجح على مدى ثلاثة شهور متصلة أن يزيح عنها بعض الكوابيس، وكان كلما أزاح كابوسا من كوابيس الرعب والخوف والقلق والجزع والرهبة والخشية والاضطراب والفزع ظن أنه قد أقترب بمعشوقته إلى غايتهما

المنشودة، كان يظن كلما اجتهد أنه قارب النهاية؛ لأنه لم يكن يتصور أن إنسانة واحدة تملك كل هذه الأقدار المتنامية من المشاعر التى تحول بينها وبين الاستقرار العاطفى.

كان يمضى الساعات الطويلة معها فى حوارات طويلة يثبت لها فيها ما يعجز غيره عن إثباته، بل ويطمئنها إلى الحياة بكل ما يملك من مقومات الإقناع اللغوى والعملى والفكرى، ويريها الأمثلة رأى العين ، وكانت صاحبتنا أشد ما تكون اقتناعا وإيمانا ويقينا فى نهاية كل يوم، ولكنها كانت تعود فى الصباح التالى لتبدأ من نقطة شك جديدة.

وظل صاحبنا يستعذب هذه المحاولات العقلية التى يبذلها كل يوم فى تحويل الشك إلى يقين، والخوف إلى أمن ، والقلق إلى اطمئنان، والغضب إلى رضا، والوحشة إلى أنس، والرهبة إلى ثقة، وكان أكثر ما يسعده أن يجدها مستسلمة بين يديه فى نهاية كل يوم من أيامهما: يبدآن الليالى بالأنس والأمن والاطمئنان والرضا واليقين وينهلان من منابع الحب، وروافد العطاء.. ثم يبدآن يومهما التالى ببقايا من كل هذه الإيجابيات إلى أن يتصاعد قلقها وجزعها ليبدأ هو دور الطبيب.

وكان صاحبنا يحب الطب، ويحب ممارسته، ولكنه لم يكن يحب الطب الروتينى الذى تتكرر فيه الممارسة على نحو يسير، وكان يظن الحب شيئا غير الطب، فإذا به يجد نفسه عاجزا عن أن يستمر فى هذه الممارسة العاطفية المتكررة، ومع أنه كان ينجح باستمرار، ومع أنه كان لا ينتهى من علاجها إلا بعناقها، ومع أنه لم يفشل أبداً فى التغلب على كل ما أثارت من

زوابع وعواصف.. مع كل هذا فإن السأم أدركه.. وكان بطبعه ملولا، بل لعله كان أكثر الناس مللاً، وأقلهم إملالا فى ذات الوقت.

.....

وحين روى لى قصته لم أكن لأتعجب من نهايتها ولكنى كنت أتعجب لتأخر نهايتها حتى ذلك الوقت.

أما هى فمازالت تنتظر الفارس على الحصان الأبيض.

12 كانت أضعف من أن تتحمل قسوة نبله!

(١)

بدأت علاقتهما بسرعة رهيبة حتى إنهما تحركا بسيارته بعد دقائق من أول لقاء لهما، ولم ينته اللقاء إلا بعد أن شاركته الرأى فى أحد مشروعاته الضخمة فى مجال الأعمال، فقد اصطحبها حيث ذهب للقاء أحد العملاء، وقبل أن يودعها كانا قد تناولا الغداء معا فى أحد المطاعم التى تعود أن يتناول فيها بعض وجباته بمفرده، أو بصحبة ضيوفه من الرجال فقط، وهكذا حظيت صاحبتنا من طاقم المطعم باستقبال قد لا يمكن وصفه بأنه رائع، وقد لا يمكن وصفه بأنه دافئ.. ومع هذا فقد كان استقبالا خاصا.

وتضاعفت هناءتهما يوما بعد يوم، كان أكثر ما يشده إليها أنها صادقة فى التعبير عن مشاعرها، فهى عصبية إلى أقصى حدود العصبية إذا ما

استثارها شيء تافه.. ولم يكن هذا بالطبع يسعده، لكنه كان يعطيه فكرة عن مدى الحب الذى يمكن أن يصدر عنها إذا ما تعلقت به، ويبدو أنه كان محقا جدا فى هذا الرأى فإنها سرعان ما ذابت فيه حبا، وكانت بعد فترة لا تقول له إنها تحبه إلا وأردفتها بأغنية تغنيها لأم كلثوم، فإذا كان المسرح نصف مهيأ لأن ترقص على أنغامها تمايلت ما أتيح لها التمايل وتثنت ما اتيح لها التثنى.

وكانت ذات قدرة عالية على التعبير عن الحب، ولكنها فى ذات الوقت كانت عديمة القدرة على الامتنان، فلم يحدث أن أدت واجب الشكر التقليدى الروتينى الذى يُؤدى بعد أية دعوة على غداء أو عشاء!! وكان هذا أبسط مثل على انعدام قدرتها على الامتنان، رغم قدرتها الخرافية على الحب.. وعلى صب كلمات الغرام فى أذن العاشق!

(٢)

وكان صاحبنا سعيدا جدا بهذا الحب، ولكنه كان قلقا إلى أبعد حدود القلق من طبيعة هذا الحب..

كان يعتقد أن الحب مرتبط تماما بالعطاء، وكان يجد صاحبته غير قادرة على العطاء لأنها غير راغبة فيه، بل كانت تتعجب من هؤلاء المخلصين لماذا يبذلون الإخلاص؟ وكانت ترى أن الصدقة حرام تقريبا لأنها تأخذ من مال المعطى بدون مقابل منظور لها، وكانت تجزع - على سبيل المثال - لانخفاض فوائد البنوك، على الرغم من أن عقلها كان كفيلا بأن يفهم أن ذلك قد يكون مؤشر رخاء أو استقرار على الأقل، مما يستدعى السعادة لا الجزع.

وعلى هذا النحو كانت صاحبتنا ترحب بالأخذ، ولكنها لم تكن راغبة فى العطاء، وكان صاحبنا يسوق أمامها كل يوم اختبارا من الاختبارات الكفيلة بأن تلفت نظرها إلى أنه يدرك هذا الخلق فيها، فكانت تجتاز الاختبار بما تعتبره هى فى قرارة نفسها نجاحا، وبما يعتبره معظم الناس فشلا.. لكنها لم تكن تسائل نفسها: لماذا كان هذا الاختبار من الأصل؟ بل كانت تتمادى فتسرف فى إثبات الفشل.

وحدث ذات يوم أن شك صاحبها فى أن سيارته قد تستدعى البقاء فى الصيانة لأبعد من موعد لقائهما، فسألها أن تحضر للقائه بسيارتها على سبيل الاحتياط رغم أنه لم يكن من عادتها أن يلتقيا إلا بسيارته فى مواضع قريبة من مستقرها، ولم تحضر بالطبع.. وفى اليوم التالى أخبرت صاحبها بأنها قررت وضع السيارة فى الجراج لفترة طويلة لأن بعض أقاربها يطلبونها منها فى بعض الأحيان!!!.

(٣)

كانت لقاءاتهما تزداد اشتعالا، وكان أوار حبها يتلظى كما يقولون، لكن صاحبنا كان قلقا، وكان قلقه يزداد كلما ازداد تعبيرا عن حبها بحرارة، ولكنه لم يكن يدرى كيف يختبر هذا الحب؟ وكان يوازن بين أن يختبر هذا الحب ويتحمل الخطر الناجم عن احتمال ضياعه إذا لم يكن حقيقيا، وبين أن يضيع منه الحب نفسه للأبد حين يصدم فى الحب على هذا النحو.

ولكنه كان يعود فيقنع نفسه أن الخسارة القريبة مكسب، وأن المكسب البعيد خسارة.. ولكنه مع هذا لم يكن يجد فى نفسه الشجاعة على أن يتخذ القرار ثم يضعه موضع الاختبار!!

ومع هذا كان يجد عقله وهو ينبهه أن قيامه بوضع الامتحان خير من أن يأتى الامتحان بمحض المصادفة البحتة، وكان عقله يذكره بأن الإنسان قد لا يحس الألم وهو يستأصل بقايا الجرح أو الحرق لنفسه، بينما يتألم إذا تولى هذه العملية الآخرون.

ولكنه ظل عاجزا عن أن يتخذ القرار..

وظل أيضا حائرا كيف يضع الامتحان؟

إلى أن جاء يوم العيد وسأل صاحبته أن تشاركه فى توزيع الأضاحى، فإذا هى تعتذر بشدة ملحوظة عن عدم المشاركة فى مثل هذا العمل الذى لا يدخل السعادة إلى قلبها، وإنما يصيبها بالجزع من بعثرة المال الذى لا ينبغى لنا إلا أن نستمتع به!

(٤)

وانتهى صاحبنا من مهمته المقدسة مبكرا وانصرف إلى لقاء بعض أهله وخلانه، وصاحبتنا تستعجل اللقاء.. ولكنه كان منقبضا من سلوكها فى الصباح إلى أبعد الحدود، وكانت مشاعر الفقراء قد ضاعفت انقباضه من أفكارها، وتخيل نفسه - كما يفعل دائما - واحدا من هؤلاء ثم تخيل نفسه وقد انصاع لأمرها، ثم عاد ليتخيل نفسه وقد حرم مما حرمته منه بتفكيرها.

وأصبح واثقا من أنه لا يريد أن يلقاها فى هذا اليوم... ومع هذا كان لابد من اللقاء، وكان يتوقع ثورتها فتناول قرصا من المهدئات ليحتفظ لحبهما بطبيعة الاحترام الذى كان لايزال طابع علاقتهما حتى ذلك اليوم.

كانت أفكارها أكثر اسودادا من كل ما توقع، قالت له إنه ظلم نفسه لأنه التقى بالفقراء، فأصابته عدوى الحزن والاكتئاب وأصبح غير لائق بلقائها، وعادت لتعاتبه أنه لم يستمع إلى نصحها الغالى الذى كان كفيلا بالحفاظ له على اعتدال المزاج، ثم أنبأته بكل بساطة بأنها مضطرة ألا تضيع على نفسها العيد، ولهذا اتصلت بزوج أختها ليصحبها مع أختها فى نزهة نيلية قصيرة تسرى عن نفسها هذا الأثر السيئ الذى تركه فيها سلوكه غير المسئول.

وعلى الرغم من كل هذه المغالطات فقد أبدى أسفه ثم أبدى لنفسه سعادته بأن الأمور قد وقفت عند هذا الحد، وأنها قد بحثت لنفسها عن حل بعيد عنه... ونام ملء جفونه.

ولكنه استيقظ على رنين الهاتف، وأضاء نورا خافتا فوجد الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، ولم يكن من عادته أن يرد على التليفون فى هذه الساعة المتأخرة، ولكنه وجد أنه قد شبع نوما منذ ما بعد الغروب مباشرة، ورنين التليفون لا ينقطع، وتثاءب ورفع سماعة التليفون، وإذا المتحدث زوج شقيقتها يدعوه ليفحص شقيقتها من ألم شديد تعانيه فى صدرها منذ ساعة، ورغم أنه لم يكن طبيب قلب إلا أن اليوم كان يوم عيد ولم يكن هناك بد من الاتصال به.

(٥)

حين انفرد بشقيقة صاحبته يستمع إلى شكواها بينما زوجها يوجه عنايته بطفلهما الصغير فى حجرة الأطفال إذ استيقظ فجأة وأخذ فى

الصراخ والعويل لإحساسه بالوحشة فى غياب والديه عن حجرته.. لم تزد المربضة على أن أجابته بكلمة واحدة حين سألها عما تعتقد أنه السبب وراء هذا الألم، فقالت فى صوت خافت مستكين: أنت.

فى هذه اللحظة جاء الزوج، وانصرف الرجلان إلى حجرة الاستقبال ولم يتح لهما الانفراد إلا لدقيقة لحقت بهما بعدها الزوجة التى استجابت لنصيحة الطبيب وتناولت دواء موسعا للأوعية التاجية وصفه لها من باب الاحتياط، ودواء مهدئا من باب اليقين.

وأخذ صاحبنا يلف ويدور وهو يحاور شقيقة صاحبته بعد أن انضم إليهما زوجها وأخذ ثلاثتهم يحاولون استكناه السبب فى هذه النوبة... وقد استطاع أن يدرك أنهما عادا منذ ساعة وأنهما قضيا هذه الساعة فى انفعالات متبادلة شغلتهما حتى عن تبديل ملابس الخروج، ولم تكن الظروف لتسمح لهم ، بالطبع ، أن يتداولوا فى أسباب الانفعالات على وجه دقيق، وكان الطبيب بحكم خبرته قادرًا على أن يناقش الظاهرة من دون أن يحرج أصحابها بالبوح بأسبابها لكن أسئلته وجدت الرد سريعًا، وجدته اتهامًا مهذبًا بأن غيابه عن الصحبة أنشأ وضعًا أحرج رجلاً وآذى زوجته..

وهكذا بدأ صاحبنا يفهم معنى إجابة الشقيقة بأنه السبب، وأحب أن يطمئنها أنه لن يكون السبب بعد ذلك، فقال لهما فى لهجة شبه حازمة: إن السبب فى كل ما أصابهما فى ذلك اليوم أنهما لم يكونا كريمين إلى الدرجة التى سمحا لنفسيهما بقضاء هذه الرحلة الجميلة فى غيابه. وقد كان فى وسعهما ألا يخرجا حتى يأتى ليشارك ثلاثتهم رحلتهم.

عند هذا وعدته الشقيقة وهى تأخذ نفسا عميقا أنهما لن يقضيا فى المستقبل أى وقت يفترض أنه ممتع بدونه مهما كانت الأسباب..

.....

لم ينم صاحبنا ليلتها.. وكرر العلاج الذى وصفه منذ نصف ساعة للمريضة لنفسه هو.. ولكن بلا جدوى!

أصبح التساؤل تساؤلين، كان يسأل نفسه: هل كان هو نفسه بمثابة الشخص الذى تصادف وجوده فى المرحلة الزمنية التى كان لابد لصاحبته فيها من حبيب؟

ثم كان يعود ليسأل نفسه: وهل يحتاج إلى الوجود الدائم حتى يحتفظ بحب صاحبته؟ وإلا فإنه سوف يجد هذا الحب يبحث عن طريق كما حدث فى تلك الليلة؟

وهل وصلت بصاحبته فورة الحب إلى حد ألا تجد إلا زوج شقيقتها لتتوجه بمشاعرها المتقدة إليه، وأمام شقيقتها.. بل أمامه هو أيضًا لأنها كانت تدرك بلاشك أن الرذاذ سوف يصل إليه!!

(٦)

وكان أقصى ما وصل إليه التفاؤل أن تكون قد صدرت فى كل الذى فعلته عن رغبة فى أن تستثيره! ولكن هل يصل بها الحد إلى هذا الأسلوب؟

هل هذه هى الإنسانة التى يستطيع أن يطمئن على حياته معها فى المستقبل؟

كان قد وصل بعقله وقلبه إلى الإجابة بالنفى، لكنه مع ذلك كان يجد صعوبة فى التخلى عن حلاوة الحب الذى يعيشه، لم يكن - على حد تعبيره هو نفسه - مستعدا لأن يضحى بحاضر مؤكد من أجل مستقبل محتمل.

ولكنه ظل يفكر فى أن يجرب اختبار الحب والإخلاص ولم يكن هذا سهلا عليه على الرغم من أنه كان قادرًا دومًا على اجراء مثل هذه التجارب والاختبارات ولكنه كان يبحث عن اختيار حاسم.

وقد جاءه الاختبار بأسرع مما توقع...

فقد التقيا ذات يوم بزميل قديم له لم يكن يتورع عن أى شىء فى سبيل الجمال كما يقول، ووجد نفسه مندفعا إلى أن يدعو زميله القديم إلى غداء أسماه غداء عمل، مع أنه لم يكن هناك بينهما أى عمل ووجد نفسه مرة أخرى مندفعا أن يترك زميله ينفرد بمحبوبته ثلاث مرات، مرة ذهب فيها إلى دورة المياة، وثانية ذهب إلى السيارة ليحضر ورقا يريد أن يطلع عليه زميله، وثالثة عاد إلى السيارة لأنه هيئ له أنه نسى أن يغلق باب حقيبة السيارة تمامًا، أو هكذا قال.

وفى منتصف تلك الليلة تلقى مكالمة هاتفية من والدتها الجزعة التى فوجئت به يرد على التليفون وكانت تظنه لا يزال فى الخارج مع ابنتها، وإنما طلبته من باب القلق الذى يعترى الأمهات حين يقفن فى الشرفة إذا تأخر أولادهن عن موعدهم.

(٧)

وقبل أن تضع الأم السماعة كان مفتاح يدور فى باب الشقة، وبكل طيبة الأم ناولت السماعة لابنتها وهى تقول لأبنتها إن صاحبنا على الخط،

وانهمرت صاحبتنا فى سباب متصل تهاجم به صاحبنا لأنه أعطى لنفسه الحق فى أن يتجسس عليها.

واستمع إلى سبابها حتى النهاية ثم قال يحدث نفسه وهى تسمعه: إذاً هو الانتحار.. ولم يبد له أنها أبدت أى اهتمام بالكلمة التى نطقها فلم تكن قد عرفت بعد أن والدتها هى التى طلبته لتسأله على ابنتها ولم تكن تعرف أنه قد أجاب والدتها بأنه ترك ابنتها لتوه، وأنها سوف تعود إليها بعد قليل.

ولأنها كانت تعرف الحقيقة جيداً وهى أنها تركته منذ ساعتين على الأقل فقد كانت فى أشد العجب من أن يتصرف على هذا النحو من النبل الشديد.. ومع هذا فإنها لم تستطع أن تسامحه وهو يعريها أمام نفسها.

الباب الرابع

موازنات

13 لم تعرف فى حياتها إلا القلق

(١)

كانت والدتها طبيبة لامعة، وأصابها المرض الخبيث، وأخذ جسمها ينحل يوما بعد يوم، وكانت هى يومها تدرس الطب، فكانت تعرف أن هذا هو السرطان، وكانت والدتها تعرف كذلك، على الرغم من محاولة زملائها الأطباء الإنكار.

ولم تكن تستطيع فى سنها الصغيرة أن تغالب نفسها فتتمنى لوالدتها الرحمة بالوفاة، كانت تتمنى لها الشفاء وهى تعلم أنه أمل لن يتحقق، ولكنها كانت تتمناه، وأصبحت تعجب لصويحباتها اللائى يظنن آمالهن العريضة صعبة، فما بالهن بأملها المستحيل.

وكانت حتى وفاة والدتها تعزف معزوفة الأمل، ولم تكن قد واجهت بعد الواقع المر بغياب والدتها، ولكنها اليوم تواجه واقعا أسوأ من قلقها السابق، وفيما بعد كانت تعجب لهؤلاء القلقين الذين يريدون إنهاء الأمور على أى وضع!!

وخرجت من هذه المحنة بخلقين بارزين: الحزن الذى لا نهاية له، وفقدان الأمل.

أصبحت توقن أن الحياة عبث لا طائل من ورائه، ولكنها مع ذلك لم تتقوقع ولم تهرب، فأناقتها محل اهتمامها، وهى كثيرة التردد على الكوافير، وهى مهتمة بدراستها إلى الحدود المعقولة التى تضمن لها النجاح المشرف، لا التفوق الواضح، ولا الحد الأدنى من النجاح، وهى بعد ذلك كله تقوم فى البيت - باعتبار أنها الشقيقة الكبرى - بواجب الوالدة، ولكنها عن قصد وعن عجز وعن رهبة لا تشغل مكانة الأم الروحية لا مع والدها ولا مع أشقائها!!

(٢)

قد كان من الصعب عليها أن تحتل هذه المكانة، فلا هى تنهى ولا هى تأمر، ولا هى تناقش أباها فيما يجب وما لا يجب، ولا هى تضرب لإخوتها مثلا، ولا هى ترسم لحياتهم حدودا، وكانت فى كل هذا تصدر عن شعور التقديس لغياب الأم.

ولم تكن تعرف أنها مخطئة فى هذا الذى تفعل، وأن عليها أن تقدس الذكرى وألا تقدس الغياب، بل أن تقدس الذكرى بالحضور!! فتجعل من نفسها أما لوالدها!! وأما لأشقائها!! تصدر التعليمات فى هدوء، وتضفى المشاعر بقوة، وتضفى ظلالا على الواقع، وتنظم الحياة بإرادة، وتجعل للبيت روحا، وللوقت طعما، وللحياة هدفا، ولكل شىء نهاية وبداية.

إلى أن أفاقت على صدمة هزتها فى كيانها هزا شديدا، حين ذهب والده للعمل فى بلد شقيق، واصطحب أشقاءها جميعًا، وتركها لكليتها وسرعان ما نمى إليها نبأ زواج سيدة من والدها فى ذلك البلد العربى ولم يكن حبها لوالدها قد وصل إلى ذلك القدر الذى يجعلها تبحث له عن الأعذار والمبررات فيما فعل .

وكانت تظن أن أشقاءها الذين يعيشون الآن مع والدهم ومع السيدة الجديدة ثائرون، أو متبرمون على أقل تقدير، ولم يكن لها من وسيلة تستطيع بها أن

تستشف الأحوال التى هناك على البعد، فلا الرسائل تفسر شيئا، ولا التليفونات بقادرة على نقل مثل هذه المشاعر العميقة.

وعاشت حياتها فى قلق لا تعرف له نهاية!! وكانت - كما أسلفنا - تعجب فى قرارة نفسها من هؤلاء القلقين الذين يريدون إنهاء الأمور على أى وضع، فإذا بها فى هذه الآونة تريد إنهاء حالة القلق هذه على أى وضع!!

وكانت فى هذه الفترة لا تزال على اهتمامها بزيها وهندامها، وقد وجدت أن زميلاتها أو معظمهن يرتبطن بأفراد من الجنس الآخر، وأتاح لها وقتها غير المشغول أن تستمع منهن إلى قصص حيواتهن العاطفية، وكانت معظم هذه القصص بالطبع مليئة بالمبالغات وافتعال المصادفات، ولم تكن مثل هذه الآمال (الكاذبة) التى لم تمر بها صاحبتنا كفيلة بإقناعها.

ولكن قصة واحدة لزميلة عزيزة عليها شدتها وهزتها من أعماقها!!

(٣)

قالت لها صاحبتها إن رجال اليوم ليسوا بتلك القدرة على التمييز بين النساء، وإن نساء اليوم قادرات بحكم الثقافة والحياة المعاصرة والإمكانات على صياغة صورتهن فى أعين الرجال على النحو الذى لا يقنعهم فحسب، ولكنه يبهرهم أيضا. وأنها اكتشفت هذا بعد خبرة فى ثلاث تجارب وهى اليوم فى تجربتها الرابعة والأخيرة - إن شاء الله - لأن حنكة التجربة أتاحت لها أن تعرف أنها قد وصلت إلى مَنْ تريد وإلى مَنْ يريدها وهو مَنْ لا يستطيع العيش بدونها.

وصادف هذا أن كانت صاحبتنا قد أصبحت مشدودة بكل جوارحها تجاه هذه التجربة الجديدة التى توشك أن تخوضها بكل ما أوتيت من عزم ومن قوة، ولكنها ظلت عامين كاملين وهى لا تستطيع الخلاص، لأنها لم تكن قد استقرت فى ذهنها على فتى أحلامها، ربما لأن الذين كانوا أمامها لم يكونوا ليبهروها حتى

تحاول أن تبهرهم!! واستعادت من ماضيها أن والدتها كانت أعلى فى مستوى تعليمها من والدها وبدأت تفكر فى قدرها هذا، وقدر أمها التى قبلت القرين الذى هو أقل منها!!

على هذا النحو من القلق فى اتجاهات متعددة مضت حياتها، فهى قلقة على حياة أشقائها مع زوجة أبيهم، على أبيها مع زوجته، وتجاه نفسها مع مَنْ قد يرتبط بها.. وهل يكون ذلك حبا أم يكون دمارا، وتسأل نفسها: هل يسعدها وتسعده؟ أم يسعدها ولا تسعده؟ أم تسعده ولا يسعدها؟

وعلى نقيض زميلاتها كان إيقاع الدراسة والامتحانات هو الشىء الوحيد الذى يكسر قلقها ولا يثيره، فالامتحانات تأتى فى موعدها وتنتهى فى موعدها، وهى لا تجد من نتائجها إلا ما تتوقعه لنفسها من قبل، وهى، كما قلنا ـ لم تكن طموحة ولم تكن مهملة، وكذلك كانت فى تقديرها لمستواها معتدلة لا هى مغرورة، ولا هى متلهفة... ولا هى منهارة!!

(٤)

حتى وجدت نفسها ـ ذات صباح تستمع إلى معيد فى حلقة درس صغيرة، لكنه كان ـ كما يقولون ـ ملء السمع والبصر، حركته لا تهدأ، وحديثه سريع كأنه حفظ ما يقول مائة مرة، وقدرته لا حد لها على الربط بين المعلومات النظرية التى فى الكتب والمعلومات التى فى الواقع ، وبعد كل هذا فقد كان يحب أن يسمع الآراء الخاطئة ليرشد الطالب منهم إلى ما جعله يخطئ.

كانت هذه النقطة الأخيرة بالذات هى أكثر ما شدها إليه بجاذبية غريبة وقوية، فقد كانت تحس أنها كالجوهرة التى تحتاج صقلا، ولن يفلح فى هذا إلا رجل من هذا النوع!

وكان أشد ما حيرها فى هذا اليوم أن هذا المعيد قد تطوع من تلقاء نفسه فأبدى استعداده لهم جميعا أن يسألوه عما قد يصادفهم من صعوبات ولو فى

الحياة العامة وترك لهم تليفونه، ولا تعرف هل كانت هى الوحيدة التى سجلته فى أوراقها بهذه السرعة العجيبة! أم أن هناك مَنْ فعلت مثلها؟ وهل لاحظ عليها زملاؤها ذلك أم لا؟؟ وكانت على عادتها فى القلق المتصل قد أخذت تكرر على نفسها مثل هذه الأسئلة.

لم تكن تريد أن تتصور أن هذا الذى يلتقى بالعشرات سوف يكون من نصيبها هى، ولم تكن تستهين بنفسها، لكنها، كما قدمنا، لم تكن مغرورة، ومن أين يأتيها الغرور وهى لم تحقق من قبل شيئًا ذا بال فى حياتها؟ هكذا كانت تقنع نفسها باستحالة التحول إلى الغرور ولكنها لو نجحت فى هذه الخطوة فسيصيبها الغرور، هكذا كانت تحدث نفسها، إذاً فلا داعى للمحاولة ولا للنجاح حتى لا يصيبها الغرور..

هكذا كانت نفسها القلقة تتحدث إلى نفسها المفكرة!!

(٥)

وعلى الرغم من هذا فقد وجدت نفسها مدفوعة دفعا إلى أن تبدأ هذا الطريق، ولكنها لم تفلح فى أن تخفف من قلقها!!

ثم كان ما كان من أمر الحب وشرارته ووهجه.

وكان صاحبها ، بدافع من نبل شديد، وبدافع آخر من تفكير عقلى منطقى، لا يريد لها أن تنجح فى الحب بقدر ما يريد لها أن تتغلب على قلقها، ولم يكن هذا بالأمر العجيب على أمثاله فلم يكن فى إمكانه قبول مبدأ التفكير فى حبها إلا بعد أن يطمئن إلى استقرار نفسها، أما هى فكانت لا تريد أن تدع القلق إلا بعد أن تطمئن إلى الحب.. ومع هذا فهو يقنعها بأنها محبوبته، وهى تقنعه بأنها غير قلقة على الإطلاق. ولكن تصرفاتهما غير الواعية كانت تفضح حقيقة نفسيهما.

كان صاحبها يدرك أنه لا بد أن يتخذ من ناحيته خطوة تطمئنها، ولكنه كان يعرف أنه كلما تقدم خطوة إلى الأمام فى هذا الاتجاه فسوف تكون نكستها أكبر حين يبتعد عنها إذا ما يئس فى تخفيف قلقها، وكانت هى قانعة بما هى فيه ولكنها كانت تخشى ضياعه أو انقطاعه.

ومع هذا كله فقد كان من العجيب أنها لم تستطع أن تنقل إلى نفس صاحبها حمى القلق التى كانت تنتابها على الدوام! ولم يكن صاحبها قادرًا ولا كانت هى قادرة على توقع النهاية التى سوف تئول إليها علاقتهما، ولكن الذى لم يكن فيه شك عندها - فى ذلك الوقت - أنه لم يكن يحرص على الارتباط بها بقدر ما كانت تحرص هى على الارتباط به!

وقد حدث ذات يوم من الأيام حادث بسيط جدا مما قد يحدث كل يوم، لكنه كان له أكبر الأثر فى مستقبل علاقتهما.

كان صاحبنا قد تطبع - إلى حد كبير - بالمجتمعات الأوروبية المفتوحة فى علاقة الناس بعضهم ببعض، ولهذا فإنه لم يجد حرجا ذات مرة أن يقدم «تلميذته» إلى «زميل» آخر من زملائه، وأن يطلب إليه مساعدتها على تفهم جزء من مادة دراسية كانت هى فى حاجة إلى مساعدة فى تفهمه.

وكان هذا الزميل ينظر إلى صاحبنا على أنه سلفه الذى يتمثل خطاه، ويسعد بتقليده، وينجح إذا ما حل محله فى الموقع الذى يتركه اليوم إلى موقع أكبر.

(٦)

وبعد لقاءين بين الزميل وصاحبتنا لم يكونا خالصين بالطبع لوجه المذاكرة، وجد الزميل نفسه يسأل صاحبه عن السر الرهيب وراء تعلق صاحبتنا بصاحبها! ولم يكن من شأن صاحبنا اللف ولا الدوران، فهو يقص على زميله كل ما يريده من مظاهر السطح، وحقائق العمق، وكان صاحبنا كذلك واعيًا لسبب السؤال ولطبيعة العلاقة المحتمل نشوءها ولكن هذا لم يثنه عن أن يصرح بكل ما يعرف

من حقائق فقد كانت فلسفته يومها، كما أقنع بها نفسه، أن هذا الزميل قد يكون أحوج منه إلى إثبات نجاحه فى علاج هذه الفتاة التى لا تستحق إلا كل حب، بينما هو غير قادر على أن يعطيها الحب وهى قلقة.. ولهذا فقد بدأ ينسحب من حياتها فى تدرج يتواءم مع دخول زميله إلى حياتها فى وقت مواكب.. ومن العجيب أن أيا منهما لم يكن يجد غضاضة فى نفسه من جراء التفكير الذى كان من الممكن أن يجابها به نفسيتيهما لو فكرا فى هذا الأمر تفكير العامة أو تفكير أهل الصعيد.

وكلما اجتازت صاحبتنا مرحلة من مراحل قلقها ازداد تعلقها بالحياة وبالمستقبل، بينما كان صاحبنا يزداد بعدا عنهما طبقا لخطته الموضوعة حتى إذا ما قاربت تمام الشفاء كانت علاقتها بصاحبها الأول قد أوشكت على الانقطاع النهائى، وبدأت علاقتها بصاحبها الثانى فى صياغة أسس الحياة الزوجية!

(٧)

وفيما قبل الزفاف بأسبوع تصادف أن تقابلوا، ووجدوها فرصة للالتقاء حول طعام الغداء فى فندق قريب، وراع صاحبنا الأول ساعتها إحساس قلبى جارف يدفعه إلى التفكير فى طبيعة حبه لهذه الفتاة التى لم يعد يعرف هل هى أقل منه أم أكثر منه استقرارا وهدوء نفس؟.

ومع هذا كله فقد خرج بقوة إرادته وقد أقنع نفسه أن هذا الحق ليس له على الإطلاق، وأن الاختبار الحقيقى لشخصه وشخصيته هو فى تغلبه على هذه النزعة الشريرة على حد تعبيره لنفسه.

وكان من الصعب عليه أن يغالب نفسه، ولكن خلقه ومثاليته وقسوته على نفسه ساعدته على أن يبتعد عن أى لقاء تكون فيه أى فرصة محتملة للالتقاء بها ...وفيما بعد عامين تصادف أن التقى بها فى مستشفى لم يكن يحتمل أن يلتقيا فيه.. وفى براءة شديدة قالت له إنه لم يمض عليها يوم منذ زواجها إلا وفكرت فى الاتصال به أكثر من ثلاث مرات.

ولم يكن صاحبنا عاجزًا عن أن يعترف لها بأن هذا هو السبب الذى من أجله لن يعطيها الفرصة لهذا الاتصال فى المستقبل وعلى الرغم من هذه القسوة البارزة فإن صاحبتنا لم تشك ولم تتضجر.. وإنما قالت له فى بساطة شديدة إنها مضطرة لأن تخبره بحقيقة قد لا يصدقها.. وهى أنه شخصيا يناله كل يوم من اللعنات قدر كبير جدًا بعضه من زوجها وأكثره منها هى نفسها لأنه كان السبب فى ارتباطهما..

وكان صاحبنا كعادته حاضر الذهن فقال لها إنه يعرف هذا.

هكذا قال مع أنه لم يكن يعرف من أمرهما شيئًا، ولم يكن يتوقع أن تكون حياتهما على هذا النحو، وأنى له أن يعرف أو يتوقع؟ لكنه كان لابد له باعتبار الأستاذية أو الأسبقية لابد أن يكون فى موقف أقوى من موقف تلاميذه، ولهذا فإنه أخذ يزعم فى سرعة بالغة أنه يعرف مالا يعرف، حتى يحافظ على صورة أستاذيته فحسب.. أى كأنه كان أقرب إلى الادعاء الذى لابد منه!

وحين تأمل بعد هنيهة هذا الموقف الذى وضع فيه نفسه أدرك أنه ارتكب من الحماقة ما لا تسمح به الحكمة، ووجد نفسه مضطرًا لأن يصحح الموقف الذى وضع نفسه فيه، ووجد بديهته تسعفه بأن يردف فيقول: ولكن هذا على أية حال خير من أن أكون أنا الذى أتولى السباب! وعلى الرغم من أنه كان يظن نفسه بهذه الجملة قد كسب الحوار كله فإن صاحبتنا أجابته بسرعة: نعم.. أعلم هذا لأنك كنت دائمًا وستظل نموذجا لجبل الجليد.

وظن صاحبنا أن صاحبته تقول جملة من التى تحتمل المعنيين، ولكنه حين خلا إلى نفسه لم يجد إلا معنى واحدًا.. وعزّ عليه أن يكون من الجليد، ولم يسعده أبدًا أن يكون جبلاً!

وحتى يومنا هذا لا يعرف صاحبنا إن كان قد أحب.. كما أنه لا يعرف هل كان مبعث حب..

لكنه عرف فى مواقف تالية أن القلق الدائم قد تحول إلى ضجر دائم أزال القلق تمامًا وحل محله.

14 لا يفرق بينهما الزمان

(١)

لم يستطع أن ينكر أنه أحبها على صورة فريدة لم يحب بها أحدا قبلها ولا بعدها، ولا يعنى هذا أن حبهما كان بمثابة قمة الحب بالنسبة له و لا بالنسبة لها، وإنما كان حبهما لبعضهما طرازا مختلفا عن كل ما عرفه كل منهما عن الحب من قبل ومن بعد.

كان يحس أنها تستبطن العطف عليه فى كل لحظة من لحظات حبهما، ولم يكن فى ظن الناس ولا فى ظن نفسه بحاجة إلى هذا العطف، وكيف يكون كذلك وهو يصعد درجات مجده بثقة وباستمرار؟ وكيف يكون كذلك هو ملاذ السائلين ومحط أنظارهم؟

أما هى فقد كانت على الرغم من كل هذه المظاهر قادرة على أن تعرف أنه فى حاجة إلى العطف، كما أنها كانت قادرة على أن تقدم له هذا العطف دون أن

تجرحه ولو للحظة واحدة، مع أنها كانت تضعه فى كثير من الأوقات فى كرسى التلميذ بل كانت تضعه فى هودج الطفل فى بعض الأحيان، ولكنها كانت تفعل هذا بأمومة شديدة لا يكاد المرء مهما تقدم فى السن ينكر أنه فى حاجة إليها.

كانت تتعمد أن ترى فى صاحبنا كل ما لا يراه فى نفسه، ولم تكن تفعل هذا إلا لكى تجعله يرى صورة نفسه فى مرآة من نوع عجيب لم يقدر للبشر أن يعرفوها حتى الآن.

كانت مرآتها تعكس صورة المستقبل جنبا إلى جنب مع صورة الحاضر.. وكانت الصورتان فى الحق صادقتين تمام الصدق، ولم تكن هذه المرآة قادرة على أن تفعل هذا إلا لصاحبنا، ولم تكن قادرة على أن تفعل هذا إلا حين لا يكون أمامها إلا صاحبنا، وكانت المرآة قادرة على أن تطرح صورة أخرى للمستقبل إذا ما بدّل صاحبنا من الانطباعات التى توحى بها هيئته أمام المرآة.

وهكذا فقد كان حريصا معها على ألا يظهر إلا نفسه كما هى رغم قدرته على التلوين، فكان يحدثها وكأنه يحدث نفسه بصوت عالٍ وكان إذا وجد الفكرة التى تركها حديثه بعيدة عن تصوير حقيقة نفسه، اعتذر وعاد ليصحح الصورة، ولم يكن يفعل هذا إلا عن شغف حفى بأن يرى صورته الأخرى فى المرآة.

(٢)

كانت تصرفاتها كلها تنطق فى كل حين بأنها تحبه، ومع هذا فإنها لم تورد له هذه الكلمة على لسانها مرة واحدة، وكانت فى أحاديث أخرى توحى له بأنها تربأ بهذه الكلمة أن تكون من كلمات القاموس اليومى أو القاموس الأسبوعى.. كما كانت مع هذا لا تكف عن السخرية الشديدة من الذين أحبوها على مدى عمرها الأخضر، وكان ينتهز الفرصة ليدخل نفسه ضمن هؤلاء ويحدثها بخوفه من أن تذكره فى غد قريب أو بعيد بمثل ما تذكر به هؤلاء من سخرية فلا تجيبه إلا بقولها: وهل تعتقد ذلك؟ فإذا حاول أن يترجم هذا إلى اعتراف بحب من نوع آخر، لم يزد ردها على ابتسامة مليئة بكل خلجات النفس العاشقة وإشراقاتها.

ولم تكن تخفى جزعها حين يغيب عنها مع أنها كانت قادرة على هذا ببساطة شديدة، ولكنها كانت تبدو متلهفة تمام التلهف حين تسمع صوته بعد أى غياب قصير، وكانت تحيط ببرنامجه للغد أكثر مما قد يحيط هو به، وقد حدث فى مرات عديدة أنه لم يتذكر ما كان ينتوى عمله إلا عند سؤالها له عما فعل فى هذا الشأن، وعند ذاك كان يتذكر أنه كان من المفروض أن يفعل ما لم يفعل.

وكانت تشير عليه بتعديل بعض برامجه بما يكفل لها الاطمئنان على راحته البدنية أو الذهنية، وكانت تدفعه إلى الخلود إلى الراحة حين تحس أنه أسرف على نفسه، وكانت تدعوه إلى العودة إلى العمل حين تراه قد بدأ يميل إلى أن يخلد للراحة.

وعلى سبيل الإجمال كانت تعد نفسها ، وإن لم تعترف، مسئولة عن برنامج يومه وغده وبعد غده حتى من دون أن تراه أو يراها، وكانت تكتفى فى تقديرها لحالته الصحية بسماع صوته، وكثيرا ما كانت تنهى إليه شعورها بأنه مرهق للغاية فلا يوافقها ويظل على هذا الاعتقاد حتى يصبح الصباح التالى ويجد نفسه لا يزال مرهقا رغم كل هذا النوم.

وكان يعجب لهذه القدرة الخارقة على الإلمام بحاله الذى لا يلم هو به، ولكنه كان يعود ليذكر نفسه بأن الأطباء قد يعرفون عن المرضى أكثر مما يعرف المرضى عن أنفسهم.

(٣)

كان يجد فى حديثها متعة لا تنتهى، وكان يجد فى ثقافتها آفاقا عريضة لم يكن له بها عهد قبل ما تعود على حديثها إلى هذا الحد، وكان يراها أعظم مما ترى نفسها، وكان يتمنى عليها أن تتيح لأفكارها الخلود، ولكنها كانت تحتج عليه بأن أفكارها لم تسعدها ولهذا فإنها لا تود أن تكون سببا فى شقاء الآخرين.

ومع هذا فقد كانت تعترف بعظمة كثير من هذه الأفكار، ولكنها كانت تضيف: إنها خدعت نفسها زمنا طويلا، وإنها لهذا لا تريد له أن يخدع نفسه، وكانت تعتقد أن الحكمة تقتضى مسايرة التيار بقدر ما تقتضى الإبحار ضده فى بعض الأوقات.

(٤)

كانت مثيرة إلى أبعد حدود الإثارة، ولكنها كانت تغلف هذه الإثارة بطبقات غير مرئية من الجليد الشفاف..

وكانت تربأ بنفسها عن أن تكون محل إعجاب أو انبهار، لأنها لا تريد أن تكون ممن يجوز فى حقهم الانبهار والإعجاب، وكانت تحرص على كل صفاتها الأنثوية دون أن تجعل هذه الصفات الأنثوية تطغى على صفاتها الإنسانية..

وكانت إنسانيتها من نوع فريد فى هذا الزمان.. كانت تتعاطف من دون أن تنعطف..

كانت وجدانيتها طرازا رفيعا من صدق الأحاسيس والمشاعر دون أن يؤدى بها هذا إلى أن تغير من اتجاهاتها الفكرية أو العقلية..

وكانت فى سياساتها تجاه خلق الله أقرب إلى المتصوفين الذين تمكنوا من أن يرتقوا بأنفسهم إلى الحد الذى يجعلهم يخشون أن يقع فى أنفسهم فى أى وقت اعتراض على ما قدر الله.

(٥)

كانت تنظر إلى مستقبلها بخوف ورجاء، وكانت تتجاوز النظر إلى ماضيها حتى لا تشعر بأى درجة من الرثاء، وكانت لا تفتأ تحمد الله على حاضرها وتحاول أن تجعله أكثر إشراقا وبهجة، وهى تفعل هذا بشعور يختلط فيه الأمل فى الله مع الخوف من الأيام، وكانت تحاول ألا تشرك صاحبها فى كل قلقها هذا لأنها كانت تشفق عليه من تأمل حياتها..

وكان هذا يدفعه إلى أن يقترب منها بأكثر مما كان يظن، ولم يجد نفسه أبدا نادما على أنه قريب منها، ولم تحدثه نفسه أبدا بأن يبتعد عنها.

ولا سمحت هى له بأن يقترب أكثر من الحد الذى فرضته هى ورسمته وصورته، ولم تسمح له أيضًا بأن يبتعد إلى الحد الذى كانت تزعم له أنها تريده ألا يتخطاه.

وهكذا ظلا إلى يومنا هذا عاشقين لا يفرق بينهما الزمان، وإن لم يعترفا بذلك.

15 كانت تريده ممثلا

(١)

كان صديقى هو صاحب المبادرة إلى التعرف بفتاته، كان قد انجذب إليها بطريقة لا يعرف كنهها ولا وصفها، ولكنه يستطيع أن يتذكر أن انجذابه كان خفيفا، وأن هذا الانجذاب لم يصل فى مرحلة من المراحل إلى الدرجات العليا، وهو لا يذكر أن هذا الانجذاب قد بقى على حال واحدة، ولا على درجة واحدة، وإنما كان يتأرجح على الدوام، كان يصل إلى الذروة حين يكونان معا وكان يصل إلى أقل درجاته حين يبتعدان.

وكان يستنتج من هذا أن التقارب المادى هو الذى يروى حبهما ويغذيه، وأن التباعد المكانى هو الذى يحول بينه وبين النمو.. ولكنه كان يتذكر أيضا أنه غاب أسبوعا فى رحلة إلى الخارج فعاد وهو أشد ما يكون شوقا إلى صاحبته، وهكذا أصبح صديقى غير متأكد من طبيعة الجاذبية التى تربطه بصاحبته.

وكان صديقى يتأمل درجات انجذابه إلى صاحبته فى اللقاء الواحد فيكتشف أن اللقاء كان يبدأ فاترا، وأن الأشواق تستبد بهما وهما أقرب ما يكونان إلى بعضهما، ومع هذا فإنه كان يتذكر أوقاتا كثيرة للفتور تسود لقاءاتهما، وكان يحاول أن يتأمل سر الجاذبية الطاغية التى تمكن صاحبته فى بعض الأحيان من توجيهه كما تشاء فيجد نفسه وجها لوجه أمام مواقف أخرى استطاع فيها أن يصمم على اختياره، وأن يجعلها ترضخ لما يحب..

كان صديقى يطيل التأمل والتفكير بدون كلل ولا ملل لأنه لم يعرف فى كل من عرفهن من قبل مثل ما عرف من طباع محبوبته هذه، التى كانت استثناء من كل قاعدة وتجسيدا لكل خيال.

(٢)

كانت لمحبوبته ، على سبيل المثال ، قدرة رهيبة على إثارة اهتمامه بكل ما يعنيه لا بكل ما يعنيها.

كانت تسأل عمن قابل من زميلاته ثم تحدثه عن هؤلاء حديث النساء عن النساء، وهكذا كانت تفتح أمامه الباب على مصراعيه ليتأمل نوعا من الحوار الحى لم يكن له به عهد من قبل، وكانت تربأ بمنطقها الأخاذ أن ينحصر فيما تعودت أترابها أن ينحصرن فيه، وإنما هى تسبح فى بحور من خيال تارة، وبحور من خبرة تارة أخرى.

وكانت تجيد إلهاب الخيال بالجوانب الطريفة من كل قصة، وبالجوانب الإنسانية فى حديثها عن كل شخصية، وكانت تجيد القدرة على أن تضع حبيبها فى أفضل موضع من القصة كلها، فهى تدخر له أن يكون المشبه به لأنبل الناس ولأذكى البشر وأعقل العقلاء وأحكم الحكماء.

(٣)

وكانت تجيد التلاعب بنبرات صوتها إلى أبعد مما يظن أى قارئ، كان صوتها قادرا على أن يوحى بالبطش الشديد وبالشوق الأشد، كما كان قادرا على أن يوحى بالغضب السريع ثم بالرضا التام وبما بينهما من رضا على مضض وانتظار وبما يقارب هذا الرضا من تريث حتى تتضح الصورة ، وكانت فى كل هذا وغيره تستمد طاقة لا حدود لها من ذكاء العقل والنفس ومن القدرة على الإقناع وعلى التلوين.

وكانت حريصة كل الحرص على ماكياجها، ولم يحدث أن رآها حبيبها بدون مكياج، وكان كثيرا ما يمزح معها ويكرر على مسامعها قصة جاكلين كنيدى حين اشترطت على أوناسيس ألا يراها بدون مكياج، وكانت تتجاوز عن هذا وتقول إنها تعرف أن من حقه أن يراها بدون مكياج، وأن هذا اليوم سيأتى بلا ريب، ولكن الأيام مضت بدون أن يأتى هذا اليوم.

وكان كثيرا ما يلفت نظرها إلى أن ثيابها جميلة ولكنها قابلة لجمال أكثر وأكثر لو أنها تنازلت عن بعضها، وكانت تتجاوز عن مثل هذه الملحوظة بذكاء نادر، وتعيد صياغتها فى صورة عجز منها عن أن تصل إلى سر القدرة المتاحة له، والتى ستصل إليها بكل تأكيد لو طالت عشرتها له.

(٤)

كان يطلب إليها أن تقلع عن بعض العادات التى لا يحبها ، وكانت تقول له إنها مقتنعة بكلامه وبما وراء كلامه، وبرأيه وبصحة رأيه، ولكن تحقيق مثل هذه الرغبة لا يتأتى إلا إذا طالبها هو وكرر عليها طلبه مصحوبًا بالرجاء والدلال، ولا يمكن لرغباته أن تتحقق أبدًا إذا كانت فى صورة الأمر والنهى.

وكان ينخدع بهذه الفكرة البراقة، فإذا ما لجأ إلى محايلتها كانت استجابتها نوعا آخر من المحايلة بأن يتنازل بعض الشيء عن أفكاره المثالية، وأن يتقبل أخطاء البشر ولو إلى حين.. وهكذا كان يجد نفسه وقد اقتيد إلى الخندق مسلوب السلاح.

(٥)

كانت تدفعه إلى التفكير فى المستقبل فكان يروعه منها إقبال مفرط على متع الحياة، وكان يظن أن عقلها كفيل بأن يرتفع بها عن هذه المتع إلى سعادة النفس فإذا بها تحاول أن تفرض عليه رؤيتها للنجاح، وكان يحاول أن يجعل للمثل العليا مكانا فى تصورها للنجاح فكانت لا تنكر قيمة المثل العليا ولكنها تضع إلى جوارها الرغبة المفرطة فى الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ما دامت قد جاءت عن طريق مشروع، وكان يحاول أن يقنعها أن السعادة تتأتى بالرضا أضعاف ما تتأتى من المشروعية، ولكنها لم تكن لترغب فى التنازل أبدا عن بعض ما رسمته فى خيالها من مستقبل.

وكان كل هذا يقودها إلى الإفراط فى تقدير مواهبها وطاقاتها، ولكنها كانت أذكى من أن تجعل هذا الإفراط يقودها إلى إفراط فى بذل الجهد، وإنما كانت تكتفى فى ذلك بالإفراط من الحديث عن مهاراتها وإنجازاتها بينما هى لا تنجز شيئا ذا بال.

وهكذا كان على محبها أن يسدد لها قيمة الفاتورة لأشياء وهمية.. وكانت قادرة على أن تجيد المطالبة بهذا الثمن ويبدو أنه لم يمر على مسامعها أبدا أن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام، ومن العجيب أن الثمن لم يكن أبدًا نقدًا ولا مادة، وإنما كان تمثيلا تضطر صاحبها إليه حتى يظهر إعجابه وانبهاره بما ليس فيها.

(٦)

وكانت قادرة على إظهار أكبر قدر من الانبهار العاقل، بعيدًا عن نمط الانبهار الأمريكى المجنون الذى قد يصادفك فى كل لحظة من الحوار حتى وأنت تذكر أسماء أولادك ، كان انبهارها قادرا على أن يصنع شيئا مما هو أقرب إلى اللاشىء، وكانت لا تجود بهذا الانبهار إلا فى الحالات التى تحب أن تبدو فيها وكأنها فى أحسن حالاتها العاطفية أو المعنوية.

وعلى سبيل المثال فإنها كانت تستطيع التعبير عن كثير من صفات قيادته لسيارته على الرغم من أنه لم يكن يعرف أن لمثل هذه الصفات وجودا فضلا عن أن تكون مستحقة للانبهار، ومع هذا فإنها لم تكن تطلب من الطرف الآخر أن ينبهر لها بصفاتها بالدرجة نفسها فحسب وإنما بأضعاف هذه الدرجة.

هكذا كانت تعيش الرغبة فى التنمية المطلقة لكل ما هو متاح من ثروة ومن مشاعر ومن سعادة ولكل ما هو غير متاح أيضًا..

وكانت ترنو ببصرها إلى الأمام فى غير تحوط لكنها كانت تتعسف فيما تتحسبه من مستقبل وفيما تستبطئ من حاضر.

(٧)

ومع كل هذا فقد كانت تجيد التعبير عن أمنياتها فى رقة بالغة، وكانت قادرة على أن تجعل التعبير عن هذه الأمانى دافعا لتحقيقها، فهى تذكر صاحبها أولا بفضله فى تحقيق أمنية سابقة وتفيض فى حديث عن عظمة العشاء السابق على سبيل المثال، ولا تمل من إطراء ذلك العشاء حتى يسألها صاحبها عن العشاء الذى تتمنى أن يجمعهما الآن، أو حتى يسألها إن كانت تعرف أن هناك مكانًا أروع من ذلك المكان..

وكانت تفعل هذا كله برشاقة نفسية بالغة لا يحس معها صاحبنا إلا بالنشوة فضلا عن السعادة، ولكنه مع ذلك كان يجد نفسه فى النهاية وقد أصابه الاجهاد من كثرة الأدوار التى قام بها حتى يرضيها.

وكان من الصعب عليه أن يؤدى كل هذه الأدوار فى كل حين وآن، ولهذا فإنه بعد عام واحد من صحبتها وجد نفسه وقد آثر على الرغم من كل شىء أن يفترق عنها حتى لا يخسر حياته فقد كان يعتقد أن التمثيل المستمر هو أكبر تضحية بذاته، ولم يكن عنده الاستعداد لهذه التضحية.

ومع هذا فإنه لا يزال يسأل عنها فى ذكرى لقائهما الأول من كل عام، ولم تكن تخفى سعادتها بهذا، ولا نشوتها، ولم تكن فى الوقت ذاته تُظهر أبداً أنها كانت تنتظر هذا السؤال ولا أنها كانت ستعانى شيئاً لو أنه لم يحدث.

وكان صاحبنا يكتفى لموهبة التمثيل بيوم واحد فى السنة لا يعرف أحد غيرهما موقعه بالتحديد بين الأيام؛ لأنه لم يكن يوافق إلا يوم لقائهما هما فقط.

16 كانت أعقل من أن تتمناه

(١)

كان يأسره إليها قدر كبير من المزايا، ومع هذا فقد كانت علاقتهما أقرب ما تكون إلى الوصف القائل إنها علاقة بلا مطالب.. كانت هادئة الأعصاب، طويلة النفس ، مترفعة عن الصغائر..

وكانت تضحى بكثير من الفرص التى لا تمر بأقرانها إلا وينتهزنها، كانت تتعفف عن ثقة شديدة وكانت تفهم الحياة على نحو متفتح ومتفائل، ولم تكن تريد من الحياة إلا ما هو معقول، ولم تكن تمنى نفسها فى حساباتها لمستقبلها أو حاضرها بما هو أكثر مما هو متوقع، ولكنها مع ذلك كانت لا تقبل أن تبدأ مشروعا لا يبدو لها أنه قادر على أن يفى بالحدود الدنيا من تطلعاتها.

كانت تناقش الأمور فى موضوعية شديدة، وكانت تخلص النصح، وكانت حين تناقش وحين تقدم النصح تفعل هذا فى هدوء شديد جدا، هو ذلك الهدوء الذى لا ينشأ إلا عن ثقة شديدة بالرأى، وبالإخلاص فى تقديم النصح.

حين عرفها صاحبنا لم يكن مشدودا إليها ولا منجذبا، ولكنه احترم ثقتها فى نفسها حين أتيح لهما أن يتعارفا، وحين توثقت علاقتهما ...كان يتذكر على الدوام لقاءهما الأول، ويكاد يجزم أنه كان من الممكن أن يكون الأخير لولا هذا السر الذى يستعصى على البشر أن يعرفوا به ما يخبئه الغيب لهم..

وحين التقى بها للمرة الأولى لم يكن يقدر أنه قد يلتقى بها مرة ثانية، فلم تكن فى أبهى صورها ولا فى أبسطها، وكان صاحبنا مغرما بالبساطة الشديدة، فإن لم يكن فبالتعقيد المطلق، ولم يكن، لسوء حظه، يستطيع أن يهضم أى درجة أخرى فيما بين هذين الطرفين المتنافرين.

(٢)

وحين التقى بها للمرة الثانية لم يكن شعوره تجاهها بأفضل من شعوره تجاهها فى اللقاء الأول.. ولكنه منذ اللقاء الثالث بدأ يكتشف فيها من الإيجابيات ما جعله ينجذب إليها، وكان إذا حادثها بالتليفون لا يجد فى نفسه الرغبة الجامحة فى الاستمرار فى الحديث لأكثر من دقيقتين ولكنه كان يشعر بالسعادة لمجرد سماع صوتها، ولطريقتها الهادئة والحنونة فى الإجابة عن أسئلته التقليدية التى يسأل بها عن صحتها أو أحوالها أو أخبارها.. ومع أنه لم يكن يتعطش إلى حديثها التليفونى، فقد كان يفتقده إذا غاب عنه أو تأخر.

وكان إذا صحبها إلى مطعم أو مشرب أو محفل لا يحس بالنشوة العارمة ولا بسخونة العواطف وتأججها، ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن ينكر أن صحبتها سعيدة مبهجة، ومع أنه قد تعود نزق كل مَنْ عرفهن قبلها، وتعود الاستمتاع بهذا النزق والاستمتاع بترويضهن، إلا أنه مع ذلك كان يحس بمتعة أخرى وحقيقية فى صحبة عقلها الهادئ، ونفسها الراضية.

(٣)

وفى أعقاب كل لقاء كان يجد نفسه كأنها هادئة راضية، ولكنه كان يستغرب من بحث عقله وفكره عن المتاعب، و لم يكن يدرى جوهر الحقيقة فى أمر الحب، وكان يسأل نفسه: هل لابد للحب من وجود هذه النشوة العارمة والعذاب الدائم والخلاف المتواصل والشقاق لأدنى سبب.. وكان عقله كثيرا ما يتجاوز هذا المعنى ليسأل نفسه هل كانت علاقة بعض الناس بالحب من هذا النوع الهادئ المريح؟

وكان يحدث نفسه أن الذين عاشوا حتى القرن الماضى لم يعرفوا على سبيل المثال، حوادث السيارات ولا مشكلاتها، ولكن نفسه تذكره بأن هؤلاء كانوا يقودون الخيل بسرعات رهيبة، وأنهم كانوا بلاشك يتعرضون لحوادث ومصاعب أخطر وأفدح من حوادث السيارات، ثم تعود نفسه لتحدثه أن بعض الناس لا يركبون السيارات فى الوقت الحاضر، وأن كثيرا من الذين عاشوا فى الأزمنة السابقة لم يكونوا من الفرسان.. ولا يزال عقله يدور ويدور، ولكنه يعود إلى نفس السؤال المحير: هل يستطيع أن يواصل هذا الحب ..أم أنه لن يستطيع؟.

وكانت الأيام واللقاءات تمضى فلا يشتعل الحب، ومع هذا فإنه لا يموت، بل ربما ازداد عمقا، ولم يكن هذا الازدياد فى التعمق يزيد على درجات قليلة هى أقرب ما تكون إلى السطح كأنما هى أجزاء من المليمتر، ومع هذا فإن ذلك الحب الذى نما لم يكن ينقص أبدا.

(٤)

وكان صاحبنا لا يفتأ يواجه بعض الآثار المترسبة فى قرارة نفسه من جراء تجاربه السابقة، فإذا هو يقارن بين هذه التجارب العارمة وبين صاحبته، فيحس بمدى ما أنعم الله به عليه، فإذا انصرف إلى التفكير وشردت به أفكاره، تغلبت

عليه نفسه الأمارة بالسوء، وود لو عادت به الأيام إلى أجواء تلك التجارب العاصفة بكل ما كانت تحمله من هموم وشكوك وألم.

كان فى اختصار شديد يبحث عن الجذوة.. عن لسعتها عن ألمها.. لكنه لم يجدها وبدا له أنه لن يجدها.

وجاء عيد ميلادها فقدم لها هدية متوسطة القيمة.. لا هى بالمتواضعة ولا هى بالبراقة، ولكن سعادتها بها كانت فوق ما يتصور وأقصى من كل ما مرّ به مَنْ سعادات صادفها فى وجوه مَنْ عرفهن.. وقاده هذا إلى التفكير فى مدى الرضا النفسى، وكيف يسعد صاحبته قبل أن يسعد الآخرين.

(٥)

إلى أن جاء يوم كانا فيه فى قمة صفائهما النفسى والعقلى وسألها عن أحلامها بالنسبة للزواج، ففوجئ بها تقول له فى هدوء: إنها لا تفكر فى الزواج إلا أن يأتى عليها الوقت الذى يجب فيه أن تتزوج لتؤدى وظيفة الحياة بإنجاب طفل أو أكثر.. وعجب صاحبنا لهذا الرد ولكنه تماسك وسألها: ومتى يكون هذا؟ فقالت إنها تعتقد أن هذا يكون فى حوالى الثلاثين، مع أن أسرتها والقريبين منها يقولون إنه عادة ما يكون قبل ذلك.

ومع هذا لم يجد صاحبنا فى نفسه الشجاعة أن يسألها: وهل تقبل به الآن زوجا؟ ولكنه فى اليوم التالى سألها السؤال الذى كان ينبغى له أن يسألها عنه منذ فترة طويلة.. هكذا قال لها.. وفى بساطة شديدة أجابته بأن هذا يتوقف عليه هو.. إذا أرادها فمرحبا وإذا لم يرد فإن الأمر فى يده!! ولم يستطع فى تلك اللحظة أن يعلق بأى شىء.

ولكنه عاد إلى الحديث بعد يومين وسألها: لماذا هى مستسلمة هكذا؟ ولم تعبر عن أى نوع من الغضب تجاه هذا الوصف بالاستسلام، ولم يكن هذا غريبا عليها بالطبع وهى التى وصلت، فى رأيه، الى أقصى درجات الثقة بالنفس، وإن كان هذا غريبا على صاحبنا الذى لم يصادف هذا الخلق فيمن سواها ممن عرفهن ، و وصل الأمر بها أنها لم تكلف نفسها عناء أن تلفت نظره إلى أنه لايصوغ السؤال إلا فى يوم أو يومين، وإنما أجابته فى هدوء شديد بقولها: إن النظام الاجتماعى يجعل المبادرة فى يد الرجل، ولهذا فإنها لا تكلف نفسها فوق طاقتها مادام الأمر معقودا بيد الرجل.

(٦)

وبعد ثلاثة أيام أخرى عاد صاحبنا ليسألها كيف قبلت على نفسها أن تمضى فى علاقتها به إلى هذا الحد، وكل هذه المدة، بينما هى غير واثقة تماما أن هذا سينتهى بالزواج؟.

وفى هدوء شديد طلبت منه لأول مرة طيلة علاقتهما أن تسأله سؤالا واحدا قبل أن تجيب عن سؤاله، وأردفت تسأله عن النسبة التى يظن أنها تبنى عليها أحلامها فى الزواج منه؟ وأجابها بعد اعتذار عن أن يكون رده محرجا لها بأنه يظن أنها تعتقد أن الأمل فى هذا لا يتعدى خمسين فى المائة.

عندئذ أجابته بأنها لم ترتفع بهذه النسبة على الإطلاق لأكثر من عشرين فى المائة، ومع هذا فإنها كانت على الدوام على استعداد أن تهب نفسها له لو أراد.

(٧)

ولأول مرة طيلة ذلك الأسبوع، وجد صاحبنا نفسه يسألها من فوره: وما الذى يدفعك إلى هذا؟.

عند ذاك سألته هل يتضايق إذا هى جرحته بإجابتها؟ وطمأنها بأن شيئا من هذا لن يحدث لأنه هو الذى سأل، فعادت تقول له: ولكن إجابتى ستكون جارحة ؟ وربما تكون هى المرة الأولى فى حياتك التى تسمع فيها مَنْ يصفك بافتقاد الذكاء.

وعاد صاحبنا يلح فى طلب الإجابة وهى لا تزيد عن الابتسامة وتقول له: ألم أقل لك إنها المرة الأولى فى حياتك التى تسمع فيها من يصفك بافتقاد الذكاء؟ وهو لايزال يسألها الإجابة وهى تقول لقد أجبتك.. ألم أقل لك إنها المرة الأولى التى تسمع فيها مَنْ يصفك بافتقاد الذكاء.

ولايزال صاحبنا يسألنى باتصال وتكرار منذ يومين: هل هذه إجابة! وإذا كانت كذلك.. فهل كان غبيا فعلا ؟!

17 كان يحبها بتناقضاتها

(١)

كانت فى حديثها أمام الآخرين تتمتع بقدر من الغرور المكشوف الذى لم تكن له نهاية، وكانت تتمتع فى الوقت ذاته بقدر من ضعف الشخصية أمام نفسها.

وقد اجتمع عليها الغرور وضعف الشخصية وتفاعلا فصبغا تصرفاتها بصبغة غريبة ميزتها بين قريناتها تمييزا واضحا، فزادتها إحساسا بالغرور، ووجد كل مَنْ عرفها فى غرورها ومظاهره ونوادره مادة خصبة لحديثهم، وترامت إلى أسماعها بالطبع بعض شذرات من هذا الحديث، فكانت حريصة على أن تستزيد من السماع، ولم يكن أمام الناقلين بد من أن يغلفوا السخرية بما ينبغى أن تُغَلف به من تحفظهم على آرائهم التى يصورونها على أنها آراء الآخرين..

ولكن صاحبتنا كانت تبنى سعادتها على غلاف التحفظ وتحتفظ به، وتلقى بجوهر الحديث تحت قدميها ، وتدعى أنه سوف يكون بإمكانها أن تقف ذات يوم على هذه الجواهر مجتمعة لتزداد ارتفاعا، ولم تكن فى هذا إلا صورة مفترضة من إبليس وهو يفاخر فى أيام التشاريق بما ألقى عليه من ملايين الجمرات.

(٢)

كان تعبيرها عن غرورها أكثر التعبيرات قدرة على إبراز التناقض الانفصامى الحاد فى شخصيتيها الظاهرة والباطنة على حد سواء، فقد كانت صاحبتنا تعتقد - على سبيل المثال - أنه ليس هناك أحد فى العالم يتمتع بلون شعرها، مع أنها لا تنكر فى الوقت ذاته أنه مصبوغ.. ومع أنها تفتح حديثها فى أول كل أسبوع بالسؤال عن رأى محدثيها فى درجة لون شعرها فى هذه المرة!!.

وكانت فى معرض حديثها عن عبقريتها فى إدارة شئون منزلها تفاخر بالأطعمة التى تقدمها كل يوم لزوجها وأولادها من يديها الماهرتين.. ثم لا تلبث فى عرض حديثها عن عبقريتها فى الارتقاء بأنوثتها وصيانتها الدائبة لهذه الأنوثة، أن تذكر أن هذه الأنامل السحرية لم تلوث فى يوم من الأيام بما لوثت به أيادى النساء أجمعين من روائح الطعام وتجهيز الطعام!!.

وكانت تزعم مثلاً أنها لا تكف عن تجهيز الولائم الفاخرة لمعارفها فى نواحى نشاطها المتعددة ولمعازف زوجها وأولادها المتعددين كذلك، بحيث إنه لا ينقضى الأسبوع من دون وليمة أو وليمتين.. ثم لا تلبث أن تتحدث بعد حين عن ترفعها وترفع بيتها عن استقبال الناس أو استضافتهم، فتذكر أن أحدا لم يتشرف بأن دعى إلى وجبة فى منزلها طوال عمرها غير ذلك الرئيس الأكبر لتلك الدولة التى انتفعت ذات يوم بعلمها الذى لا حدود له!! دُعى هو وحرمه بعد إلحاح المقربين منه.

وعلى هذا النحو كانت تزعم فى عام من الأعوام أنها شاهدت كل مسرحيات الموسم المسرحى بلا استثناء، وأنها شاهدت بعض العروض أكثر من ثلاث مرات، لأنه لابد لها أن تعيش خارج البيت كما تعيش داخله!!! وفى نهاية نفس العام أتيح لنفس الأشخاص أن يستمعوها وهى تقرر بكل ثقة وتأكيد وغرور أنها لم تطأ عتبات المسرح فى حياتها كلها ولا على سبيل المصادفة.

وكانت تزعم حتى فى مواجهة أولئك الذين لا تربطهم بها أية صلة، أنها تنفق بلا حدود على كل مَنْ يسألها العون، وأنها تتكفل بنفقات علاج معارفها فى أرقى المستشفيات كاملة، ثم لا تمضى الساعة إلا وهى تتحدث عما فطرت عليه من حكمة رائعة (فى ظنها) مكنتها من إدراك أن الناس فى مجموعهم لا يستأهلون الخير، وأن الله لو أراد لأغنى الفقراء وأسعد الأشقياء ابرأ المريض، لكنهم لا يستأهلون غير ذلك!!

(٣)

وكانت تزعم أنها لا تكف عن القراءة، وأنها قرأت فى شبابها ما لم يقرأه البشر أجمعون، وتفيض فى حديثها عن هذا المعنى حتى يخيل لك أن هناك من الكتب كتبًا لم يقرأها أحد سواها، وأن بينها وبين دور النشر العالمية عقودا لاحتكار قراءة بعض الكتب التى ألفت لها دون غيرها، ثم لا تلبث أن تسمعها قبل أن تنقضى الساعة تتحدث فى سخرية مفتعلة عن أولئك الذين يضيعون وقتهم فى القراءة، وأن إحساسها الصادق وحده كفيل دوما بأن يعطيها القدرة على الحكم الصادق عن أى جانب من جوانب الحياة، من دون أن تقرأ عنه، أو أن تسمع لمن قرأ عنه.

وكانت تتحدث بحرقة شديدة عن كراهيتها للخيانة فى أية صورة من صورها.. ولا تمضى دقائق حتى تجدها تحدثك عن مهارتها اللامتناهية فى ممارسة

الخيانة بكل صورها.. ثم لا تلبث أن تخون الخيانة نفسها وهى تحدثك مرة أخرى عن كراهيتها للخيانة!!.

(٤)

وكان صاحبنا يجد متعة كبيرة فى متابعة أخبارها وتصرفاتها فقد كانت نمطا غريبًا ومتميزا لم يتوقع أن يراه فى حياته، ولكنه مع هذا كان لا يزال مندهشًا من وجود هذا النمط كأنه كان لا يصدق ما عرف فهو لهذا حريص على متابعة هذا الوجود.. وكان كثيرون ينبئونه أن وجودها ليس معجزة ولكنه كان يجيبهم بأن وجودها معجزة المعجزات إذ كيف يجتمع الجليد والبخار، وكيف يجتمع الملح والسكر، وهكذا كان صاحبنا لا يفتأ يعبر عن دهشته لوجود هذه المعجزة ولاستمرارها فى الحياة ولم يكن ليقتنع أبدًا بما يقوله له أصحابه من أن المسألة لا تعدو أن تكون صاحبته هذه صورة مشوهة من صحيفة يومية فيها أخبار الأفراح وأنباء الوفيات.. ولكنه لا يقتنع.

وكان أصدقاؤه يخشون أن تتحول متابعته إلى شفقة وأن تتحول شفقته إلى إعجاب وأن يتحول إعجابه هذا مع الزمن إلى صورة من صور الحب.. ومع هذا فقد حدث ماتوقعوه وبأسرع مما كانوا يتصورون ولما عجز الجميع عن أن يفهموا السر فى هذا التطور السريع اضطروا إلى أن يحاصروه بالأسئلة فى جلسة من الجلسات التى كانت زميلتهم غائبة عنها.. ولشد ما كانت دهشتهم حين أخبرهم فى ثقة العالم وثبات البحاثة أنه توصل إلى أن أعظم أخلاق القرن القادم على المستوى المادى والروحانى لن يكون إلا خلقًا واحدًا فقط.. واندفعوا يسألونه وهو يرواغ بأن يعجب أنهم لم يفهموا بعد!

وحين اعتذروا وصمموا على أن يجيبهم أجابهم فى تنازل من عرف السر وحده : إنه التكيف !!

وحتى يومنا هذا لم يعرف الأصدقاء نهاية لطريق التكيف!

18 شاردة على الدوام

(١)

كانت قادرة على تمييز الإحساسات المتقاربة جدا، حتى ليهيأ للناس أنها قادرة على أن تميز الشيء من نفسه، وهى تفعل هذا معتمدة على مهارة الإيهام بأن الشيء غير نفسه وأن نفسه غيره!! ومع هذا فإنها كانت أقرب ما تكون إلى العجز عن تصوير المشاعر.. فقد كانت إذا أرادت أن تعبر عن التواضع أظهرت الاستعلاء، وإذا أرادت أن تعبر عن الاستحياء أظهرت النفور، وإذا أرادت أن تعبر عن الامتنان للحديث الموجه إليها أظهرت الرغبة فى عدم الاستماع.

وقد حدث أنه فى حفلة أقيمت لتكريمها كان وجهها لا يكاد يعبر عن أية سعادة، بل كاد أن يعبر عن أسى حقيقى، وكانت شاردة وكأنها تنتظر حكم المحكمة عليها، وحين بدأت فى إلقاء كلمتها كانت تبدو ساهمة وكأن هذا الحفل أقيم لألد

أعدائها.. وكانت تتحدث عن امتنانها للتكريم بامتنان حقيقى، ولكنها كانت عاجزة عن أن تصور هذا الامتنان حتى بدت وكأنها تستعلى على هذا التكريم الذى تعودت عليه، وحين تحدثت فى كلمتها عن الواجب الذى قامت به، آثرت أن تتحدث عنه بضمير الجماعة من باب التواضع وتعبيرا عن اعتقادها بأنها فرد من المجموع الذى يجب أن يقوم بما قامت به..

وهكذا جاء خطابها وكأنها تحدث مستمعيها عن الواجب الذى لم يقوموا به على الإطلاق، بينما كانت تريد أن تقول إنها لم تقم بعد بكل ما تعتقد أنه واجب عليها.

وكانت فى تلقيها تحية الجمهور حريصة على ألا تثقل على هؤلاء المحتفين بها بأن يبذلوا الدقائق القليلة فى تحيتها، وكانت تقشعر بسرعة لكلمات التكريم والترحيب، وكانت تستدعى النهايات بطرق دبلوماسية مختلفة كأن تلتفت إلى الشخص التالى فى طابور المهنئين، أو أن تسرع بمقاطعة محدثها بكلماتها الممتنة الشاكرة.. ولكنها كانت تؤدى كل هذا بطريقة لا تخلو بالطبع من اعتزازها الأصلى بشخصها النبيل وخلقها القويم..

وهكذا كانت صاحبتنا تبدو مستعلية تمام الاستعلاء بينما هى فى قمة تواضعها العميق!!.

(٢)

وحين كانت تستمع إلى المديح الذى تحدث به مَنْ سبقوها إلى الحديث، فإنها كانت تبدو وكأنها تفكر فى مسئوليتها عن الحفاظ على نفس المستوى من الجهد المستحق للمديح، وهكذا فإنها كانت تقود عقلها إلى تفكير عميق تنجذب من جرائه عضلات وجهها ونظرات عينيها إلى الآفاق البعيدة التى تستطلع فيها قدرتها على الابتكار والتجديد والتطوير فى مستقبل أيامها فى هذا النشاط الذى تنجزه.

وكانت فى جلستها بين رؤساء الجلسة تحتفظ بالتقاليد الكلاسيكية فى الارتفاع بقامتها من أجل احترام الحضور، وكان الجالسون إلى جوارها يعبرون

بجلساتهم عما لابد لهم من التعبير عنه من وصولهم إلى حالة الإرهاق القصوى.. فى حفل أقيم فى أول المساء بعد يوم شاق من أيام المدينة التى تقتل سكانها ورواداها بكثرة عشاقها وسكانها.. وهكذا فإنه فى جو متنازل عن احترام الجمهور منذ زمن بعيد كان التزامها يبدو فى بساطة شديدة وكأنه نوع بارز ومتميز من أنواع الاستعلاء المحسوب.

(٤)

ومع هذا كله فإنها كانت قادرة على أن تبدو للناس فى الصورة التى يريدونها هم بحكم تصوراتهم القاصرة عن فهم هذه الشخصية النادرة فى زمنهم المتأخر.. فقد كانت جميع تعبيراتها عن مشاعرها أقرب إلى الحياد السلبى منها إلى الحياد الإيجابى.

وعلى سبيل المثال فقد كانت عباراتها القصيرة ولفتاتها السريعة ونظراتها الهادئة تمنع الجمهور من أن يتخذ من أى منها دليلا على مايريد ، أو بعبارة أدق كانت تتيح للجمهور أن يصورها كما يريد لأنه ليس هناك ما يؤكد أو ينفى مزاعم الحضور أو ما ينبئ عن استشراء دليل عميق على ظاهرة عابرة.. وهكذا كانت تصرفاتها الدبلوماسية البروتوكولية المحسوبة تتيح للمجتمع الجديد أن ينظر إليها ليجد فيها صورة من صور العظمة التى غابت عن المجتمع، وإن كان فهم هذا الجمهور لهذه العظمة مخالفا لجو هذه العظمة نفسها.

(٥)

كان معاصروها يدركون عظمتها، ولكنهم لم يكونوا يدركون حقيقة هذه العظمة التى كانت أعظم من تصوراتهم المطلقة.. ولم يكن الجمهور وحده هو المذنب، بل كانت هى الأخرى مسئولة بقدر أكبر عن هذا الفهم الناشئ عن عجزها عن تصوير مشاعرها بصورة أكثر تعبيرا عن حقيقة هذه المشاعر.

وفى واقع الأمر فإنها كانت تبدو وكأنها لم تكن مذنبة، وإنما كانت مسئولة فحسب!!

وعلى حين كان الجمهور فى معظمه مذنبا لأنه لم يكلف نفسه عناء البحث عن حقيقة المشاعر، فإنها لم تكن - بحكم حياتها الماضية - قادرة على التعبير عن حقيقة المشاعر.

وربما كان هذا هو السر الأكبر فى حياتها التى حفلت بالهدوء وبالاضطراب فى الوقت ذاته.. بالنجاح الظاهر وبالفشل الكامن.. باللمعان المستمر وبالخمول المستديم.. بالحركة الدائبة والسكون القلق فى الوقت ذاته..

وقد شاءت لها ظروفها أن تبدأ حياتها «الاجتماعية» مبكرة جدا.. لكنها على الرغم من ذلك لم تبدأ حياتها «الذاتية» إلا عن قريب..

وعلى حين أنها أسعدت كل مَنْ حولها، فإنها لا تزال حتى يومنا هذا عاجزة عن أن تقنع نفسها بأن من حقها أن تبحث لنفسها عن السعادة، وعلى الرغم من أن العاجزين فى أغلب الأحيان يلجئون إلى مبرر أو أكثر ليلقوا عليه باللوم، فإنها كانت لا تعترف بالمبررات، ولكنها كانت تقيد نفسها بما هو أكثر من كل القيود والسدود والحدود، وهو ظنها أن قدرها لن يتيح لها اليوم ولا غدا ما حرمها منه بالأمس وأمس الأول.

(٦)

كانت عيناها ترفضان الضوء الطبيعى لأنها كانت تعتقد أن واجبها أن تبصر للآخرين لا لنفسها.. وكان أنفها يتأبى على الهواء المنتشر فى الجو، لأنها كانت تعتقد أنها خلقت لتنقى هذا الهواء لغيرها لا لتستمتع به وبنقائه أوبترابه فى الوقت ذاته.

وهكذا كانت كل حواسها مستكينة لعقيدة أنها خلقت كى تكون فى خدمة المجموع، وألا تكون أداة لصاحبتها المعطاءة فحسب.

وبمضى الأيام تحولت هذه العقيدة إلى جزء جوهرى من شخصيتها، بحيث أصبح من المستحيل عليها أن تتصور نفسها قادرة على أن تعبر عن أى من المشاعر التى تجيش بها نفوس الأبرار، أو نفوس الخاطئين. فقد كانت لأكثر من

ربع قرن قد كثفت كل إحساساتها وإرادتها أن تعطى وأن تعطى للنهاية دون أن تشعر إلا بأنها تؤدى بذلك واجبها الأول والأخير، ... بل الوحيد كذلك.

ولكن الأيام لا تعترف بمثل هذا الثبات المطلق فى المشاعر ولا فى التصرفات، وهكذا فإنها أفاقت على حب يعتصرها اعتصارًا، وحاولت الفكاك والهروب بأقصى ما كان يمكنها ولكنها لم تستطع، ولم يكن لابد من الاستسلام ولكنها لم تستطع الاستسلام أيضا..

كانت تحاول الإقبال فلا تلبث أن تدبر، وتحاول الإدبار فلا تلبث أن تقبل، وكانت تحاول الهدوء فيغلبها التفكير، وكانت تبدأ التفكير فلا تنتهى إلى قرار، ولم يكن أمامها بد من أن تترك نفسها للحب لأنه بقوته وقسوته لم يكن يستطيع أن يتركها تتمرد عليه.

(٧)

أما هو.. فكان قد عرف الدنيا وعرف الحب، ولكنه لم يكن يدرى أن بإمكانه أن يرى مثل هذا النموذج ذات يوم، وكان يبذل من نفسه فى كل لقاء به ما كان كفيلاً بأن يجعلها تهيم به على الرغم من تحفظها الظاهر والخفىّ، وكان يعتبر هيامها هذا الذى لم يكن يتوقع أن ينجح فى الحصول عليه بمثابة أكبر دافع له لأن يحافظ عليها ولأن يحافظ عليها لنفسه.

وفيما بعد مرات عديدة فإنه أصبح يستعذب هذا الجهد الذى يبذله فى إذابة الجليد؛ لأنه كان يتمتع بكل ما وراء الجليد من متع لم يعرف طريقه إليها من قبل.

كان يفنى نفسه وهو يسترضيها ، ولكنه كان يجدها إذا ما رضيت تفنى نفسها لتستبقيه، ولم يكن ليحلم بأن يجد هذا الذى يجده منها فإذا به يجده فى كل مرة.

كانا يهيمان ببعضهما حتى يستحيل على كل منهما أن يتصور للآخر حياة بدون الآخر.. وكانت هى أكثر منه إيمانا بهذا المعنى، ولهذا السبب فإنها ظلت على نحو ما كانت: شاردة على الدوام.

الباب الخامس

تصويرات

19 تتمنى لو أن الدنيا بوفيه مفتوح

(١)

لم تكن طموحة إلى حد كبير، ولم تكن طامعة بالدرجة الملحوظة، ولكنها كانت تريد من الدنيا أن تكون لها على هيئة البوفيه المفتوح، حيث يتاح لها أن تنتقى كل ما تشاء فى الوقت الذى ينتقى فيه الآخرون صنفا أو صنفين من الطعام المتاح.

كانت تتعمد أن تأخذ فى أطباقها كل شىء حتى تلك الأصناف التى تكرهها كراهية التحريم والتى هى واثقة أنها لن تمد إليها يدًا، فإذا سألها زوجها عن السر وراء ذلك قالت إنه حقنا وليس من الإنصاف التنازل عن حق!!

وكانت تردف أنه ليس من اللائق أن يلومها على تمسكها بحقها. وكان هو يمضى الليالى يتأمل فى تفكيرها هذا، ولكنه كان يقنع نفسه بأن الأمر لا يعدو رغبة شبه مشروعة فى الاستمتاع بكل ما هو متاح.

وكان يعود بذاكرته إلى أيامهما الأولى قبل الخطبة والزواج، فيتذكر أنها كانت حريصة على قضاء شهر عسل فى الخارج، وعلى إقامة فرح فى فندق من ذوى النجوم الخمس، ولأن مستواه المادى فى ذلك الحين كان لا يسمح له بأن يقدم لها ما هو أقل من ذلك، فإنه لم يفكر يومها فى موقفه لو لم يملك القدرة على تلبية طلباتها.

(٢)

وكان يعود بذاكرته إلى فترة الخطوبة التى لم تطل ويسترجع شريط هناءته بجمالها، ولكنه يجد فى هذا الشريط كثيرا من المعانى التى لم يلتفت إليها فى وقتها بحكم السعادة الطاغية التى كانت تجتاحه وهو مقبل على دنياه الجديدة معها.

هو يتذكر الآن أنه كان قد سألها هل تحب أن تكون هديتها فى يوم الاحتفال بخطوبتهما من الألماس أم من الذهب؟ فقالت بل من الاثنين. وسألها هل تريد أيضا شيئا من الفضة، فقالت: وهل تظن أنه يليق بك أن تقدم شبكة ليس فيها شىء من الفضة، ويومها تعجب الصائغون... واضطر أن يصحبها مع مندوب من أحد هذه المحلات إلى مشغل فضة لكى تنتقى منه شيئا... أى شىء!!.

ولم يكن يومها قد توصل فى فهمه لشخصيتها إلى نظرية البوفيه المفتوح!!.

وتذكر أيضا مدى لجاجها مع وكيل الفنانين المكلف بإعداد حفل الزفاف، وهى مصممة على أن يتضمن البرنامج جميع ما فى جعبة كل الفنانين، ووكيل الفنانين يقول لها إنه لا يمانع ولكن الوقت لا يكفى وستكون النتيجة أن تتداخل أوقاتهم مع بعضها، وليت الأمر ساعتها يقف عند انسحاب بعضهم وبقاء البعض الاخر، بل

إنه ربما يدفع بمعاونى الفنانين إلى الخلاف والاشتباك وهو فأل سيء فى حفل عرس.. ولم تقتنع إلا بعد أن أقنعها وكيل الفنانين بأنه سيضمن لها شئين: الأول أن يكون عدد الفرق التى شاركت فى إحياء ليلة الزفاف هو أكبر عدد من الفرق شهدته حفلات الزفاف فى مدينتها حتى ذلك اليوم، والثانى أن يستعين بكبريات الفرق الموسيقية التى لا تحضر فى العادة حفلات الزفاف بكامل هيئتها على أن تحضر كاملة الهيئة.. والآن فقط يذكر لماذا وكيف كانت حريصة، بينما هى إلى جواره على «منصة العروسين» على أن تتأكد بنفسها من عدد أفراد هذه الفرق الموسيقية!!.

(٣)

كانت حالة اليسر التى رُزق بها صاحبنا تجعله لا يضطر إلى التفكير فى معنى هذا الإسراف المتواصل، وكانت نفسه الهادئة تقنعه بأنه مادام الستار موجودا فلا داعى للقلق.

ولكن نظرية البوفيه المفتوح بدأت تزعج الزوج حينما أصبح رصيد وقته لا يكفى ما كان رصيد المال كفيلا به.. فها هى ذى زوجته تضطره فى الليلة الواحدة إلى أن يبدأ السهرة بزيارة بعض أقاربها، وأن يثنى بحضور حفل من الحفلات التقليدية التى تقام لإحياء أعياد الميلاد، وأن يختم بحضور عرض مسرحى.

ولم يكن فى وسع الزوج أن يؤدى هذه الواجبات الثلاثة بعد يوم حافل بالعمل يبدؤه فى العادة فى السابعة صباحا ثم إذا هو فى نهاية اليوم فى حاجة إلى الراحة حتى يبدأ يوما آخر فى السابعة صباحا.

ولكنه كان يجيد التصرف فى لباقة معكوسة، فقد كان لا يمانع نفسه فى أن تمضى فى النوم أثناء الزيارة الأولى، وهكذا كانت تجد نفسها مضطرة إلى الإذعان.. وكان يسعد بهذا الإذعان مهما ارتبط به وأعقبه من غليان.

.....

وطالت حياتهما على هذا النحو

إلى أن جاء يوم أحس الزوج فيه بأن صاحبته تنهى لقاءها به على نحو ما تفعل بالصنف الأول من أصناف البوفيه المفتوح!!

(٤)

كان من الصعب عليه أن يتصور أن نظرية البوفيه المفتوح قد امتدت حتى شملته هو نفسه.. وكان من الصعب عليه أن يعذب نفسه بالشكوك.. وكان من الصعب عليه أيضا أن يفرّط فى حبه الأول والأخير.

وأغلق على نفسه الباب وأخذ يبكى كما لم يتصور أن أحدًا قد بكى من قبل، وفى الأيام التالية تكرر بكاؤه وكان يبكى حتى تتحجر الدموع فى مقلتيه فيقوم إلى الوضوء فإذا سجد بكى، وكان الضغط يزداد فى رأسه وهو ساجد حتى يصبح غير قادر على أن يعتدل من سجوده فيتقلب فى سجوده وهو يبكى كما لم يتصور أن أحدًا يمكن أن يبكى فى المستقبل على هذا النحو.

كان يذكر نفسه بتقاليد آبائه وأخواله الذين يتزوجون مرة واحدة ولا ينفصلون ويجد نفسه على وشك أن يحطم هذه التقاليد، فينزعج من أن يجىء الاستثناء من ناحيته، وكان ينظر إلى ولده القادم من خلال بطن زوجته الحامل فيبكى له.. ويبكى عليه.

وكان يتأمل مدى إخلاصه لها وهو الإخلاص الذى لم ينقطع ولم يتبدل ولم ينتقص.. ثم يتذكر ما يبدو له من أنه لم يعد يمثل بالنسبة لها إلا صنفا من الأصناف المتاحة فى البوفيه المفتوح.. فيبكى ما شاء له الله أن يبكى.

(٥)

وظل طيلة شهرين كاملين يراود نفسه ويراجعها هل يخبرها بوساوسه أم يسرحها بمعروف.. ولم يكن فى وسعه أن يصل إلى قرار.

كانت نفسه كبيرة .

وكانت أخلاقه سامية إلى الحد الذى لا يسمح له بأن يجرح المخطئ مهما كان الخطأ.. كان يحمد الله أنه ليس بالمخطئ، وكان هذا يمثل له مصدرا للرضا لا حدود له.

وكانت نفسه كذلك أكبر من أن تلعب دور المحقق فى جريمة هو أحد أطرافها.. حتى وإن كان هو المجنى عليه!!.

وكان عقله أكبر من أن يظن أن فى وسعه إقناع مثلها بمدى الجرم الذى ترتكبه مادامت قد ارتضت لنفسها أن تمضى فى طريق الندامة.

وكان قلبه، قبل ذلك كله ، أضعف من أن يواجه مجرما بجريمته، وكانت مشاعره أرهف من أن تتربص به ليريه أنه ضبط وهو متلبس.

ولكن الحياة كشأنها دائمًا لم تكن تمضى تبعا لقلبه الضعيف، ولا لمشاعره المرهفة، ولا لعقله الكبير، ولا لنفسيته السوية.. ولا لشخصيته القوية.

(٦)

وأبت الأقدار إلا أن تريه بمحض الصدفة زوجته وهى فى طريقها إلى الخيانة.. وفى لمح البصر كانت قد فقدت أعصابها إلى الحد الذى لم تسيطر فيه على عجلة القيادة فاضطر إلى أن ينبهها بصوت عال أصدره من سيارته ومضى لحال سبيله!!

أما هو فقد أنزل الله عليه سكينة حفظت عليه عقله من الجنون.

(٧)

ولم تعد فى ذلك اليوم فى ذلك اليوم إلى المنزل وإنما عادت إلى منزل والدها، وبعد ثلاث ساعات كانت تتصل به لتبدأ معه حوارا بصوت مستكين. وقد أجادت اختيار البداية فسألته لماذا كان صوت آلة التنبيه الصادر عن سيارته عاليا جدا بعد ما قابلها فى الطريق ولم يزد على أن قال إنه عاد لتوه من ورشة الكهرباء، حيث أصلح الكلاكس وأعاد تركيب الضفيرة الثانية منه التى كانت معطلة منذ عامين!!.

ووجمت لمدة دقيقتين، ثم قالت إنها كانت تظنه غاضبا، لأنه رأى رجلا آخر معها.. وفى بساطة شديدة قال لها إنها حرة فى نفسها وفى شرفها تفعل فيه ما تشاء؛ لأنها بلغت سن الرشد منذ زمن بعيد، كما أنها بلغت سن التكليف منذ زمن ليس بالقريب!!.

واطمأن منها على والديها وعلى إخوتها الصغار، ثم إنه تعمد أن يبث فى قلبها طمأنينة لا تستحقها فسألها عن موعد وصولها إلى بيت أسرتها وهو يعرف أنها لا تجيب إلا بالكذب. ولكنه تظاهر بالتصديق.

بعد ساعتين كان «الآخر» معها على التليفون يلومها على أن زوجها أصدر أصواتا مزعجة بآلة التنبيه حين رآهما.. وتمادى الآخر فى اللوم والدلال حتى دفعها إلى القرار الذى لم تطلعه عليه.

فى الصباح الباكر انتبهت أسرتها على صوت الشغالة وهى تصرخ من هول المفاجأة.. فقد وجدت سيدتها الصغيرة وقد أسلمت الروح بعدما قطعت شرايين يدها اليمنى.

وإلى جوارها كان هناك مظروف مغلق كتبت عليه رجاء ألا يفتح إلا بمعرفة زوجها.

وفى المظروف ورقة صغيرة كتبت فيها بخط مرتعش: لا تسامحنى.. لأنى لم أتعذب إلا بتوالى تسامحك مرة بعد مرة.. وكفانى عذابا!!!.

(٨)

أما هو فكان كلما تذكرها استمطر لها الرحمات لسبب واحد قد لا يدرك الناس مغزاه ولا جدواه ولكنه كان يقدرها من أجله كل التقدير..

كان يسامحها؛ لأنها رحمت جنينها ولم تجن عليه كما تفعل أمهات كثيرات.

وأما الناس فإنهم كانوا يتداولون القصة فى أسف شديد على هذه الطبيبة التى أرادت علاج نفسها فى منتصف الليل فماتت، ذلك أن الزوج استطاع بطرق كثيرة أن يثبت للطب الشرعى أن زوجته كانت قد بدأت تعانى من توكسيما الحمل حيث يزداد الضغط، وأنها لجأت فى تلك الليلة إلى أن تفصد بعض دمها ليقل الضغط، لكنها لسوء الحظ قطعت الشريان بدلا من أن تقطع الوريد!!

ومنذ ذلك اليوم أصبح أساتذة الطب فى المدينة التى شهدت هذه الواقعة يحذرون طلابهم من أن يلجئوا إلى عملية الفصد كعلاج لارتفاع ضغط الدم حتى ولو كان فى حالة الحمل، حتى حين يُخشى من الآثار الجانبية لكثير من العقاقير الخافضة للضغط.

ومن العجيب أن أحدا من الناس لم يسأل نفسه لماذا لم تضغط هذه الزوجة على ذلك الشريان الممزق حين رأت اندفاع الدم منه؟.

أما هو فقد كان يستيقظ من آن لآخر على كابوس تقول فيه: لا تسامحنى.. وتنهره نهرًا يوقظه جزعًا فزعًا هلعًا.. لكنه كان عندما يستفيق يحمد الله. ولما تكرر ألمه من الكابوس وزاد عنفه وبدأ يشكو من اضطراب نومه وحياته سأل زملاءه من أساتذة الطب النفسى النصيحة فكانوا يحارون من تحويراته للقصة.. وكانوا يجيبونه بردد مبهمة تناسب الإبهام الذى فرضه على قصته.

لكن واحدًا منهم استمع إليه واستدرجه مرة بعد أخرى حتى عرف الحقيقة كاملة وأجابه بأنه لا حل لمرضه إلا أن يعرف الناس الحقيقة..

لكنه لا يزال أعجز من أن يعالج نفسه.

20

المعجـزة !!

(١)

لم يكن يعنيها من الدنيا غير نفسها، ولم تكن فريدة فى ذلك، فإن المرء يقابل كثيرا من الناس بهذه الصفة، ولكن صاحبتنا كانت قد تمادت فى هذه الصفة حتى أصبحت تعتقد أن الدنيا كلها خلقت من أجل أن تخدمها فحسب.

فأبوها لم يفعل شيئا عظيما فى حياته غير إنجابها، أما أخوتها الناجحون من الذكور والإناث فقد أضاعوا عليها الاهتمام الذى كان حريا بالأب أن يوجهه تجاهها، ولأنها لم تكن الكبيرة بين إخوتها فإنها تعتبر أن الكبار الذين ولدوا قبلها قد جاءوا بطريق الخطأ لأن أباها قد تزوج مبكرا خمس سنوات عن موعده، ولو تزوج فى موعده «المضبوط» لكانت هى أول أولاده، أما إخوتها الصغار فقد جاءوا إلى الدنيا لسبب واحد، هو أن أبويها كانا يظنان نفسيهما قادرين على تحقيق معجزة أخرى كتلك التى حدثت بولادتها.

أما زوجها فلاشك أنه تمتع بحب لا مثيل له من قبل والدته، وإلا فكيف رزق بها إن لم يكن بدعاء الأم، وهذه الأم ماتت مبكرا لأنه لم يكن لها مكان فى مستقبل حياة ابنها الذى كان مكتوبا له أن يحظى بها وأن ينفرد بهذا الشرف دونًا عن الناس جميعًا.

كان زملاؤها يستمعون إلى نماذج مضخمة من هذه المعتقدات المتكررة منها فى كل حين، ولكنهم لم يكونوا يدرون أنهم سيصبحون بدون قصد ولا رغبة عناصر جديدة فى منظومة الكون المسخر لخدمة صاحبتنا. ولكنهم اكتشفوا، الواحد بعد الآخر والواحدة بعد الأخرى، أنهم كانوا بمثابة حلقات مفقودة فى هذه المنظومة التى تخدم صاحبتنا المعجزة.

(٢)

حدث أن طلبت صاحبتنا من صديقة لها أن تقطع علاقتها بإحدى رئيساتها غير المباشرات فى العمل، لا لشىء إلا لأن هذه الرئيسة كانت معروفة بأنها على علاقة حسنة بشخصية مهذبة تغار منها صاحبتنا ..

ولم تكن الصديقة تفهم مثل هذا الطلب الغريب، ولكنها لم تجد مانعا فى وقت من الأوقات أن تنفذ لصاحبتنا هذه الرغبة، وبخاصة أنه لن تنشأ مشكلة خطيرة نتيجة لهذا، فالرئيسة سيدة مشغولة بما فيه الكفاية، ولم تكن علاقة الصديقة بها تزيد على مجرد السلام والتحيات مرة كل أسبوع.

وكانت صاحبتنا تطمئن فى كل يوم تقريبا على أن صديقتها قد قطعت علاقتها برئيستها هذه ، وكانت تمضى إلى ما هو أكثر من ذلك، فكانت تستطق صديقتها اللعنة على رئيستها على نحو ما يروى من أن الأمويين كانوا يطلبون من أنصارهم لعن الإمام على كرم الله وجهه على المنابر.

وذات يوم كانت صاحبتنا فى زيارة للمصلحة الحكومية التى تعمل فيها صديقتها، وفوجئت الصديقة بسيارة المعجزة فى الفناء وتوقعت الصديقة أن تمر المعجزة عليها، ولكنها للأسف لم تفعل.

وانتظرت الصديقة من صاحبتنا المعجزة أن تخبرها أنها كانت ذلك اليوم فى مصلحتها، ولكن المعجزة لم تخبر صديقتها على الرغم من أنها استمرت تحادثها تليفونيا لمدة ساعة فى ذلك اليوم، وساعة ونصف الساعة فى اليوم التالى.

وفى اليوم الثالث لم تجد الصديقة بدا من أن تسأل المعجزة: هل كانت فى مصلحتها منذ يومين؟ وهل كانت عند الرئيسة كما جاء فى حديث بعض الزميلات اللائى كن يتعجبن من كمية التملق التى بذلتها «المعجزة» من أجل إرضاء «الرئيسة».

وفى بساطة شديدة أجابت المعجزة أنه لا ينبغى للأنثى الذكية أن تقطع خطوطها حتى مع أعدائها.. لأنها ربما تحتاجهم فى لحظة من اللحظات..

وأصيبت الصديقة بدهشة شديدة من حديث المعجزة الذى كان درسا رائعا من دروس المنطق الانتهازى، ولكنها للأسف الشديد كانت عاجزة عن أن تسأل المعجزة عن السبب الذى منعها من زيارتها ولو لدقيقة واحدة فى ذلك اليوم، وبخاصة أن المسافة بين المكتبين لا تزيد على عدة أمتار.

(٣)

ووضعت صديقتها سماعة التليفون وهى تغلى.. وحاولت النوم فلم تستطع النوم يوما ويومين، وحين ذهبت إلى طبيبها - ولم يكن للأسف طبيبا نفسيا بل كان طبيب عائلة تولاها بالرعاية منذ كانت طفلة - لم يفعل أكثر من أنه طلب إليها أن تطلب إلى واحدة أو أكثر من صديقاتها اللائى يعرفن المعجزة أن يسألن المعجزة عن السبب.

وجاءتها الإجابات الثلاث الآتية:

بعد نصف ساعة طلبتها الصديقة الأولى وقالت لها إنها عاتبت المعجزة على تصرفها، ولكن المعجزة أجابتها بأنها لم تكن تدرى هل كانت الصديقة فى ذلك اليوم فى المصلحة أم لم تكن..

وبعد يومين أخبرتها صديقة ثانية بكل أسى أن المعجزة قالت لها: ولماذا أمرُّ على فلانة؟ وهى ملك يدى.. ولست فى حاجة إلى تحسين علاقتى بها؟ أنا ليس عندى وقت للمجاملات الفارغة، إنما كنت أبحث عن مصلحتى المستقبلة ليس إلا!!.

وبعد أسبوع جاءها الرد الثالث وقد كلفت المعجزة صديقة مشتركة بتبليغها نصه كما هو بدون تلطيف وكان نصه: «وهل أنا من الغباء بحيث أبدو أمام الرئيسة وقد جئت للمصلحة لزيارتها ولزيارة غيرها.. لابد أن تعرف أنى ما جئت إلا لها فقط».

(٤)

كان الصداع يتزايد على الصديقة يوما بعد يوم ولم تفلح الأدوية فى التغلب عليه، ولاحظت والدة الصديقة هذا الهم الذى يعتريها، وسألتها فروت لها ، ونصحتها والدتها بأن تحادث «المعجزة» وتسألها السبب الحقيقى فقد تكون الردود الثلاثة مبالغات نسائية.. لكنها لم تكن تجد قبولاً للفكرة وضغطت عليها الأم إلى حد أن طلبت المعجزة وكلمتها ثم ناولت السماعة لابنتها التى فوجئت بوابل من التعنيف والتوبيخ القاسى لا لأنها تجرأت وشكت المعجزة للناس على مثل هذا الموقف المريب، وإنما لأنها ظنت نفسها أهلا لزيارة المعجزة لها !!

.....

فيما بعد سنتين ونصف السنة، التقى صديق مشترك للمعجزة ولصديقتها بالمعجزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فسألها عن صديقتها من باب قتل الوقت، فطلبت إليه أن يجلس لتقص عليه القصة، وكانت المعجزة للأسف هى التى قصت هذه القصة التى لا يمكن للقارئ طوال قراءتها أن يتخيل إلا أن الصديقة هى التى قصتها..

ولكن الحقيقة، التى قد لا يصدقها القارئ أبدًا، كانت أن المعجزة هى التى قصتها بكل وضوح، ثم أردفت فى قرف تقول للصديق:

ومن يومها لم تكلمنى.. على كلٍ.. هى الخسرانة!!.

21 وعاشت تسأل حتى اليوم

(١)

بدأت هذه القصة منذ عشر سنوات بالتمام والكمال.

كانت صاحبتنا تشعر بسعادة بالغة أنها أدارت رأس الزميل الوسيم الذى تقدم لخطبتها بعد فترة قصيرة جدا من تعرفه بها، وكان هو الذى صمم على أن يفاتح أباها فى خطبتها، رغم أنه لم يكن فى حاجة إلى هذه الخطوة لكى يلقاها ويقابلها، ويمضى معها كثيرا من الأوقات الهانئة، وحين التقى بأبيها صرح له بأنه لن يسأل عن ابنته ولا عن عائلتها أبدا.. وتعجب الأب وتعجبت الفتاة.

وكانت تستغل ذكاءها فتعمد إلى ذروة ساعة الهناءة لتسأل خاطبها ماذا لو اكتشف فجأة أن لها ماضيا؟ ويجيبها بأنه أعقل من أن يسأل عن الماضى، إنما يهمه هو الحاضر والمستقبل، وتعود لتسأله هل حقيقة لن يسأل عنها فيؤكد لها أنه ليس فى حاجة إلى السؤال!.

وتطرق الحديث بهما ذات مرة إلى أفراد عائلتها، فإذا بإحدى خالاتها تعمل تحت رئاسة أحد أقربائه المقربين، ولكنه أيضا ولسبب غير معروف لم يشأ أن يسأل عن هذه الخالة!.

(٢)

وكانت تتعجب من هذا السلوك الواثق إلى هذا الحد، ولكنها لم تكن مرتاحة تماماً إلى هذا النوع من أنواع السلوك وربما كانت أقرب إلى القلق منها إلى الرضا .. وعبرت ذات يوم عن هذا المعنى، فما كان منه إلا أن أخبرها بلهجة رقيقة حانية أنه ليس على استعداد لأن ينزل بمعتقداته فى الحياة إلى المستوى الذى تعوده الناس من حولها من أجل أن يستريح بالها.. ولكنها لم تهدأ.. وطلبت إلى والدها أن يطلب إليه أن يسأل عنهم، وفاتح الأب خطيب ابنته فى هذا الموضوع، فسبقه إلى القول بأنه لا يجد ارتباطا شرطيا بين سؤاله عنهم وسؤالهم عنه، وأنه فى واقع الأمر لا يمنعهم من السؤال عنه فى مقابل امتناعه عن السؤال عنهم!!.

وبحنكة الشيوخ قال الأب لابنته وهو يروى لها تفاصيل حوارهما: فإذا كان الأمر كذلك يا ابنتى فإننى لا أرى داعيا للسؤال عنه!! إلا أن يكون هذا السؤال استيفاء للشكل الذى يحفظ كرامتنا لكى يقال إننا سألنا عنه.. وأخذت صاحبتنا الخيط من أبيها وأخذت تضخم الموضوع لوالدتها، إلى حد أن قالت لها إنهم إذا لم يسألوا عن حبيبها، فإنهم يكونون بهذا يبيعونها «بالرخيص»!.

ولم تكن الأم بحكم ثقافتها وخبرتها فى الحياة مرتاحة إلى هذا المنطق.. كما لم يكن الأب هو الآخر مرتاحا من قبل.. كانا يطلبان إلى ابنتهما التروى حتى يأتى سؤالهم فى سياق حديث.. وليس سؤالا على طريقة إدارات المباحث المفاجئة.. وكانا يعملان فى خارج وطنهما، فكانا يعتقدان أن سؤالا سريعا أو مطولا بالتليفون الدولى ليس هو الأمر اللائق فى مثل هذه الأحوال.

(٣)

ولم يكن بدٌ أمام صاحبتنا أن تتسأل.. ولجأت إلى أحد المعيدين الذين درست على أيديهم فى سنة سابقة.. وكان لحسن حظها على علاقة زمالة بصديق مشترك لخاطبها الموعود.

وبعد أسبوع كان الصديق يلمح للخاطب أنه قال فى حقه كلامه طيبا.

وبعد أسبوعين كان صديق ثان يلمح للخاطب، وبعد يومين آخرين كان زميلان فى العمل ينقلان إليه مشاعرهما التى أبدياها فى غيابه.

وعلى الرغم من هذا كله كانت المخطوبة قلقة معذبة تعانى من حالة انفعالية بدون مبرر.

وحضر أبواها من السفر وطلبت من خاطبها أن تضع معه بعض الرتوش قبل أن يتصل بـ أبوها ليدعوه إلى بيتهم، فإذا بها تفاجأ لأول مرة بأنه يتحدث إليها بجفاء شديد، وكانت قد تعودت منه أن يعطيها الحق فى أن تسأله عن السبب وراء أى مشاعر يبديها ولا تعجبها، فلم يجبها بأكثر من الاعتذار.

وحاولت أن تستفزه فلم تفلح.

ثم حاولت أن تسترضيه فأبدى الرضا من دون أن يرضى... واعتذر!

وعاشت أياما صعبة تمنعها كرامتها من أن تتصل به، ولكن تفكيرها لم يهتد إلى السبب وراء هذا الذى اعتراه.

(٤)

كانت تفكر أن تعتذر له عن سؤالها عنه، فتجد نفسها عاجزة عن هذا الاعتذار، لأنها كانت تود أن تناقش معه النتائج السلبية التى أسفر عنها السؤال!!

ولكن هل تتاح لها فرصة بعد اليوم لتناقشه؟.

لم تكن قد وصلت إلى أية درجة من درجات الندم لأنها كانت تظن أن ما فعلته لا يخرج عن دائرة الصواب، فهى قد لجأت إلى المعيد الذى استقصى لها ونقل إليها المعلومات التى حصل عليها!

وذات يوم دقّ جرس التليفون، وكان هو المتحدث، ولم تكن تصدق أنه يمكن أن يتحدث مرة أخرى. وأسرعت تطلب إليه ألا يكلمها ثانية، وأخبرته كذلك أنها خُطبت بالفعل منذ أسبوع واحد فقط وعنفته فى شىء من الود على أنه روى بعضا من أسرارهما المشتركة لذلك الصديق الذى كان «معيدها» قد توجه إليه بالسؤال.!!!

وفى هدوء شديد طلب صاحبنا من فتاته السابقة وعداً بأن تعتذر له ـ ولو بعد عامين ـ إذا عرفت أنها كانت مخطئة فى هذا التعنيف!.

وفيما بعد أسابيع قليلة كان صاحبنا يستمع إلى همس يدور عن معيد خدع طالبته، فساعد على الإسراع بتزويجها من نصاب لتكون مطلقة بأسرع ما يمكن ، وعند ذاك يستطيع أن يقضى منها وطرا، ولم يكن من الصعب على صاحبنا أن يدرك مَنْ هى الفتاة ومَنْ هو المعيد؟.

ومن الطريف، والمتوقع أيضًا، أنها كانت قد سألت عن الخاطب الجديد عن طريق المعيد السابق، فجاءتها الإجابة صافية كاللبن الحليب ومشرقة كشمس الضحى، هكذا قالت لأبويها ثم قارنت لهما بين المعلومات التى وردت لها عن الخاطب الجديد والخاطب القديم، فقالت: إن هذا متواضع والأول مغرور، وهذا مستكين والأول مسيطر، وهذا سهل والأول صعب.. وهكذا.

وكان الأبوان مع هذا قلقين فقد رأيًا هذا وذاك.

(٥)

وبعد أن أفاقت الفتاة من الصدمة بشهور، اتصلت بخاطبها الأول فاعتذرت له وألانت القول وحكت له القصة على طريقتها، ثم سألته هل من حقها أن تعرف لماذا كان حريصا على أن ينبهها إلى أنها سوف تعتذر له بعد عامين؟.

وهل كان يدرك أبعاد القصة كلها؟ وكيف استطاع أن يدركها مبكرا؟.

وكانت المفاجأة أنه لم يكن يعرف أيا من هذا كله، مع أنه اعترف لها أيضًا أنه لم يكن يستبعد وقوعه بحكم المنطق، حين يضع الإنسان قراراته رهن معلومات تأتيه من مصدر ذى مصلحة ما..

وعادت لتسأله: هل لاحظ أن الأسئلة التى كانت توجه إلى معارفه كانت تحرص على الحصول على معلومات عن عيوبه، فأجابها بأنه لم يكن حريصا على معرفة أية جملة فى الحوار الذى دار حول شخصه.

وعادت لتسأله: هل كان يتوقع منها الغدر؟ أو هل كانت له تجربة مشابهة من قبل؟ فأجابها بالنفى.

ولما صممت على أن تعرف ما الذى دفعه إلى أن يتخذ ما اتخذ من مواقف، لم يكن جوابه إلا أن قال لها أتذكرين أننى قلت لك ذات يوم إننى أصدقك حتى وأنت تكذبين، وأجابته أنها لا تزال تذكر هذه العبارة، ولكنها لم تفهمها حتى الآن.

ولما صممت على شىء من الإيضاح استنكر عليها أن تضيع عمرها فى السؤال بدلا من أن تقرأ.

ولكنها للأسف كانت واحدة من جيل يستسهل إدراك المعرفة بسؤال الناس ويفضل هذا الأسلوب على القراءة، وليته كان يستفيد من الجواب!!

(٦)

وذهبت إلى جدتها المسنة تروى لها قصتها كلها بكل صدق دون أن تذكر لجدتها أنها هى بالذات بطلة القصة ، ولكنها كانت ترويها لجدتها وتستأذنها بعد كل فقرة أن تجود ببعض الوقت على البطلة الأصلية حتى تأتى فتحكى القصة

بنفسها. وتسألها الإيضاح، فلم تزد جدتها بعد أن سمعت كل القصة وكل الأسئلة على أن قالت لها: إن قلب المؤمن دليله.. وازدادت فتاتنا حيرة.

وعادت ذات مرة إلى لقاء معيدها الذى كان السبب وراء نكبتها، فلم يزد على أن قال لها إنها لا تزال لا ترى عاشقها الحقيقى رغم كل ما ضحى به من أجلها، ولم تكن تفهم أنه ضحى بها نفسها ولم يضح بنفسه ! ولكن لأنه كان صاحب تفكير معوج فقد كان يعتقد أن ما فعله لم يكن إلا تضحية فحسب.

وكانت تسأل كل زميلة تقابلها: ترى هل تعرفين من هو الذى يحبنى من كل هؤلاء الذين حولنا.

ولم تكن بقادرة على أن تقتنع بإجابة واحدة!!.

وعاشت تسأل حتى اليوم... ولكنها كانت قد ضيعت كل شىء!

ومع هذا فقد كانت تتصور أنها لا تزال فى البداية.

وقد بدأت بالفعل حياة جديدة مع واحد من الثلاثة الخاطب والمعيد والزوج.

وكانت بدايتها الجديدة دليلاً على أن الناس جميعًا لا يتعلمون.

لكنها مع ذلك عاشت تسأل حتى اليوم.

22. كان التحذلق يتوارى من قدرتها عليه

(١)

كانت تحاول أن تجد ذاتها فى كل جزئية من جزئيات الحياة.. ولم تكن بقادرة على أن تحقق هذه الذات إلا بتصنع شديد التكلف لا تكاد تخطئه العين فحسب، ولكن النفس مهما كانت متساهلة لم تكن تستطيع إلا أن تمجه.

كانت - على سبيل المثال - تحاول أن تدخل كثيرا من مفردات الكلمات الأجنبية فى حديثها العادى، ولأن ثقافتها لم تكن قد تعرضت على مدى تاريخها القصير لمثل هذه المفردات، فإنها كانت تلجأ إلى طريقة فى منتهى الغرابة، فقد اجتهدت حتى استوعبت حوالى عشرة من أسماء الأشياء الكثيرة الاستعمال فى الحياة اليومية، وأصبحت تجتهد فى أن تضع هذه المفردات فى جمل مفيدة، وفاتها أن كل الذين يضطرون بحكم ثقافتهم إلى استخدام ألفاظ أجنبية فى حديثهم

يستخدمون تلك الألفاظ التى تدل على المعانى أو المصطلحات ولا يضطرون أبدا إلى أن يتحدثوا عن الذهب والحديد والخشب بأسمائها الإنجليزية كما كانت تفعل صاحبتنا حين تنظف قطعة الأثاث فتقول إنها من «الوود» الطبيعى، وحين تتحدث عن احتفاظها بحليها التى هى من «الجولد» فى خزينة خاصة فى البنك. وهكذا.

(٢)

وكان إحساسها بالنقص عميقا جدا، وكانت تبذل جهدها طيلة الوقت لتبرير كل شىء حتى ما هى بريئة منه، زارها أحد أصدقائها فى شقة من شقق المصيف المؤجرة، فلفت نظره أن أصحاب الشقة تركوا فيها ما يمكن تسميته ، على سبيل التجاوز ، بدولاب فضيات قديم.. ولكن هذا الدولاب كان شبه خال بالطبع، فلما أبدى صاحبها ملاحظته هذه من باب التفكه المعهود فى مثل هذه المواقف، أضاعت صاحبتنا من وقت ضيوفها ربع ساعة فى الحديث عن جهدها فى إقناع وإجبار أصحاب الشقة الصيفية فى أن يهتموا بدولاب الفضيات وبكل ما ينبغى أن يكون فيه، حتى أحضر هؤلاء هذه العينات ولكنها أخبرتهم على حد روايتها أنها غير راضية عنها!! وقد تمالك ضيوفها فى هذا اليوم أنفسهم، غير أن واحدا منهم فى أثناء رحلة العودة كان مصمما على القول بأن هذه السيدة لم تمر بتجربة ارتياد المصيف قبل هذا اليوم على الإطلاق.

(٣)

وكانت تجهد نفسها فى البحث عن موضع ما من أية جملة لتحشر فيه ألفاظ السائق والخادم والسيارة منسوبة إلى ذاتها المصونة.. وكانت تبدى كثيرا من العجب والتعجب على العائلات التى تكتفى بعدد من السيارات لا يزيد على عدد أفراد الأسرة.. إذ ماذا يكون الحل لو تعطلت إحدى السيارات؟.

وكان حديثها عن الرفاهية كفيلا بأن يدفع مستمعيها إلى السخط على حياتهم.. وربما حدث هذا للوهلة الأولى.. ولكن أحدا منهم لم ينته من لقائها إلا وهو ممتن لله الذى حفظ عليه نعمة العقل.

كانت تحب أن تبدو أمام ضيوفها وهى تتحاور فى ديمقراطية مع ابنتها فلا يخرج هذا الحوار عن أن يختلفا فى تاريخ ميلاد الابنة، وساعة هذا الميلاد، وكأن ابنتها كانت تملك مقومات الحكم على الصواب بعيدا عما روته الوالدة نفسها..

وكانتا تتحدثان فى الأبراج وهو مجال يتسع لكثير من الآراء بلا مرجعية واضحة، لكن الأمر الغريب أنهما كانتا تبدآن بوجهتى نظر متناقضتين، ويحتدم النقاش بينهما ثم يصطبغ الحوار بشىء من الوئام المصطنع، ثم يفاجأ الضيوف بأنهما انتهتا إلى نهاية غير متوقعة على الإطلاق، فقد تبنت كل واحدة منهما وجهة النظر الأخرى تماما وتخلت عن وجهة نظرها الأولى، بل وأخذت تسفهها إلى النهاية..

وذات مرة كان أحد الضيوف الجدد - الذى حضر اللقاء لأول مرة - قد أوشك على فقدان الثقة فى عقله، وكان تعليقه يومها أنه قد فهم لأول مرة فى حياته معنى الدعاء القائل «يامثبت العقل والدين».

(٤)

منذ اللقاء الثانى كان صاحبنا يسأل نفسه: هل يستطيع أن يعرف هذه الأسرة لأكثر من لقاء؟ ومضت خمس سنوات على ذلك اللقاء الأول. ولا يزال صاحبنا يرى الأم والأبنة لا لشىء إلا لأنه طبيب، وفى كل مرة يتجدد أمل الفتاة كانت الأم تتمعض، وفى كل مرة يتجدد أمل الأم كانت الفتاة تبتئس، وهو يغدو ويروح ولا يعرف بالضبط متى يتوب الله عليه من ممارسة هذه المهنة.

الباب السادس

نبـــوءات

٢٣ كانت مثالا حيا للجهل العظيم

(١)

لم يصادف فى حياته فتاة مسطحة بهذا القدر الذى تمتعت به هذه الفتاة، فقد كانت وكأنها لا تدرى من كل ثقافات الدنيا إلا مشهدين من مشاهد الأفلام الكلاسيكية ومقطعين من مقاطع الأغنيات الشبابية.. وفيما عدا هذين المشهدين وهذين المقطعين كانت بعيدة تماما لا عن الحضارة ولا عن الثقافة ولكن عن الحياة نفسها.

كان عليها ذات يوم أن تصطحب بعض ضيوف مؤسستها إلى الغداء فى ذلك المطعم الفاخر من مطاعم ذلك الفندق الجميل.. ولأن المطعم لم يكن قد فتح أبوابه ساعة وصولهم، فقد كان الحل الأمثل عند إدارة الفندق أن تتيح لهؤلاء الضيوف الأجانب أن يتمتعوا بمشاهدة الحديقة النباتية الرائعة القريبة من

الفندق لمدة نصف ساعة، وطيلة هذه النصف ساعة لم يفتح الله على صاحبتنا التى كانت تتولى مهمة المضيف والمرشد بغير قولها « وهذه وردة».

كان هذا أقصى ما تستطيعه فى هذه الحديقة النباتية الحافلة بعشرات الأنواع والأصناف من النباتات والزهور والورد.. ولكن صاحبتنا كانت تطوف بهؤلاء الضيوف خطوة خطوة وتنتحى بهم فى كل خطوة لتقول لهم: «وهذه وردة»..

ولم تكلف نفسها عناء أن تصف شكل الوردة أو أن تذكر مجرد لونها أو أن تظهر أى انبهار بأى شىء من جمال الخلق وقدرة الخالق.. وقد كان فى وسعها أن تقلب الآية فتسأل هؤلاء واحدًا بعد آخر عن كل زهرة وعن رأيه فيها أو فى رائحتها أو فى ألوانها.. لكنها لم تكن تعرف أن مثل هذا التصرف ممكن.

كل ما استطاعته طيلة نصف ساعة كان قولها الذى تكرر أكثر من مائة مرة، «وهذه وردة»، أو «هذه أيضا وردة»، وأيضا «هذه وردة».

(٢)

وعلى هذا النحو كان حديثها إلى كل مستمعيها فى كل وقت وفى كل مناسبة، وقد فعلت هذا أيضًا فى حديثها عن الموسيقى والغناء وكانت عبارتها المتكررة: و«هذا كوبليه»، ولم تكن تملك فى تنويع هذه العبارة إلا أن تقول و«اسمع هذا الكوبليه» و«اسمع أيضا هذا الكوبليه»، ولم تكن عندها أدنى قدرة على أن تصف الكوبليه بالجمال أو الشجن أو الهدوء أو الصخب أو الحماس أو الرقة أو السلاسة أو العذوبة أو الجمال أو التعقيد أو الإسراع أو الابطاء أو الطابع أو الإتقان أو أى شىء حتى لو كان وصفها بعيدا عن الصواب.

إنما هى تقدم نفسها بهذه الكلمة التى ظنت أنها أصبحت بها عالمة فى الموسيقى، وقادرة على العزف الموسيقى كذلك.

وكان حديثها مملا إلى أبعد الحدود، حتى على أولئك الذين تعودوا أن يستمعوا إلى أنفسهم، وأن يكون المستمع إليهم أروع ما يكون إذا كان صامتا ومستمعا فحسب، وكنت أظن أن صديقى الذى هو أبرز هذه الطائفة من الناس سيكون أكثر الناس تقديرا لها حين يسمع تعليقاتها القصيرة القليلة ويأخذ فرصته هو فى الحديث المتصل، فإذا به يوم التقى بها أتعس الناس، فلما سألته عن السبب أجاب بأنها علقت نفس التعليق على فكرتين متناقضين، وأنه أحس بأنه لو كان تكلم إلى الهواء لكان هذا أروح لنفسه، ولكن تعليقها الذى تكرر فى الحالين جعله يشعر بأنه يهذى.

ومنذ ذلك اليوم كان هذا الصديق يعمد إلى إجراء اختبار مبكر لأى مستمع من مستمعيه حتى لا تتكرر معه تلك المأساة التى عاشها تلك الليلة على حد تعبيره.

(٣)

ومن العجيب والطريف أنها كانت تزعم للناس ولنفسها أنها قادرة على الكتابة، ولأنها بالطبع لم تكن تملك القدرة على مجرد التفكير البسيط ولا القدرة على مجرد التعبير البسيط فقد أرشدها رؤساؤها إلى أن الأولى لها أن تترجم عن المجلات الأجنبية بحكم إلمامها باللغة الإنجليزية.

وفى ترجمتها التى كانت تبذل فيها الأسابيع الطوال كانت القدرة على إفساد المعنى تظهر بأوضح ما يكون.. فقد كانت أساسيات الموضوع تغيب عنها فتسأل عنها رؤساءها أو زملاءها ولا تكلف نفسها عناء فهم ما شرحوه لها، وإنما هى تأخذ عباراتهم الكاملة لتضعها فى سياق الترجمة التى تزعم أنها قامت بها..

وهكذا كان يظهر الموضوع الذى هو فى زعمها مترجم، فإذا به يضم الرأى الواضح مع أنه فى الأصل الأجنبى كان مجرد خبر..

ولكن صاحبتنا كانت تفسد ترجمة الخبر حتى يفقد مضمونه، ولا تبقي فى موضوعها إلا تلك المقدمة التى شرح بها رئيسها ما يتحدث عنه الخبر، ومع هذا فهى مقتنعة بأنها قدمت شيئا ذا بال، ولأسباب إدارية وإنسانية كانت رئاستها تنشر لها مرة واحدة فى الشهر وتهمل موضوعاتها فى المرات الأخرى.. ومع هذا فقد كانت صاحبتنا تعتقد وتجاهر بأن المجلة العظيمة لم تقدم طوال الشهر كله إلا هذا السبق الخطير الذى كان لها الفضل فيه، ولهذا فإنهم قد استكثروا أن يكون لها أكثر من هذا حتى لا تستأثر بكل المجد الذى فى المجلة!!.

(٤)

وعلى الرغم من هذا كله، فقد رزقها الله سبحانه وتعالى وهو مقسم الأرزاق ذات صباح بزوج مناسب.. وتردد بين الناس أنها عاشت معه فى هدوء ظاهر لم تحظ به أية زميلة من زميلاتها اللائى كن يفقنها فى كل شىء إلا التفاهة.

لكن أحدًا لم يتوقع أن تكون النهاية على الصورة التى طالعتهم بها الصحف ذات صباح.

٢٤ كانت تظن نفسها قادرة على كل شيء

(١)

كانت تظن نفسها قادرة على كل شيء.. على المطبخ والملبس، على الشعر والقصة، على التفوق فى الدراسة واللمعان فى الرياضة، على جذب الناس وتحطيم الأفئدة، على إبراز الجمال وإظهار الأهمية، على صياغة الحياة وتنظيم الوقت، على بث الأمل وتحقيق النجاح، على إثبات الذات وإشباع الطموحات.

وكانت قد نشأت فى بيت فيه من اليسر أكثر مما فيه من الستر، وكانت أول أولاد أبويها، وكانت لها مربية خاصة وحجرة خاصة، ولعب خاصة، وحياة خاصة، وكان الدلال والتدليل هما أبرز ما قوبلت به، ولم يكن سهلا ولا متصورًا أن تتحول معاملتها عن هذا الطريق.

وكان ذكاؤها الفطرى ورعاية البيئة لهذا الذكاء قد ساعداها على أن تعزف الموسيقى فتبدع على قدر ما يسمح لها سنها بالإبداع، وأن ترسم بالفرشاة فتظهر

على اللوحة صوراً كانت فى مخيلتها، وتقرأ بصوت عال فلا يتأذى الناس من حولها لأن فى أدائها رقة وشاعرية.

وفى مرحلة تالية أصبح فى وسعها أن تقول بعض الأشعار الساذجة، وحين أحست مع تقدم سنها بتفاهة ما تروى الخادمات لأخوتها الصغار، حملت عنهن هذه المهمة وبدأت طريقها فى القص بتأليف الحكايات البسيطة، وكانت قد اهتدت إلى تطوير الحكايات القديمة التى تتحدث عن العفاريت بحيث تضع فيها الآلات الحديثة فى موضع البطولة بدلا من تلك المخلوقات الغريبة!!.

(٢)

وشاء لها القدر أن تفقد أبويها فى حادث من حوادث السيارات وهى فى الثانية عشرة من عمرها، وقد أحسست وكأنها لم تفقد كثيرا بهذا الحادث المؤلم، فقد كانت فى هذه السن تحس بأن فى وسعها أن تكون الكل فى واحد..

وكانت ، فيما بعد، تعجب لأثر هذه الصدمة على جديها وعلى إخوتها الصغار على حد سواء، وتيسر لها بفضل ثروات أبويها الطائلة أن تعيش على نفس المستوى، وربما أكثر، من الدلال والتدليل وإجابة الطلبات وإشباع المواهب، ولم يكن من العسير على جديها أن يحفظا لها كل ما كانت تعيش عليه من رفاهية فكرية وتعليمية لم تكن أبرز صورها أولئك الأساتذة الذين يعلمونها كل شىء تريد أن تتفوق فيه.

وكان أساتذتها شأن كل الأساتذة المدرسين، يعرفون طريق الموهبة ولا يعرفون ثمارها.. وكانت تعجب لهذا الحظ السيئ الذى تجده فى سيرة حياة كل واحد منهم، ثم هدتها فطرتها إلى أن الموهبة وفهمها ليسا كل شىء فى هذه الحياة.

(٣)

وأرادت أن تخرج (وقد بلغت السادسة عشرة) إلى الحياة العامة ليقرأ الناس أشعارها، وليشاهدوا لوحاتها، فلم يكن هذا بالأمر الصعب، فقد ساعدتها اتصالات عائلتها، وجمال اسمها وشكلها، على دخول هذه الحياة من أوسع أبوابها.

وهناك استمعت إلى تعليقات المعجبين والناقدين والذواقة والتافهين، فأسعدها من كل هذا أن فى كلام كل منهم شيئا من المديح استهواها، وصرفت سمعها منذ البداية عن كل فقرة تدرك بحسها الإنسانى أن فيها نقدا أو انتقادا أو انتقاما.

ولم يكن هذا هو أول الطريق إلى الغرور، بل لعله كان نهاية الطريق إلى الغرور، وقد كان أصدق وصف لطريق الغرور الذى شاء حظها أن تمضى فيه هو أنه ذلك الطريق الذى يصعب على الإنسان أن يعود منه من حيث أتى، لأنه يصبح متصورا أنه وصل القمة وأنه لو عاد من حيث أتى فإنه راجع إلى الحضيض!! وأنه لو عاد من هذا الطريق مرة أخرى فإن هوة سحيقة كفيلة بالقضاء عليه فلا يمكن له بالتالى أن يعود ثانية إلى القمة التى هو راض بها!!.

هكذا أصبح حال صاحبتنا، فلا هى تؤمن بأن النقد قد يفيدها، ولا هى تؤمن أن فى تلك العبارات القاسية فائدة أو مغزى غير حقد أصحابها على موهبتها.

وهى ترفض أن تصدق أن نشر الإنتاج الأدبى يحتاج إلى شىء من الجهد فى متابعة المطابع أو التوزيع أو غير ذلك، وهى لا تدرك أن لوحاتها قد أصبحت عاجزة عن التعبير عن الروح الجديدة التى يحياها الناس بقدر ما تعبر عن روح أخرى انتهت من دنيا الناس.

وأصبحت لا هى بقادرة على تحسين مستوى إبداعاتها عما وصلت إليه بفضل معلميها، ولا هى مهيأة لأن تراجع نفسها فى أى شىء مما تنتج أو تؤدى فى أى مجال.

(٤)

غير أن الطامة الكبرى كانت فى انشغالها تماما عن الجنس الآخر، ففتى أحلامها لا يجىء، لا لشىء إلا لأنها لم تتصور بعد ذلك طبيعة الفتى الذى هو كفء لعبقريتها الفذة وألمعيتها الزائدة، وجمالها الفتان، وثرائها الذى لا ينضب!!.

وكان غرورها قد وصل المرحلة التى تخيف الناس من الاقتراب منها إلا بحذر شديد.

.....

وعلم الفتيان ثم الشبان من أمرها كل هذا، ولم يكن بمقدور واحد منهم أن يرمى بنفسه إلى التهلكة، وبخاصة أنها كانت تعنى فى إظهار جمالها بالارستقراطية أكثر مما تعنى بالجمال، وأنها كانت تعنى فى تقديم شخصيتها بالتمثيل أكثر مما تعنى بالتطبيع، وأنها كانت فى معاملاتها مع هؤلاء جميعا تنظر إليهم بنفسها، وتلمس أيديهم بعقلها، وتسمعهم بعينها، وتتحدث إليهم من وراء قلبها.. ولم يكن هناك فى عصر السرعة مَنْ هو قادر على أن يمرن نفسه على تحويل الحواس التى رزقه الله بها هذا التحول الغريب، من أجل أن يستمتع بفتاة مثلها مهما كان شأنها.

ولم يكن بغريب عليها أن يمضى بها قطار الحياة بلا زواج، وهى سعيدة، والمرة الأولى التى جاء فيها ذكر زواجها كانت حين خطر لجديها ألا يزوجا أختها التالية لها إلا بعدها، وكان الشاب الذى تقدم لأختها هذه عجولا ملحا فأستأذنها الجدان فأذنت قبل أن يتما كلامهما.

فلما جاء دور أختها الثانية لم يكن أحد بحاجة إلى استئذانها!

وهكذا تكررالأمر ومضت عليها ثلاثون سنة، تسمع مديح المتملقين، وثناء الذين ليست لهم شجاعة النقد الحق، وإطراء الذين ليس فى وقتهم متسع للتقدير السليم، أوحديث الذين يؤثرون أن تكون كل كلماتهم مديحا لأنهم يدركون أن هذا أدعى إلى رفع قيمتهم هم فى مجتمع مريض، وكانت سعيدة بعبارات الذين يعنون بالنقد السطحى،وهتاف الذين يكتفون بالعرض السريع للأعمال الفنية.. وكانت

تسمع مديح كل الذين ينتمون إلى هذه الطوائف الستة فيزداد إعجابها بنفسها ويتضاعف عجبها من أنها لا تأخذ بعد هذا كله مكانا تحت الشمس فى دنيا الأدب والفن.

وكان يرضى غرورها أن تسمع أبياتا من الشعر أو من الزجل فى التغزل بها حتى لو كان فى هذه الأبيات ما يشين، وكانت تسعد بأن يقال لها إنها فاتنة مع أنها كانت تعرف أنها لم تعد تملك من مقومات الفتنة شيئًا على الإطلاق.. وكانت بعد كل هذا تؤمن بأن يوما سيأتى تصبح هى فيه عميدة المسرح العربى، ورائدة القصة العربية، و أميرة الشعر العربى جميعا.

(٦)

وعلى هذا الأساس فهمت أن الجيل العظيم من الرواد كانوا مبتدئين، وأنها هى صاحبة الفضل فى التمام والكمال.

وكانت تحدث بعض الناس فى هذه الأمور بصفة عامة فتجد استعدادا للموافقة!! وكان ذكاؤها الذى هو غباؤها يهيئ لها بعد ذلك أن تسرد أسماء من جيلها كمثال لهذا النضج، ثم تبدأ فى تجريحهم حتى لا يبقى منهم إلا شخصها. وكأن عمادة الفن تتحقق بطريقة الاستبعاد والتصفية.

وكان عقلها مع تقدم سنها يفقد أشياء كثيرة، فهى للأسف لم تتعود القراءة بقدر ما تعودت الكتابة، ولم تتعود كثرة التأمل فى الأعمال الفنية بقدر ما تعودت الإسراع إلى إمساك الفرشاة.

ولم تكن تؤمن أبدا بنظرية الفن للفن، ولو آمنت بها لعصمتها من يأسها من تراكم الأعمال عندها دون أن تجد ناشرا أو عارضا.

ولكنها مع ذلك كانت تعتصم بنظرية «كلهم حاقدون».

(٧)

وقُدر لها فى أخريات حياتها أن تعرف رجلا كان يصغرها بكثير، ولكن عقله كان يكبرها بكثير أيضا، وكان من شأن عمله أن يعنى بالبؤساء والمرضى وأبناء السبيل، وقد وجد فى شخصيتها كل هذه السمات الثلاث، وظن نفسه قادرا على تحويل بؤسها إلى سعادة، وعلى إرشادها إلى الطريق السوى، وإن كان واثقا - بحكم عمله كطبيب - نفسانى ، من أن مرضها النفسى سوف يأخذ سنوات طويلة حتى يتماثل للشفاء، ولم يكن يظن أن البقية الباقية من عمرها سوف تسمح بهذا، ولكن راق له أن يتأمل عن قرب حالة تتمثل فيها ارستقراطية المظهر بينما هى فى مخبرها من البؤساء والمرضى!

وكانت لحسن الحظ سعيدة لمعرفتها به، ولكنها ظنت أن الدلال عليه سوف يزيد من تعلقه بها، فكانت تحرص على أن تنهى لقاءها به فى عبارته قبل أن يستكمل الكشف ، وتعلل ذلك بأوهام شتى، وكانت بمساعدة الجزء الباقى من ذكائها تترك كثيرا من الأمور المعلقة فى يديه حتى يعاود الاتصال بها أو تعاود الاتصال به.. وكانت تزعم له أنها لا تحبه من دون أن يحدثها هو عن حبه لها.. ومع أنها كانت على هذا النحو مملة جدا ومزعجة جدا، فإنه ، بحكم عمله ، كان حفيا بأن يتأمل تطور الحالة حتى ولو كان هذا التطور إلى الأسوأ.. وكان يرسم خطة العلاج فلا تصمد خطة من هذه الخطط للزمن أكثر من ساعة.. وكان يلجأ إلى ما يلجأ إليه كل الأطباء من إيقاف العلاجات كلها ثم العودة إلى علاج واحد.. ومع كل هذا فهو يفشل فى كل تجربة.

(٨)

ولم يكن بمقدوره أن يمثل عليها أنه يحبها، ولكنه حاول مع نفسه أن يبدأ هذا الطريق أيضا فلم تطاوعه قواه، ولكنه لم يجد أدنى استجابة قد تشجعه على البدء ثانية فى تمثيل الدور.

ثم صورت له نفسه أن يخلق لها ما يشغلها عن الكرب والقلق والتوجس بأن دفع بها إلى عالم المال والأعمال، ولم يكن هذا بالأمر اليسير، لكن ثرواتها كانت تتيح لها هوامش لمعالجة كثير من الأمور المؤجلة دون أن تربك سير الأعمال فى ثرواتها الأخرى ،وبدأت بالفعل لكنها سلكت فى هذا السبيل طريقا غريبا: كانت تحاضر عملاءها فى الثقة والأمانة والشرف فيستمعون إليها ثم ينظرون إليها كأنهم يطلبون منها أن تكون مثالا فى هذه الأخلاق.. وكانت بانفعالها التمثيلى تتظاهر بالغفلة حتى إنها كانت لا تمضى عقدا أو لا تأخذ إيصالا ولا تحسم حسابا.. و«التجار الثلاثة» الذين بدأت معهم حريصون عليها وعلى رضاها لأنهم يجدون فيها صيدًا ثمينًا يرضون كل أهوائها فى التجارة، ويسمعون لها كل يوم، حتى أصبح كل مالها وعقاراتها فى السوق، فى أيديهم هم، وهم يعطونها ويأخذون بعدها أكثر، ويعطونها ويأخذون بعدها أكثر وأكثر، حتى أصبحت كل ثرواتها فى أيديهم، فلما لم يعد فى يديها شىء يطمعون فيه لم يردوا إليها مما فى أيديهم مليما واحدا.. وأصبحت صاحبتنا وليس لها إلا ما يستر جسمها من ثياب، وحق إيجار الشقة التى تعيش فيها وكانت إحدى شقق عمارتها الضخمة التى باعتها، أما أرضها وثرواتها التى كانت قيمتها تزيد على الملايين العشرة فقد تقاسمها التجار الثلاثة من دون أن يستمع أحد إلى خلاف بينهم.

(٩)

وكانت فى ذروة انشغالها بالمال والأعمال طيلة عامها الأخير، قد ابتعدت عن صاحبها، وكان هو قد ابتعد لأنه ظن أنه يكفيه بعد كل هذا نجاح علاجه الذى ظن أنه قد اهتدى إليه بعد طول تجربة.

ولكنه ذات صباح يستقبلها على باب عيادته وقد أصابها ضعف فى ساقها اليمنى، فيظن أن هذا من باب الإجهاد الذى يعانيه رجال المال، ويرسل بها إلى

المستشفى من دون أن يسمع منها حرفا واحدا، إنما هو يقنعها بأن العجلة فى هذا الأمر مطلوبة قبل أن يتطور الأمر إلى ما هو أسوأ. ولم تشأ هى أن تخبره أنها لا تملك للمستشفى مالا ولا ضمانا.

ولم تكن صاحبتنا فى حاجة إلى أن تذهب إلى المستشفى، لكنها كانت تريد أن تستجمع شجاعتها وتسأله عن سبيل لإنهاء حياة انتهت فعلا، ولكنها لم تستطع.

وفى استقبال المستشفى أرادت أن تستجمع شجاعتها مرة ثانية فلم تستطع.

وحين لم تجبهم إلى دفع التأمين اللازم لدخول المستشفى انصرفوا عنها.. ولكنها لم تنصرف عنهم بل بقيت على مقعد من مقاعد الاستقبال، وهم يحاولون أن يخرجوها ساعة بعد ساعة فلا هى تقوم ولا هى تتكلم ولا هى تفصح، ثم إنهم استدعوا البوليس فلما لم يجد رجال الشرطة جرما فعلته ولا جريرة ارتكبتها لم يسألوها حتى لماذا هى جالسة هكذا!! وقالوا للمستشفى فى حدة إن مسئولية الشرطة هى حفظ الأمن، وليس إخراج المسالمين من المستشفيات!!.

(١٠)

وفى اليوم التالى أشار أحد الأشرار على المستشفى أن ترميها هكذا إلى الطريق، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يفعل هذا الفعل فى سيدة يظهر من ملبسها أنها كانت ذات نفوذ أو مال أو عائلة. وتفتق ذهن طبيب كبيرمن جراحى المستشفى عن حيلة ذكية أسر بها إليهم فاستدعوا على عجل مستشفى الأمراض العقلية بعد أن صوروا الأمر للطبيب الشاب القائم بالنوبتجية فى هذا المشفى على أنه حالة هياج عصبى.. فجاء الإسعاف ومعه قميص أحمر ذو كمين طويلين ما إن رأته صاحبتنا المثقفة حتى مدت يديها فيهما، وقد انفرجت أساريرها وتغيرت ملامح وجهها حتى لكأنها عادت إلى الوراء عشرين عاما.

٢٥ كانت تعتقد أنها خلقت للجميع

(١)

كانت تفكر فى ألحب كما يفكر السياسيون فى معركة الانتخابات، فلا بأس، بل لابد، من زيادة عدد المحبين إلى أقصى حد لأن المعركة حامية الوطيس وكلما ازداد المعجبون، ولو واحدا، زادت الفرصة فى النجاح.. ومن العجيب أن هذا الذى لايصح فى أمر الحب هو الحقيقة فى الانتخابات السياسية فلربما يضيع الكرسى نتيجة فقدان صوت واحد.. وربما يتكبد المرشح دخول معركة الإعادة نتيجة إخفاقه فى الحصول على صوت واحد يكسر به حاجز النجاح من الجولة الأولى..

ومع أن الأمر فى الحب مختلف تماماً عن الانتخابات فقد كان تفكيرها فى الحب والمحبين لا يخرج على الإطلاق عن الصورة التى يعرفها الناس جميعا من

حرص المرشح على كل صوت.. ومع هذا فبعض المرشحين، وهم قلة، لا يجدون حرجا فى أن يصرحوا فى لحظة من لحظات الانفعال أنهم لا يشرفهم الحصول على ذلك الصوت، لكنها كانت على النقيض من هؤلاء لا تريد أن تفرط فى الحلم بأن تتحقق لها الفرصة فى أن يحبها الجميع..

ووصل الأمر بها أنها كانت تستميت حتى تحتفظ بحب الخصمين اللدودين، وبحب الخادم وسيده، والموظف ورئيسه، والابن وأبيه، والأستاذ وتلميذه.

وكان زملاؤها يوجهونها إلى ما فى هذا الجمع بين النقائض من غرابة وتناقض، لكنها لم تكن تزيد على أن تقول: إنه ليس فى وسعها شيء تفعله فهم الذين يحبونها! ولكنك يا سيدتى تشجعينهم. وترد فى استنكار عاصف قائلة: وهل يليق بها أن تفعل غير ذلك؟ كأنما خلقت للجميع بنفس القدر.

(٢)

وكان من الطبيعى أن تكون علاقتها بالجميع متوترة.. ولكنها لطرافة الموقف كانت تعتقد أنها على صواب فى كل الأحوال، وأن أحدا كائنا مَنْ كان لا يستطيع أن يلومها على أى تصرف من التصرفات التى تقابل بها هذا الحب الغامر الذى يأتيها من اليمين ومن الشمال!!

وكان معظم المحيطين بها ينفرون منها لسبب واحد هو أن كلا منهم لا يحرص عليها إلى النهاية، وحين يراها على هذه الصورة من جمع المحبين فى سلسلة واحدة.. وربما فى سلة واحدة لو استطاعت .

ولكنها كانت تنظر إلى القضية من باب انتصار وجهة نظرها فى الصواب، وأن الآخرين قد أدركوا الخطأ الذى وقعوا فيه، فإذا كانت الأمور من الوضوح إلى

الحد الذى لا يمكن لها أن تزعم أن الصواب كان فى صفها هى دون الآخرين، فقد كانت تجد من شخصيتها وجاذبيتها وسحرها درجات كفيلة بتحقيق بعض الغفران لها فى كل الأحوال.

(٣)

وكانت فى حقيقة الأمر تبذل من قلبها لكل هؤلاء فهى، والحق يقال، مستمعة جيدة إلى شكاواهم وآمالهم وأمانيهم.. وهى تتمتع بقدرة هائلة على المشاركة الوجدانية الصادقة والسريعة.. وهى بعد ذلك لطيفة المعشر.. خفيفة الروح..

ولكنها مع هذا كله لم تكن تعرف سر جاذبيتها الحقيقية، ولم تكن، من باب أولى، تعرف أن سر الجاذبية نفسه قابل للتغير من موقف إلى آخر، وأن أسرار الجاذبية تجدد نفسها مع كل صباح، وكانت تفسيراتها لأسباب الإعجاب بها تعكس سذاجة واضحة سواء فى تفكيرها وخبرتها فى الحياة.. وإن كانت هى تظن نفسها قد تمكنت، إلى حد كبير، من فهم الحياة.

وعلى هذا النحو كانت تستشهد على صواب رأيها فى البشر بما زعمه البشر أنفسهم عن أنفسهم وعنها.. وكان مرءوسوها الصغار يحاولون أن يردوها إلى الصواب فيكثرون من الحديث عن أن من طبائع الأشياء أن الطامع فى المال يخفى طمعه فى المال ويدعى أنه لا ينشد إلا المجد المجرد على سبيل المثال.. ولكنها رغم هذه النصائح كانت تؤثر أن تصدق مزاعم المحبين لأن السياق فى صورته الكلية كان يأتى على هواها..

وقد كان هذا وراء معاناتها فى أحيان كثيرة من التورط فى خدمة الآخرين بما كلفها من عناء شديد، لكنها كانت تنظر إلى الأمور نظرة المنتصر الذى لا يرى فى المصاعب التى عاناها فى سبيل النصر إلا جزءا من النصر نفسه..

وعلى هذا فقد كانت صاحبتنا حريصة على الفشل الواضح بقدر حرصها على النجاح، وكانت تمزج النجاح الظاهر بالفشل، وتظن أن هذا الذى تفعله هو المجد الحقيقى الذى لا بد لكل مجتهد أن يتمناه!

وكان أهلها يخبرونها أن بإمكانها أن تحصل على الخير بدون شر كثير، وعلى الجمال بدون قبح كثير ، وعلى الحق بدون باطل كثير ، لكنها كانت لا تكاد تصدق أن ذلك بالإمكان.

(٤)

كانت تحب الهدايا وتسعد بها، لكنها كانت تتألم كثيرا حين تجد نفسها عاجزة عن ردها كما ردها غيرها..

وهكذا كانت تسعد بالمحادثات التليفونية الطويلة، لكنها كانت تعود فتتألم حين تعلم أن هذه المحادثة قد حجبت محادثة أخرى جاءتها فى الوقت ذاته.. وكانت تسعد برؤية الأماكن الجديدة وزيارتها.. ولكنها كانت سرعان ما تكتئب إذا ما قضت فى المكان الواحد أكثر من أربع وعشرين ساعة..

كانت قادرة على أن تكتشف مواطن العظمة والدقة والرقة والأناقة والرشاقة فى كل ثوب جديد، لكنها كانت بذات القدر خبيرة فى توجيه الانتقادات الحادة إلى نفس الثوب قبل مضى أربع وعشرين ساعة على استعماله..

وكانت على هذا النحو شديدة التعبير عن إعجابها بالجديد، وشديدة التعبير عن نفورها من كل قديم حتى لو كان جديدا منذ ساعات قليلة فقط.. ولم يكن هذا تعبيرا عن الملل بقدر ما كان تعبيرا عن روح متطلعة إلى توسيع آفاق المعرفة والتجربة والتملك فى الوقت ذاته.

ولكن من سوء الحظ أن قدراتها البدنية لم تكن تدفعها فى كثير من الأحيان إلى المغامرة من أجل الكشف، فقد كانت بنيتها أقرب إلى الضعف منها إلى القوة.. وكانت لياقتها فى حاجة إلى الراحة أكثر من حاجتها إلى الاستنفار.. وهكذا أراحت قواها العضلية قواها العقلية من حيث لم تكن قواها العقلية تدرى ولا تريد.

(٥)

عرفها صاحبنا منذ عشر سنوات، وشهد مجدها يزداد ويتألق طيلة السنوات التسع الأولى من معرفته بها، ولكنه فى عامه الأخير شهد كل شىء فيها ومن حولها وهو يتغير بل ويتدهور.

فقد بدأت الدنيا تعطيها ظهرها، وبدأت هى تجرى وراء مَنْ كانوا يجرون وراءها، وبدأ أساها يعبر عن تزايد هروب المحبين وهى التى كانت لا تكف عن التعبير عن أملها فى زيادة المحبين المقبلين، ومع هذا كله فقد كانت تحاول أن تقنع نفسها أنها فى أزمة سرعان ما تنجلى لتعود إلى حالها كما كان بل ربما بأكثر مما كان.

ومع أن شهوراً وراء شهور قد مضت من العام الأخير دون أن يعود إليها بعض البريق فإنها لاتزال عاجزة عن أن تدرك أن بداية انطفائها قد مضت أيضاً، وأنها

الآن قد دخلت بالفعل مرحلة الانطفاء التام بأسرع مما كانت تتصور.. ومع هذا فإن أملها فى الحياة الباقية لها لا يزال كبيرا، وأملها فى الأحياء لا يزال أكبر.

أما صاحبنا فيتأمل ويسجل تأملاته وهو يتحسب للحظة التى ستثور فيها صاحبتنا على نفسها حين تجد الوهم وقد أصبح على حقيقته وهما فحسب.

(٤)

لكن حكمة صاحبنا تثبت فشلها حين تأتيها الرياح ذات صباح بمجد لم يكن فى الحسبان ، وإذا الدنيا تعود فتقبل عليها بسبب هذا المال الذى ورثته على غير توقع ، وإذا هى تثأر لنفسها من صاحبنا بأن تعيد عليه فكرتها القديمة، وكأنها لم تع الدرس.

وكان هو يخاف عليها من تكرار الصدمة لكنها فى سعادتها كانت قد نسيت كل المعاناة.

وعلى خلاف ما حدث فى سابق أيامها فإن حظها فى هذه المرة كان تعويضًا بلا حدود.. فقد أقبل عليها المخلصون بأكثر مما أقبل الأفاقون فى الماضى، وانصرف عنها كثير من الذين كانوا يحرمون حولها، ويؤذونها بطلباتهم التى لا تنتهى.

وكان صاحبنا يظن أن هناءها لن يطول ويحذرها من ماض قريب لكنها كانت تقول له إنه سيطول.. وتحذره هو نفسه من أن يتنكر لمستقبل واعد.

وكان كلما ازداد توجسًا ازدادت الأيام إقبالاً على صاحبته التى كانت تفقد رويدًا رويدًا كل مقومات الزمن الماضى.. إلا الحظ.

٢٦ كانت تستثمر غرورها

(١)

كانت تتوهم أنها أفضل الجميع، ولم يكن لهذا الوهم من سند إلا أنها كانت تزعم ذلك فى ثقة وتعالٍ أمام الناس فى اللحظات التى لا يمكن لهم فيها إلا أن يجاملوها.. ولهذا فهى تقول إنها الأفضل بشهادة الجميع، ولم يحدث أنها عرفت أن أحدا - على حد قولها - قد تحفظ على هذه الحقيقة!.

كانت - على سبيل المثال - إذا دعت رؤساءها إلى بيتها، تقدم لهم الطعام باردا وفى كميات قليلة وبطريقة منفرة، ثم تجلس إلى المائدة لتسمعهم محاضرات مطولة عن مهارتها فى المطبخ وفى إعداد السفرة، وكانت لا تجد حرجا فى أن تشير إلى أنها كانت تتوقع أن ينتهى هذا الصنف من الطعام أو ذاك بالسرعة التى انتهى بها، نظرا لجاذبيته الشديدة، بينما الحقيقة أن ضعف الكميات هو السبب..

وعلى الرغم من أن آداب المائدة والضيافة كانت تمنع ضيوفها من توجيه الانتقاد، فإنهم كانوا يحرصون على توجيهه مع تغليفه قدر ما يستطيعون.. فمن قائل إن هذا الطعام شبيه بأكل الفنادق! ولكنها لا تريد أن تفهم ما يقصد، وإذا هى تبدأ حديثًا جديدًا أشبه بالملحمة عن تفوقها حتى على الفنادق..

ويردف ضيف آخر أن هذا الطعام يذكره بطعام المعسكرات الكشفية فى الصحراء، فإذا بها حريصة على أن تحكى أنها استضافت زملاء ابنها من الكشافة فكانوا سعداء بالطعام وعلقوا يومها أن هناك فرقا كبيرا بين الطعام الذى تناولوه فى المعسكر الكشفى قبلها بأسبوع، وبين هذا الطعام الدسم!!

وتردف هذا بسؤال زميلها عن آخر معسكر كشفى اشترك فيه أو أشرف عليه، فإذا به نفس المعسكر الذى كان فيه ابنها وزملاؤه فتقترح عليهم أن تستبقى بعض الطعام لابنها ولاصدقائه حتى يحكم ويحكموا بين الطعامين! هنا يعلق أحد الضيوف بأن شيئا من الطعام لن يتبقى لمثل هذه الدراسات المقارنة، وتعود صاحبتنا لتأخذ من هذا دليلا على نجاحها، وهكذا.

(٢)

وفى الجامعة حيث كانت تعمل كانت تنتحل الأعذار لإهمال واجبها أسبوعا بعد أسبوع حتى تقترب نهاية العام، فإذا الطلاب يتكدسون فى المحاضرة اليتيمة التى يحسون بأنها ستحضرها لتحدد لهم فيها الأجزاء الملغاة، وكانت تضيع المحاضرة كلها فى مساومة الطلاب على إلغاء الفصول تلو الفصول.. والطلاب يصفقون لها ويصفرون.. وسريعو الخاطر منهم يقومون ليلقوا قصائد صبيانية من وحى الخاطر فى جمالها وعظمتها، وهى تستزيد من هذا النفاق المكشوف وتعدهم بأن تكثر من الإلغاءات كلما ازدادوا فى التعبير عن مواهبهم هذه..

ومع الأيام طورت من أدائها فأصبحت تصطحب المصور ليسجل هذا الإعجاب وهذه الجموع.. وبحكم الخبرات التى يكتسبها الطلاب من الزملاء السابقين فقد طوروا أيضا من أساليبهم، فالقصائد التافهة تكتب فى لوحة وحولها إطار مذهب رخيص، وقد يكتبونها باللون الأصفر فتقول الأستاذة لأهل بيتها إنهم كتبوها بماء الذهب، فإذا كتبوها باللون الأحمر قالت إنهم كتبوها بالدم.. وحدث أن كتبوها باللون الأخضر وانتظر زوجها ماذا تقول عن أصل اللون الأخضر فأدهشه أنها تقول إنه نوع نادر من أنواع الزعفران مع أنها لم تكن تعلم عن الزعفران أكثر من أنه يستخدم فى فك الأعمال السفلية .

(٣)

وفى ملبسها كانت تحرص على أن تلجأ إلى كل ما هو جديد، وكانت تقصد المحلات البعيدة عن مجال تسوق زميلاتها ولداتها، وكانت تزعم بعد قليل أن ملبوساتها تأتيها من عواصم أوروبية محددة، ومع هذا فقد كان يحدث بين وقت وآخر أن تعثر إحدى زميلاتها أو إحدى تلميذاتها على نفس الثوب الذى ترتديه، فكانت تفقد صوابها ولكنها تغاير فى رد فعلها، فهى تقول للتى نقلت إليها الخبر أو ألقت إليها بالملاحظة بأن ثوب الأخرى مقلد وإنها تعرف أن المحل الفلانى قد قلد الموديل، وبعد لحظات تقول لأخرى إن مدير المحل الفلانى طلب منها ثوبها فقلده، فلما صاحت به أنها عرفت بما فعل عوضها عن هذا التقليد، وبعد ساعات كانت تعمد إلى صاحبة الثوب الجديد فتنهاها فى شىء من التهديد المستتر عن ارتدائه، فإذا لم يكن لها عليها سلطة كانت تلجأ إلى الكيد فتعبر لها عن إعجابها بالثوب الجديد، وخاصة أنه أبرز امتلاء صاحبته بينما تكون صاحبة الثوب الجديد حريصة كل الحرص على عدم الظهور بمنظر الامتلاء.. وهكذا كان ذكاء صاحبتنا فى صياغة الكيد الأنثوى يحميها فى النهاية مما تتوهمه تنافسا خطيرا.

وحدث ذات مرة أن إحدى تلميذاتها الفقيرات اشترت نفس الثوب الذى كانت صاحبتنا تعتبره أرقى أثواب العام، ولم يفلح تهديد صاحبتنا لتلميذتها بالكف عن ارتداء هذا الثوب الذى كان يظهر «التلميذة» أكبر من سنها على حد تعبير «الأستاذة»، ولم يفلح هذا التهديد لسبب بسيط وهو أن الحالة المالية للتلميذة لم تكن تسمح فيما تبقى من العام بشراء البديل، ولم يكن أمام الأستاذة غير أن تحرق قلب تلميذتها على ثوبها بأن تتحين الفرصة لتسكب عليه الشاى فى حركة هستيرية كان من الصعب أن تبدو وكأنها غير مقصودة.. ومع هذا فلم يكن أمام المسكينة إلا أن تعود إلى ارتداء الفستان بعد غسيل متكرر ذهب بلمعته الأولى، وهكذا بدا الأمر لسوء حظ الأستاذة كما لو أن «الأستاذة» كانت هى التى اشترت فستانا من النوع الذى اشترته التلميذة منذ شهور.

(٤)

وبلغت تداعيات هذه الحالة النفسية بصاحبتنا الحد الذى جعلها لا تطيق سماع أى ثناء على أحد سواها، فهى سرعان ما تتحول بالثناء إلى شخصها، حتى لو كان حديث الناس هو مجرد الإعجاب الظاهرى بالأداء الإجرامى لأحد المجرمين الخطرين، وفى مثل هذه الحالة فإنها كانت تبحث لنفسها عن مكان ما، أى مكان، فيما بين السطور، وكانت فى تعطشها الشديد إلى الثناء لا تفرق بين أن تكون الصفة المنوطة بها لائقة بمكانتها وسنها أم لا، وكانت تحرص فى الجلسة الواحدة على أن تأخذ صكوك الاعتراف بكثير من الصفات المتناقضة.. فهى الأستاذة الليبرالية إلى أقصى حد، وهى فى الوقت ذاته أكثر الناس تدقيقا فى مراعاة الأصول والكلاسيكيات.. وهى أسرع الأساتذة فى إنجاز أعمال الامتحانات، وهى فى الوقت ذاته أكثرهم أناة.. وقد وصل الحال بزملائها

وتلاميذها أنهم أصبحوا لا يمانعون رغبتها فى إضفاء أية صفة من الصفات على نفسها ما دام هذا هو السبيل الوحيد إلى اتقاء شرها.

(٦)

كانت قادرة على تصوير عيوبها فى الصورة المناقضة تماما على أنها ميزات، فهى تنسى الخير لأنها تنسى عموما، ولأن النسيان هو العلامة الكبرى للصفح والتسامح.. ولكنها لا تنسى الشر، وكيف تنسى الشر وهى إنسانة حساسة إلى أبعد الحدود، ويسألها الناس عن أبعد الحدود فتقول إنها لم تصادف فى حياتها مَنْ هى أكثر حساسية منها، ويلتفت مستمعوها إلى بعضهم وهم يؤكدون أنها الوحيدة التى لا تغفر أبدا.

وكانت تدير الحوار بينها وبين صديق أو صديقة على نحو ما يتوافق مع أخلاقها العجيبة، فهى لا تكف عن السؤال عن كل الجزئيات المتعلقة بكل شىء، وهى لا تفتأ تردف السؤال بأنها تريد الاطمئنان، فإذا تصادف وسألها محدثها عن شىء أو أكثر، فاجأته هى نفسها بالسؤال: لماذا يسأل؟ وذات مرة اندفعت محدثتها لتبين لها هذا التناقض، فقالت لها فى هدوء إنها تسأل لتطمئن بحكم خبرتها وتجربتها وعقليتها الراجحة، أما الآخرون فهم أقل منها خبرة وتجربة وذكاء، ولهذا فإن سؤالهم لا يحمل معنى الاطمئنان،وإنما معنى التخابر على أحسن تقدير.

(٧)

وكانت على هذا النحو من تقديرها للناس، فهى فوق الجميع والجميع يعرفون ذلك، وكان بين هؤلاء الجميع زميل وزميلة لها اجتمعا على الصداقة لشىء واحد هو أن يتبادلا الحديث عن غرائبها وطرائفها، وبذلت على طريقتها كل جهودها

فى الوقيعة بينهما وكادت تفلح فى المرة الأولى لولا أن زميلها وزميلتها رددا لبعضهما ما روته لكل منهما على انفراد.. ومنذ ذلك الحين صعب عليها التفريق بينهما رغم جهودها المستميتة فى كل لقاء، وكان أكثر ما يغيظها أنها تسأل هذا أو هذه: هل يتبادلان الحديث فيردان بالإيجاب حتى لو كانا قد انقطعا..

ومن الطريف أنها بعد سنتين من محاولات فاشلة ذهبت إلى كل منهما تنهاه عن محادثة الآخر لأنها كانت السبب فى معرفتهما ببعضهما، ولم تجد أى مانع فى أن تعزز هذا الطلب وتبرره بحجج دامغة فى أن الصداقة بين اثنين شىء مادى يتملكه الذى بدأه، وأن الأخلاق الكريمة لا تسمح لأحد بأن يحادث صديقا إذا كان الذى ربط بينهما غير موافق على أن يتم بينهما حديث..

كانت تردد فى بساطة لم تمنعها من أن تقول: هل يمكن أن يتحدث تليفونان بدون السنترال؟ وكانت تصور نفسها على أنها السنترال!

وكانت مأساتها قد بلغت فى ذلك اليوم حدًا عصيًا على العلاج.

(٨)

وكانت تؤدى بعض المهام المؤقتة ذات الأجر المرتفع، لكنها كانت حريصة على أن تذكر أن هذا الأجر لا يفى أبدا ببنود إنفاقها التى يعرفها الجميع.. ومع هذا فإنها فى جلسة واحدة ذكرت أنها اضطرت إلى تلك المهمة من أجل المال، ثم ذكرت أنها سوف تنفق على متطلبات هذه الوظيفة من حر مالها.. ومال أحد الحاضرين من زملائها الجدد على واحدة من القدامى يسألها: أغنية أم فقيرة هذه السيدة؟ فأجابته بأنها فقيرة إلى كل قرش متوقع، وغنية عن كل ألف لم تتله، ولم يفهم صاحبنا هذا القول! ومال على زميل آخر يسأله بلهجة أكثر تحديدا: هل

هذه من المياسير أم من المساتير؟ فقال له: إنها ثرية حين تريد الفخر، ومن المعوزين إذا رأت الغيث.. ولم يجد الزميل الجديد بدا من أن يتوجه إليها نفسها بالسؤال.. فإذا بها تقول إنها الآن أفقر بكثير مما كانت عليه ولكنها لا تزال أغنى الجميع، فأجابها بأنه ثرى وأنه ربما يكون أغنى منها، فأجابته بأن هذا مستحيل، ففغر فاه وسألها كيف؟ فقالت له ببساطة: قل لى ما عندك وأنا أقول لك ما أمتلك.. وإذا بالغنى والثروة يتحولان عندها إلى سجال لفظى تملك هى ناصيته.. فإذا كان له عشرون فدانا فإن لها خمسة وعشرين، وإذا كانت له عمارة فإنها تمتلك عمارة أكبر.. وهكذا..

ولم يكن زميلها يعرف أنها تؤلف ممتلكاتها للتو واللحظة مهتدية بممتلكاته إلا حين وصل إلى قوله إنه اشترى مدفنا بالقرب من القاهرة، ورغم أنه يود لو دفن مع أهله فى قريته، فإذا بها تقول إنها هى الأخرى قد اشترت مدفنين واحدا فى القاهرة والآخر فى الإسكندرية رغم أن عائلتها وعائلة زوجها تتنازعانها من الآن!! ولم يكن صاحبنا بحاجة إلى أن يسألها عن جدوى المدفنين ومدى حاجتها إليهما.. ولكنه أراد أن يعرف أين تقع مدافن الإسكندرية، فإذا بصاحبتنا وهى غافلة تجيبه فى ثقة شديدة بأنها فضلت أن يكون هذا المدفن فى الصف الثانى على البحر!!.

(٩)

وكانت تجاهر بأن نوع السيارة التى تركبها هو خير الأنواع، فلما بدلت بالسيارة سيارة أخرى أصبح النوع الجديد هو خير الأنواع مع أنها كانت قد هاجمته بشدة منذ شهور.

وكانت لا تؤمن بنظرية استبقاء القيمة وتبذل جهدها فى دحض هذه النظرية، وحدث أن سألتها إحدى الزميلات كيف تكون قيمة تلك السيارة أربعة أضعاف قيمة سيارتها ولا تكون أفضل من سيارتها؟ فكان جوابها إن هذا يرجع إلى غباء (كل) الذين يقتنون هذه السيارة المكلفة، وإلى ذكائها هى فقط، فلما أراد أحدهم أن يعطف عليها فى الذكاء أولئك الذين يقتنون سيارة من طراز سيارتها لم تتورع أن تقول إنهم ما اشتروها بسبب الذكاء وإنما لأن قدراتهم المالية وقفت بهم عند هذا الحد!!.

كان غرورها قاتلا، لكنها كانت تجيد استعماله، فهى قد حصّنت نفسها من تأثيراته منذ مرحلة مبكرة، وكانت تقول لأولادها الذين لم يستطيعوا أن يحققوا أمنيتها فى وراثة هذا الغرور إن الغرور ينبغى أن يكون كعصارة المعدة تهضم الطعام كله بدون أن تهضم المعدة أو أن تؤذيها.. ولكن أولادها كانوا للأسف الشديد أعجز من أن يفرزوا مثل هذه العصارة المغرورة.

غير أن العصارة المغرورة التى لم تؤذ صاحبتها فى نفسها آذتها فى أعز ما تملك.. فجاءتها الأزمة من أولادها.. ومع أن الأزمة كانت كفيلة بأن تقضى عليها فإن الغرور وحده هو الذى حماها.. ولم يكن صعبًا عليها أن تضحى بهم جميعًا لتبقى هى وحدها.

وقد بقيت وحدها تستمتع بالبقاء.. ولا تحزن على ما ذهب منها ولا على ما ذهب عنها.

بقيت للغرور وبقى الغرور لها.

كان الغرور يكفيها ولا يزال يكفيها.

كان يسعدها و لا يزال يسعدها.

وهى لا تزال تسأل نفسها: هل يدوم عليها؟

إنها تدعو الله ألا يُدفن غرورها إلا معها.

٢٧ كان الكذب إبداعها الوحيد

(١)

كانت حياتها الغريبة قد أصبحت تعانى الكذب بمبرر وبدون مبرر، فهى تكذب على طول الخط لتحقق شيئا واحدا فى عقيدتها وهو أن تكون قادرة على الاختلاق.. وكانت بينها وبين نفسها تظن أن الكذب هو قمة الإبداع الذى يمكن للبشر أن يصلوا إليه ... ولم لا؟ وهى تبذل الجهد العقلى المكثف من أجل اختراع مواقف جديدة، وأحداث لم تقع لترضى بها طموحها إلى ما تريده أن يتحقق..

وقد اكتفت من الجهاد فى الحياة والكفاح فيها بجهدها الدءوب فى الكذب، فهى تخرج من البيت وتعود لتروى أنها ذهبت إلى مكان غير الذى ذهبته إليه لا لشىء إلا لأنها كانت فى قرارة نفسها تتمنى لو استطاعت أن تذهب إلى المكان الآخر.. فهى تحقق بالكذب رغباتها التى لم تتحقق..

فإذا أنت أردت أن تتأمل لماذا كانت تريد أن تذهب إلى هذا المكان الذى لم تذهب إليه عانيت صعوبة، ثم يهديك البحث والتقصى إلى أن هذا المكان كان كفيلا ذات يوم بتحقيق رغبة بسيطة لها لم تحققها فى حينها، فهى لذلك لا تفتأ توهم نفسها بأنها ذهبت إلى هناك رغم تغير الظروف..

وهكذا كانت تبدو أمام القريبين والمقربين منها وكأنها تقود نفسها فى حلقات متصلة من العبث اللانهائى.. ولكنها على الرغم من ذلك كانت تتمادى فى النزوع إلى هذا الخلق المقيت حتى أصبح والداها لا يصدقانها فى أى شىء.

(٢)

وكانت تروى قصة واقعة حدثت لها ذلك الصباح فيقاطعها أحد المستمعين كعادة الناس بالخطوة المنطقية التالية، فإذا بها تهتز وتلجأ إلى الكذب، ويأتى كذبها بعيدا عن السياق تماما، كأن تذكر قيام أحد الزملاء بشىء بينما كانت قد ذكرت أنه كان غائبا ومسافرا وينبهها المستمعون إلى هذا التناقض فتقودهم بلا حياء إلى كذبة جديدة مختلقة ونادرة من قبيل أن هناك اثنين من الزملاء بنفس الاسم، أو أنه عاد فجأة من سفره عند هذه الواقعة الجزئية.

والأدهى والأمر من ذلك أن تلجأ إلى أن تقول لمستمعيها - وقد حدث ذلك مرارا - إنها كانت تضحك عليهم (وهذا هو تعبيرها المفضل عن الكذب) عندما أخبرتهم فى البداية بأنه كان غائبا ومسافرا، فإذا تعجب أحد المستمعين من أقاربها وسألها وماذا سيفيدون من حضوره أو غيابه انتابها الغضب المصطنع لهذه المقاطعة التى لا لزوم لها..

وهكذا أصبح المقربون منها يؤمنون بالنظرية النفسية التى تقول أنها تلجأ بكذبها إلى التعبير عن رغبات قديمة فات أوان تحقيقها منذ زمن بعيد.

(٣)

وعلى هذا النحو كانت تقود خطواتها فى الوظيفة، فهى تنتقد الشىء وتعود لتنفى أنها انتقدته، وهى تقبل على ما تقبل عليه الأغلبية، فإذا نفرت من شىء يحبه الناس أقنعت نفسها بأن النفور هو الأصل،وأن مشاعر الناس جميعاً هى الاستثناء.

وكانت لا تضع لنفسها معايير كفيلة بالنجاح والتفوق فى الأداء، لأنها كانت قادرة على أن تحور من مستوى الأداء فيما ترويه عن إعجاب الرؤساء به وتقديرهم له، وفى اختصار شديد فإن العمل لا يمثل لها شيئا ذا بال؛ لأنها كانت تعرف أنها تملك من الخيال القدر الكفيل، لا بأن يصور لها ما تبتغى من نجاح.. بل بأن يصور للناس ما تبتغى من نجاح، فقد أغفلت نفسها تماما فى تحقيق السعادة وتحقيق الذات والرضا عنها.

بل بلغ الأمر بها مع الزمن ومع إدمان الكذب أنها أصبحت لا تصور للناس ما تبتغى من نجاح، بل ما كانت تبتغى من نجاح، فقد بقيت بحكم التصنع المتكرر عند مستوى محدود من النجاح كانت تبحث عنه فى فترة مبكرة، وظلت تقنع الناس يوما بعد يوم بأنها وصلت إليه.

وكانت تظن أن قدرتها على اصطناع الالتزام بمواعيد الحضور تمثل نجاحا بينما هى وصلت بحكم الأقدمية إلى الدرجة التى لم تعد مسئولة فيها أمام أحد عن الالتزام بموعد حضور.. وقد ظلت على هذا الخُلق حتى بعد أن أصبحت هى المسئولة عن متابعة مواعيد مرءوسيها، لكنها بما اصطنعت من قدرة على إقناع المرءوسين بأنها حضرت مبكرة واللجوء إلى كل الوسائل الكاذبة لإثبات ذلك الزعم أصبحت مبعث سخرية جميع مرءوسيها، فهى لا تلومهم على تأخيرهم إذا حدث.. ولكنها تضع نفسها موضع المذنب وتبدأ فى اختلاق قصة ترويها... وخلاصتها أنها

حضرت مبكرا ثم ذهبت لشأن من الشئون قبل أن يروها فى مكتبها.. وكانوا كلهم يعرفون أنها كاذبة.. ولكنها كانت توهم نفسها بأنها قد أقنعتهم بالتزامها بالموعد.. بينما هى الرئيسة وهم المسئولون أمامها..

وهكذا كانت سيطرتها على نفسها تزداد سوءا يوما بعد يوم، إذ كان من المستحيل على هؤلاء المرءوسين ألا يستفيدوا من التأخير بدون عقاب أو لايستفيدوا أيضا من سعادتهم بملاحظة رئيستهم وهى تبرئ نفسها بطريقة مهزوزة بدلا من أن تلومهم.

(٥)

وكان خلقها هذا صورة مصغرة لتوجهاتها فى عاطفة الحب.. فهى قد وقفت بالحب عند مستوى محدود لايتعدى إبداء الإعجاب الصادق بها فى صمت، وكأنها لا تعرف درجة من الحب تفوق هذه الدرجة، بل إن الأدهى من ذلك أنها أصبحت وكأنها لا تؤمن ولا تعترف بأية صورة أخرى للحب أبعد من هذه الصورة، وكأنه لا يجوز للحب أن يتطور إلى أبعد من هذا الإعجاب الصامت الصادق..

وكان ذووها فى بداية الأمر يظنون أن تربيتها الصارمة كانت وراء هذا الفهم الحيى، ولكنهم فيما بعد اكتشفوا من مناقشات مستفيضة أن إدراكها العقلى لمعنى الحب قد وقف عند هذا الحد، وأنها ليست على استعداد رغم تقدم سنها لأن تطور هذا الفهم ولا لأن تعترف بأن فى الإمكان وجود صور أخرى للتعبير عن هذه العاطفة النبيلة، وكانت لا تجد صعوبة فى أن تصنف كل الصور والمراحل والدرجات الأخرى خارج إطار هذا التصور لهذه العاطفة..

وعلى هذا النحو كانت تتوجه بعواطفها الصادقة فى قنوات محددة وترفض حتى مجرد التفكير فى استكشاف الدروب الأخرى..

(٦)

وقد قادها هذا بعد ثلاث سنوات إلى أن تحدد صورة فتى أحلامها دون أن تجده.. ثم مضت قرابة ثلاث سنوات أخرى حتى وجدته متجسدا فى شاب مفرط السلبية يفتقد إلى الحدود الدنيا من الإيجابية والمبادرة والنزوع إلى الحياة والعمل..

وكان من الصعب على كل الناس من جميع الفئات أن يقنعوها بخطأ اختيارها.. ولم يكن هناك من المحيطين بها من لا يتمنى لها الهداية إلى الحقيقة المرة.. ولكنهم جميعا لم يكونوا يعرفون أن هذا الذى اقتنعت به لم يكن إلا التجسيد الوحيد الذى خلقته هى لتصور وحيد وقاصر.

وهكذا فقد كان من المستحيل عليها أن تفرط فيه على الرغم من أنه لم يكن رغم كل شىء متمسكا بها ولو إلى الحد الأدنى.. وكان زملاؤهما يعجبون لهذا الاختيار المفرط فى شذوذه وغرابته، وخاصة أن انعدام التكافؤ لم يكن بالأمر الخفى على أعينهم.

وكانوا يلجأون إلى كبار السن يسألونهم الرأى، فكان هؤلاء يحدثونهم بأن الحياة لا بد أن تمضى بالغرائب كما تمضى بالبدهيات، وأن للطفرة فى الأحداث دورا لا يقل فى شرعيته عن دورى التدرج والوراثة حتى وإن كان حجم التأثير قليلا إلى أبعد الحدود..

وكان ذووها يعجبون أن تكون هناك طفرة فى الاتجاه السلبى فكان حكماؤهم ينبهونهم إلى أن المكسب الكبير الذى يحققه طرف ما فى صفقة قد لا يكون إلا خسارة كبرى عند الطرف الآخر..

أما هى فكانت تعتقد أنها لم ولن تخسر على الإطلاق.. ومع هذا فإنها لم تكن سعيدة فى يوم من الأيام..

وأظنها لم تعرف الحب ولم تذق طعمه، قد كانت متعتها الوحيدة هى الكذب.. كما أنه كان إبداعها الوحيد.

الباب السابع

محـــاورات

٢٨ لم تعرف معنى السعادة ولو مرة واحدة

(١)

كانت تفتقر إلى الحنان، وعندما وجدته فى شخصه كانت سعادتها لا تُقدّر لأنها عرفت أخيرا شيئا لم تكن قد عرفته من قبل، وإن كانت قد سمعت عنه وقرأت.. كانت تدرك لأول مرة أن هناك مَنْ ينتمى إلى الجنس الآخر ويستطيع فى الوقت ذاته أن يكون نبعا للحنان. وكانت تحدث نفسها كثيرا بأنها قد وجدت شيئا نادرا وجديدا فى نفس الوقت، لكنها بحكم عوامل كثيرة جدا فى ثقافتها وتربيتها كانت تميل إلى أن تتشكك فى الوجود قبل أن تعمد لتتأكد منه.

وهكذا وضعت نفسها طيلة عامين متصلين فى دوامة لا تنتهى من الشك فى كل تصرف من التصرفات الطارئة التى يسهل تفسيرها على أولى النفوس

السمحة، ثم ضاعفت من شكها لتبحث فى التصرفات الطبيعية التى لا تستدعى التفكير فى قابليتها للشك.. وتمادت حتى أصبحت تبحث عن الوجوه الخفية الكفيلة بتحويل التصرف اليسير إلى نبع غزير للجانب الآخر من الحنان.

(٢)

ومن حسن حظها أن الرجل الذى أحبته كان يفوقها سنا وخبرة، وكان قادرا على أن يتسامح عن الخطأ بعد وقوعه، وعن الغضب عند اندلاعه..

كان يتجاهل نبرة العتاب ونبرة النقد فى حواره معها، لكنه كان يعمد إلى تصرفاته التالية ليجعلها أكثر لينا وأسلس قيادا، وكان يبدو لها وكأنه قادر على الموازنة بين رغبتيهما فى كل تصرف إن لم يكن قادرا على إقناع نفسه بضرورة الانصياع التام، وكان بحكم سعة أفقه يجد الفرق بين الشيئين اللذين يبدوان كالنقيضين فى نظرهما وكأنه مجرد فرق بسيط فى درجة اللون..

وكانت هى تعجب من هذا التبسيط المخل فى عقيدتها.. ومع هذا فإنها كانت تخضع للسعادة الطاغية التى كانت تنشأ عن الموقف نفسه.. وكانت تحدث نفسها بأنه ما دامت النتائج فى صالحها فلا بأس عليها إن لم تكن قد فهمت المقدمات..

ومع هذا فقد كانت تتألم لأنها لم تفهم المقدمات، وفى أحيان أخرى لأنها لم تكن تستطيع أن تتصور أن مثل هذه المقدمات تؤدى إلى هذه النتائج.

وكانت حيرتها فى وصف ما تعانيه تتضاعف يوما بعد يوم، فهى لم تكن قادرة على أن تعترف لنفسها بأنها تحب.. ولم تكن كذلك قادرة على أن تقنع نفسها بأنها لا تحب، وفيما بين طرفى القضية لم تكن تستطيع أن تصل إلى وصف حقيقى لهذه العلاقة..

أهو الانجذاب؟ أم الإعجاب؟ أم الائتناس؟ أم هو درجة من درجات الطمأنينة فحسب!!.

(٣)

كانت تجهد نفسها فى البحث بين مفردات اللغة، وكانت لا تدخر جهدا فى سؤال كل مَنْ تلقاه من ذوى الخبرة بمعانى المفردات، وبالفروق بين المترادفات، لكنها مع ذلك كانت تخرج من كل هذه الحوارات بخفى حنين، وكان هذا أمرا طبيعيا، وخاصة أنها كانت تحتال فى توجيه أسئلتها إلى المختصين لعلها تظفر بما تريد بطريقة غير مباشرة..

وحدث أنها سألت أكثر من عشرة من أساتذة اللغة والآداب عن الفرق بين الإعجاب والانجذاب، فإذا هى تسمع معانى مختلفة لكل من الكلمتين، ولكن معنى منها لم يكن لينطبق على حالتها ولو من قريب..

وهكذا قدر لها أن تفكر فى أن تضع لفظة جديدة تعبر بها عن هذه المشاعر التى تجتاحها اجتياحا.. ولكن كيف لها باللفظة وهى التى لم تصل بعد إلى تركيز الوصف فى جملة واحدة... ولا حتى فى فقرة واحدة؟.

(٤)

وحدثت أحد أصدقائها من الأطباء النفسانيين بهذا الذى تعانيه ذات مرة، وسألته ماذا يفعل لو كان بحاجة إلى تسمية ظاهرة ليس لها اسم من قبل، وأجابها بأن مثل هذا الذى تشكوه هو أروع فرصة ينتظرها الطبيب حتى يصف ظاهرة لم يصفها أحد من قبله، فيكون له الحق فى أن يطلق عليها اسمه هو شخصيا، وبذلك يدخل فى سجل الخالدين..

وعجبت صاحبتنا حين علمت أن هذا الطبيب اللامع لم يصل بعد إلى هذا المجد ولا حتى جاءته الفرصة مرة واحدة.. ثم لما حدثها باستفاضة فهمت أنه حتى يمكن له أن يسمى ظاهرة باسمه، فلابد أن يصفها وصفا دقيقا، وفهمت أنه لابد أن توجد هذه الظاهرة أولا، ولابد أن تكون متمايزة عن الظواهر التى عرفت من قبل، ولابد أن تكون له القدرة على الوصف والتوصيف، ورجعت إلى نفسها فوجدت نفسها عاجزة عن أن تصف، وعن أن توصف، لأنها كانت فى حاجة إلى أن تبدأ حياتها من جديد حتى يمكن لها أن تعرف ما لم تعرفه فى طفولتها.

ومع هذا فقد أسعدها الحظ حين عرفت أن بإمكانها أن تلجأ إلى كلاسيكيات الأدب القديم لتقرب لنفسها الصورة.

(٥)

وهكذا وجدت نفسها تجلس كل ليلة بالساعات لتستعرض النماذج البشرية التى سجلتها أقلام عباقرة الوصف على مدى التاريخ.. وكانت كلما أوشكت على أن تجد شخصية من الشخصيات تكاد تقترب بملامحها منها تفاجأ بالأمور تمضى فى اتجاه آخر مختلف تماما.

وكادت ذات ليلة تؤمن بقول صديقها الموسوعى الذى كان سخر منها منذ شهرين وقال لها إن النفوس البشرية لا تقل فى اختلافها عن بصمات الأصابع، ومع أن قوله كان يبدو منطقيا جدا، إلا أنها كانت غير قادرة على أن تؤمن به رغم إيمانها بصاحبه.. بل لعل إيمانها بصاحب القول هو الذى جعلها لا تؤمن بقوله هذا.. فقد كان صديقها الموسوعى مغرما وناجحا إلى أبعد حدود النجاح فى وصف الناس وتوصيفهم ووضع نماذج لا تخيب.. فكيف يمكن لها أن تصدقه إذ قال لها إن نفسيات الناس كبصمات إبهامهم لا تكاد تتطابق أبدا!.

وكان هناك بين إيمانها بقدرته على الوصف ورفضها الاقتناع بوجهة نظره فى تمايز النفسيات كثير من الحلول الوسطى ولكنها كانت تواقة بكل ما فيها إلى حل نهائى.

(٦)

وعلى حين فجأة تقدم لخطبتها أحد الفنيين العاملين فى مجال المقاولات كان أقل منها فى كل شىء، بل كان كذلك أصغر منها بعامين وقد أعجب فيها بحيرتها التى لا تنتهى، وكانت عنده رغبة فى السيطرة بحكم أنه لن ينال الرئاسة أبداً وإنما سيظل بحكم مؤهله وعمله تحت يد المهندسين مهما كانوا حديثى التخرج، ولهذا فكر فى أن يرأس زوجته أو رفيقة حياته، وقد حدثته نفسه بما قد تعجز الخبرة الوصول إليه فى كثير من الأحيان.

وهكذا حدث نفسه ثم حدثها أن حالها لن تنصلح إلا به، ولم تبخل هى على نفسها بالفرصة، وقد أنزل الله عليها السكينة بهذا الاختيار، وهيأت لها نفسها أنها لن تعدم السعادة معه، وقد بدأت بوادر هذا الانصلاح بأسرع مما كانت تتصور ، فقد كان حسمه لا يتيح لها أن تضيع وقتا فى اختياراتها بين البدائل.

وكان يعاملها على نحو ما يعامل رئيس عمال التراحيل الذى ليس له من سلطة إلا على عماله لينفذوا ما أمر به على سبيل الإجمال، ولم يكن يتيح لها أن تختار بين الأحمر والأخضر حتى فى ألوان فساتينها، إنما هو يختار ما يختار، ولا يبدى لها المبررات إلا بعد الرجوع إلى البيت و كان صاحبها لا يكف عن الاستبداد ولكن استبداده كان يمضى كالماء الجارى لا يتوقف أبداً عند مشورة ولا عند السؤال عن رأى.

وكانت هى أكثر الناس سعادة بهذا الوضع لأن الحرية كانت قد عذبتها من قبل عذابا شديداً، ولم يكن صاحبها ينكر استبداده ، ولا ديكتاتوريته، ولا انفراده

بالرأى، ولم يكن يصوغ من التعبيرات المهذبة أو الملتوية ما يخفف به من غلواء هذا الخلق المتمكن منه.

وصاحبتنا لا تسعد إلا بهذا الطراز النادر من الرجولة التى لا تبقى ولا تذر.

وكان صديقها القديم يتأمل حالها بعد ارتباطها بهذا الزوج ويضيف إلى معلوماته طرازاً جديداً من الحنان الفتان لم يكن يعرف عنه شيئاً من قبل، ويتمثل لنفسه بقول الخالق فى علاه: ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾.

٢٩ كانت نموذجا للتفاهة المعبرة

(١)

كانت تنتمى إلى معهد دينى عريق وتملأ وجهها بالأصباغ، كانت مغرورة جدا، ومع ذلك كانت التفاهة تبدو فى كل جملة تنطق بها، كانت رقيقة الحاشية فى مظهرها، لكن لسانها لا يلبث أن يظهر السلاطة، كانت سريعة البديهة بحيث تظن فى سرعة بديهتها الأصالة، لكنها سرعان ما تكتشف أنها لا تدرك أكثر من القفشات المسرحية والتليفزيونية العالقة بأذهان الناس.

كانت قروية تماما، وكانت تبدو فى ملبسها وزينتها وسكناتها وحركاتها وكأن أضواء المدينة قد بهرتها، ولكنك إذا ما حادثتها سرعان ما تكتشف أن أضواء القرية نفسها قد بهرتها من قبل.

كانت تحب نفسها.. لكنها كانت تجد نفسها حين يحبها الآخرون، وكانت تخدع نفسها بأنها جادة مع أنها أم العابثات. فقد كانت تضيع زهرة عمرها كله فى بحث لا يؤدى إلا إلى الضلال، وكانت تظن أنها قادرة على أن تطوع العالم لخدمتها، بينما هى تمضى من حيث لا تدرى فى طابور المسحوقين، فقد كانت تدرك مدى حاجة الناس إليها ولا تدرك أبدا مدى حاجتها إلى الناس.

(٢)

أول ما يطالعك منها عينان فاحصتان تظن أنهما مدربتان على الوصول إلى أعماق القضايا، فإذا بهما لا تصلان، حتى إلى طبائع البشر الظاهرة.

وتحت هاتين العينين كانت وجنتاها المحمرتان تتغلبان على الخجل الظاهر عليهما وتأبيان إلا الاعتراف بأن هذا الخجل يتراجع أمام ثقتها المفرطة بنفسها، وهى تطالع قلمها السيال وقد مضى بين أصابعها الرقيقة يسجل ما تظن أنه فكرها الوثاب..

وفيما بين هاتين الجمرتين المتقدتين، كان هناك أنف طويل، لكنه دقيق يستغيث بك لتنزله من عليائه ولو إلى أسفل سافلين. وتحت هذا الأنف شفتان متقدتان قانيتان تجعلانك فى حيرة وأنت تنظر إليهما أتطبق عليهما أم تتركهما حتى لا تطبقا ؟.

وفوق جبينها كانت هناك شعيرات سوداء فاحمة السواد، مهذبة الأطراف، تتسلل فى حرية تامة وعشوائية شابة من تحت حجابها المعقود على جبينها ورأسها، وكان أولى بهذه الشعيرات أن تنتشر فى نظام بديع قصدت به مهذبته، وإن تظاهرت، أن تقول إن الشعر هو الذى أفلت من الحجاب... ومع هذا فلم يكن أصدق وصف لها يتعدى قولك إن العقل هو الذى أفلت من هذا الرأس إلى غير رجعة.

(٣)

عرفها صاحبها والتقى بها مرة واثنتين وثلاثاً، ولكنه كان يهرب منها فى كل مرة بأسرع مما يتصور نفسه وهى تهرب من مثل هذا اللقاء، وكان يظن أنه لا يظلمها بهذا، ولكنه فى المرة الثالثة أدرك أنه لن يكون قادراً على تجديد اللقاء ولا على تكراره.. ولايزال يجد الفرصة للقياها، ولكنه يهرب من اللقاء بأسرع مما يتصور.

كان إذا لمح سيارة من طراز سيارتها لا ينتظر حتى يتثبت من رقمها وإنما هو يسرع إلى الابتعاد عن المكان كله، وكان إذا علم أنها ستحضر اجتماعاً سجل اعتذاره مسبقاً ومكتوبا مع أنه لم يتعود على الاعتذار المسبق عن الاجتماعات.

وكان يترك الولائم التى يعتقد أنها ستحضرها معتذراً بأعذار واهية لا تتفق مع مكانته من المجتمعات الداعية.

وعلى الرغم من هذا كله فإن صورة أنفها الطويل المدبب لاتزال عالقة بذهنه، وأصباغها الخاطئة لا تزال مسيطرة على خياله، وسلاطة لسانها لا تزال تسرى فى كيانه، وكان يتمنى لو أنها لم تتوقف عن إسماعه كل سلاطاتها وكل تفاهاتها فى حديثهما التليفونى الأخير حتى يزداد ابتعاداً عنها.

ومع أنه كان يعرف أنه يبتعد عنها تماماً فقد كان يتهيب لقاءها.

ويبدو أنه لايزال لها موضع فى قلبه، ويبدو أنها لم تشغله أبداً، ولكنه محجوز لها على أية حال.

٣٠ كانت أعقل من أن ترتبط

(١)

أتاح لها والداها أن تتربى منذ صغرها تربية إنجليزية باردة محافظة لا تؤمن إلا بالعقل وبالتعقل، ولا تفكر إلا بتخطيط طويل المدى، وحين عرفها صاحبنا وجدها لا تنبهر بشيء أبدا حتى وإن أبدت إعجابا تلو إعجاب، ومن جهة أخرى فإنه لم يكن أى شيء بسيط أو عادى أو تافه ليفتقد (هو الآخر) ما يجعلها تجد فيه مادة للتعليق أو الحوار، وكانت باختصار شديد قادرة على الإتيان بوجه جديد لكل شأن متاح، كما كانت قادرة على الإتيان باستثناء لكل قاعدة وبتخصيص لكل ما هو عام، وكانت كذلك قادرة على تصوير الخير الكامن فى الشر الظاهر، وعلى تصور الشر الكامن فى الخير الظاهر، وإدراك العقل فى الجنون واكتشاف الجنون فى العقل، وكانت توازن فى كل هذا بين روح الشك وروح اليقين، كما كانت

تعتمد على عقلية واعية، وأفق واسع، ومخيلة صافية، وخبرة ممتدة، وقد ساعدتها التربية التى تلقتها على أن يكون لها عقل متميز هو أبرز ما فيها وإن لم يكن هو كل ما فيها، وقد ساعدها هذا العقل على أن تكون لها شخصية متميزة.. وخلقت شخصيتها منها أنثى لا تتكرر، وكان أبرز ما فى تفردها أنها كانت لا تنوى الحياة إلا منفردة، فقد كانت تتأبى على أى ارتباط حتى لو كانت هى التى اكتشفت صاحبه، ونمت العلاقة معه دون أدنى تدخل من أحد غيرها، وقد تكرر هذا فى حياتها التى يعرفها الناس حتى أصبح التكرار نفسه بمثابة صمام الأمان الذى يجعل مَنْ يعرفونها متأكدين من أن هذا هو رأيها وخلقها وطبعها، وأنه ليس عذرًا طارئًا أو سببا عابرًا للتخلص من موقف لحظى.

(٢)

كانت تعمل كثيرا، وتقرأ كثيرا، وتتكلم كثيرًا، وتفكر كثيرًا، ولكنها مع ذلك كله كانت تجد الحياة أقل من أن تستحق كل هذا، ولم يكن عندها فى الوقت ذاته طموح ولا رغبة ولا اقتناع بأن تصرف اهتماماتها إلى الحياة الآخرة، وإذا سئلت فى ذلك أجابت بأنها لا تظن نفسها إلا أنها أهون على الله من أن تكون قديسة أو راهبة.

وكانت تنتقد كل ما يستحق النقد فى الناس من حولها دون أن يعطيها هذا شعورًا بالتفوق على مَنْ حولها، بل إنها كانت تبحث فيمن انتقدتهم عن سر نعيمهم بما لم تنعم به، وقد كان من السهل على عقلها الفاحص أن يجد أسرارًا لا سرًا واحدًا فحسب، ومع هذا فقد كانت نفسها تأبى أن تخضع لهذه الأسرار التى يكتشفها عقلها، وكانت نفسها بما احتوته من عناصر غير عقلية وغير فكرية قادرة على أن تكتشف أسبابا حقيقية لا يصل إليها إلا أولو القدرة على استكشاف

مكنونات النفس البشرية من حب، ووجد، وبغض، وكره، وخوف، ورجاء، وأمل، ويأس.

(٣)

لم تكن تصرح بما تريده فى حياتها المستقبلة، ومع هذا فقد كانت لا تكف عن التصريح بما لا تريده، ولكن هذا الذى لا تريده لم يكن ليكشف تلقائياً أو أوتوماتيا عما تريده، وكان محدثها إذا حاول أن يستنتج ما تريده بهذا الأسلوب يفاجأ بالطيف الواسع للاختيارات التى لا تجعلها مجبرة على أن تختار البديل الثانى؛ لأنها رفضت الأول فحسب، وذلك لأنها كانت قادرة على إيجاد البدائل التى لا نهاية لها.

عاشت هادئة راضية مطمئنة فى معظم أوقاتها، ولكنها شأن المهنيين الذين يتعرضون لضغوط الحياة المتسارعة لم تكن لتمنع نفسها من الانفعال فى بعض اللحظات، ولكن انفعالها فى أقصى صوره لم يكن ليخرج عن إطار العجب أو التعجب ممزوجا بقدر ضئيل جداً من الاشمئزاز اللحظى الذى يسهل تقبله فضلاً عن الاعتذار عنه.

(٤)

كانت تؤمن بالقدر إيمانا مطلقا، ومع هذا فقد كانت تقدس حرية الإنسان بأكثر مما تقدس أى شىء آخر، وكانت فى هذا الجانب من تكوينها العقلى والخلقى صورة نموذجية من بعض فلاسفة المسلمين الذين استطاعوا الخروج بالفلسفة من برجها لتكون جزءًا من حياتهم فحسب، وهكذا نجت كما نجا هؤلاء مما وقع فيه كثير من الفلاسفة ودارسيها حين أصبحت حياتهم نفسها جزءًا من

الفلسفة.. وعلى هذا النحو كانت صاحبتنا تعطى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وعلم النفس جزءا من حياتها حين يلجئها الحوار العقلى إلى هذا الركن فحسب، ولكنها لم تكن لتسمح أبدًا للفلسفة بأكثر من هذا الركن المتميز فى حياتها.

(٥)

عرفها صاحبنا فلم يفرط فى معرفتها حتى يومنا هذا، وكان ولا يزال يجد فيها أربع صفات متكاملة لم يجدها فى غيرها ممن عرفهن قبلها ولا بعدها، فقد اجتمع له فى معرفتها العقل الواعى، والحب الهادى، والود الصافى، والخلق السامى، وكانت تسعد به وبكل لقاء معه، وبكل حرف تقرؤه له، وبكل حديث تستمع إليه فيه، وكانت فى كل سعاداتها أعقل ما يكون الإنسان المحب، وأعطف ما تكون الأنثى المنتمية، ولكنها على الرغم من هذا كله لم تكن لتسمح لقلبها ولا لقلبه بأكثر من هذا.. كانت تتأبى على قلبها، وتتأبى على قلبه كذلك، وكانت قادرة دومًا على أن تمسك لسانها عن أن يصرح بما ينبغى له أن يصرح به، وكانت كذلك تسد أذنها أن تستمتع إلى ما ينبغى لها أن تحاول السيطرة عليه والتحكم فيه، ومن حسن حظ صاحبنا أنها لم تكن ترتدى النظارات السوداء أبدًا، وهكذا ظلت هذه اللمعة الراضية المشرقة المبتسمة فى عينيها دليلا هاديًا لقلبه، ونورًا ساطعًا أمام ناظريه.. ومازال صاحبنا يتمنى الارتباط بها، ولكنه يقنع نفسه بأنه مرتبط بها فعلاً، فإذا ما فكر فى الجانب الآخر من القضية وهو أن ترتبط هى به أخذته الوساوس بعض الشىء، ولكن تفكيره يطمئنه أنها بما عرف منها وعنها لن ترتبط بأى إنسان.. ومع هذا فإنها تعطيه وتمنحه وتغدق عليه بما لا يظن أن أى إنسان آخر يحظى به.. وكان يقنع نفسه أن هذا الذى بينهما هو حب الروح الباقى مشتعلا إلى أن يتلاشى بحب الجسد.. وهكذا يبدو أنه أقنع نفسه بما أقنعته به.. وربما بما اقتنعت هى به من قبل.

الباب الثامن

رسالات

31 خمس رسائل من فتاتى العاقلة

هذه خمس رسائل انتقيتها بجهد جهيد من بين مجموعة رسائل متفرقة ومتباعدة وحقيقية ايضًا تلقيتها على مدى ٥ سنوات كانت أولاها قبل صدور كتابى «أوراق القلب» وكانت الرسائل الباقية على مدى أربع سنوات بعد صدوره.

فى هذه الرسائل كان الطرف الآخر. وهو فتاتى العاقلة . يصوّب لى ما أراه، وما كتبته، وما افكر فيه، وقد رأيت أن دراسة «أوهام الحب» لا تكتمل بدون أن نقرأ هذا النقد والتصويب الذى ترى فيه فتاة عاقلة جدًا أن هذه «الأحكام الذكورية» على الأنثى ينقصها كثير من الصواب.

وسوف نلاحظ فى هذه الرسائل أن المعنى أعمق بكثير من أن يتناوله قلمى هذا، كما سوف نلاحظ أن الأفكار التى تبدو لنا

كأنها متناقضة مع بعضها تمثل بالفعل ما هو موجود فى الحياة التى نحياها جميعا. ومن ثم يمكن لنا أن نقول إنه ليس هناك صواب مطلق ولا خطأ مطلق ولا حتى فى أوهام الحب.. أما الحب نفسه فهو كما نعلم أبعد الأمور عن الصواب والخطأ، ولعلنا قد قلنا هذا فى أول هذا الكتاب حين كنا نقرأ قصة الفتاة التى تحولت من عشق الذات إلى حب الآخر.. بل من حب الذات إلى عشق الآخر.

ولنقرأ هذه الرسائل على مسئولية صاحبتها.. فتاتى العاقلة.

الرسالة الأولى

أنت تظن أن هناك شخصية ضعيفة وأخرى قوية، وأنا عكسك تماما لا أعتقد بذلك، إنك ترى الضعف فى الانسياق لأقوال الآخرين وأحكامهم على الأمور إذا ما تمكنوا من عرضها بالصورة المقنعة، عند ذاك ترى فى هذه الفتاة نموذجًا للضعف، وما أدراك يا حبيبى أن التى تصفها بالقوية ليست منساقة هى الأخرى.. إنها تنساق حقيقةً ولكن إلى الجانب الذى تريده هى من حديث نفسها إلى نفسها كما أنها تترك الآخرين يتكلمون فإذا اقتربوا من منطقة رغبتها قالت لهم إن هذا هو ما يعنيها حتى لو كان المتحدث يشير إلى أن هذا هو الخطأ بعينه.. إنما هى تنتظر ورود النص المرغوب فى سياق الحياة لتقبض عليه وتمسك به وتتمسك به، وأنت يا حبيبى تظن أنها قوية؛ لأنها تأخذ جانب المعارضة بينما هى فى واقع الأمر منساقة إلى أحد جوانب العرض ليس إلا.. ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يزعم أن القوة والضعف ينبعان من موقع الموافقة على نص ما فى سياق طويل من سياقات الحياة.

إنى لأربأ أن يكون هذا هو ظنك أو تقييمك للأمور.

الرسالة الثانية

أراك يا عزيزى تخلط أيضا بين الموضوعيات والذاتيات، وترى أن السعى إلى الإقناع يمثل الموضوعية على حين أن السعى إلى الخصوصية يمثل الذاتية، ولو صح رأيك وتقسيمك لأصبح من السهولة أن نقول إن الموضوعيات هن أولئك اللائى يقتصرن فى فهم الحقيقة على ما يخص الآخرين، لأن كل نساء العالم يتركن الموضوعية جانبا حين يكون الموضوع مختصًا بهن وبحياتهن، ويتحولن فى هذه اللحظات إلى مَنْ تصفهن بالذاتية، وهكذا أيضًا الذاتيات اللائى يتحولن فيما يخص الآخرين إلى مَنْ تصفهن بالموضوعية، لذلك فإنى أحب لك أن تبنى أحكامك لا على أحكام الأخرين أو الأخريات فحسب، ولكن على الظروف التى صدرت فيها أحكامهن، وإنى لواثقة أن كثيرا جدًا من اللائى صنفتهن بحسبهن موضوعيات سيصبحن ذاتيات، وأن كثيرا جدًا من اللائى صنفتهن بحسبهن ذاتيات سيصبحن موضوعيات حين يخضع حكمك نفسه لظروف أكثر موضوعية.

الرسالة الثالثة

أنت، يا حبيبى، فى حيرة هل تفضل اللائى يفاخرن بقدرتهن على العطاء لأزواجهن أم اللائى يفاخرن بإخلاصهن فحسب، وربما لا تعرف يا حبيبى أن الأوليات يعطين من أجل أن يسعدن أنفسهن بسعادة الأزواج، وأن الأخريات يخلصن أيضًا من أجل أن يسعدن أنفسهن بإخلاص الأزواج..

كأنى أريد ان أقول لك إن السعادة هى هدف الفريقين، وأنت أو غيرك من الرجال قد تحتارون فى تفضيل أى الفريقين على الآخر، وليس لكم أن تحتاروا ولا أن تختاروا إذا كنتم تنشدون السعادة فى النهاية، أما إذا كنتم تنتشدون الإخلاص وحده أو الإسعاد وحده فإن لكم أن تحتاروا وتختاروا، ولكنى لا أظن العطاء ينفصل عن الإخلاص، ولا أظن الإخلاص ينفصل عن العطاء حتى وإن اختلفت الصور فى ظواهرها.

الرسالة الرابعة

إنى أعتقد يا حبيبى أنك رغم قدرتك الفائقة على التمييز التام بين كل توعم من التوائم التى مرت بك فى حياتك، فإنك لا تزال غير قادر فى أحيان كثيرة على تضييق دائرة الطيف التى تحرك الناس بتشخيصك لهم فيها، كأنك لا تريد أن تعترف بما اعترف به الأولون والآخرون من أن ألوان الطيف سبعة ألوان فحسب، أنت تريد يا حبيبى أن تزيد هذه الألوان إلى عدد لانهائى، والناس، وأنا منهم، نريدك أن تقتصر على نماذج كبرى يسهل تقريب النماذج الأخرى منها، فليس كل الناس بقادرين مثلك على اكتشاف تباينات كثيرة بين الأحمر والأحمر، وبين الأزرق والأزرق وإنما هم فى حاجة إلى أن تشخص لهم الشخصية التى تقابلك تشخيصا تصنيفيًا لتضعها فى خانة من خانات الألوان السبعة فحسب، أما تشخيصك الدقيق الذى قاده إليك ومكنك منه حبك للطب وللفلسفة والأدب فتشخيص غير توصيفى، وغير وظيفى، بل ربما أتجرأ عليك لأقول لك: إنه دقيق ولكنه غير ذى جدوى، ولا أظن له فائدة غير أنه أمتعك وأنت تصل إليه، وكفاك أنه أمتعك حتى وإن كان قد أتعبك.

إنى لأتصورك فى تشخيصك غير قادر على أن تخرج من الدوائر التى يدخلك فيها اهتمامك بالدقة فى التشخيص، كأنك فى موقفك هذا شبيه بالذى يريد أن يخرج من دائرة مرسومة حوله، وكلما تراءى له أنه وجد طريق الخروج عاد فوجد نفسه فى دهليز لم يسلكه من قبل، ولكن نهايته لا تخرج به عن الدائرة التى

عرفها من قبل، إنما الدهليز يقوده إلى دهليز آخر أضيق قطرًا أو أوسع، وربما يخرج من الأوسع إلى الأضيق وربما من الأضيق إلى الأوسع، ولكنه فى كل الأحوال لا يخرج من الدائرة مع أنه يجتهد فى الالتزام بالصواب إلى أبعد ما يمكنه أن يجتهد.

وإنى لأظنك كذلك، يا حبيبى، يقودك الصواب إلى الصواب الآخر دون أن تخرج من دائرة الصواب إلى دائرة القرار الذى لابد لك من اتخاذه إذا كنت تريد أن تختار بحق ما ينبغى لك أن تمضى فيه حتى تبدأ حياة تشترك معك فيها أخرى تليق بك وتليق أنت بها.

الرسالة الخامسة

إنى أعرف للأسف يا حبيبى أن رسائلى هذه إليك لن تزيدك فهما ولكنها قد تزيدك حيرة، ولأنى أعرف هذا عن يقين أكيد فإنى أتمنى لك أن تجد طريقك بعيدًا عن مثل هذا الحديث، دعنى أذكرك فقط أنك قد أضعت سنوات طوالا فى المعرفة دون أن تجنى الثمار التى جناها مَنْ يفتقدون المعرفة تمامًا.

لن أكذبك القول يا حبيبى إذا قلت لك إنك أكثر من عرفت ثقافة، ولن أكذبك أيضًا إذا قلت لك إنك آخر من عرفت قدرة على الإفادة من ثقافتهم.. ولعلك تظن أن الثقافة غاية، ولكنها يا حبيبى وسيلة أيضًا إذا لم تكن تعرف.

إنى لا أتملقك كما تعرف، ولا أسترضيك كما تعرف، ولكنى أيضًا لا أخدعك ولا أريد لك أن تظل مخدوعًا هكذا.

أنت تعرف أننى تجاوزتك؛ لأنك تجاوزتنى، ومهما حاولت بنبلك أن تثبت العكس للناس احترامًا لى وتقديرًا فإنى لا أريد لك أن تضيع وقتك فى هذا، وليكن ما تريد الحياة..

أفلا تجد لنفسك عليك حقا بعد كل هذا؟

أما أنا فإنى أريد أن أراك سعيدًا، على الأقل لأسعد بسعادتك كما أسعدتنى من قبل، وكما سعدت (بصدق) لسعادتى (الظاهرة) من قبل.

32 رسالة من فتاتى الطائشة

(١)

سأكون أكثر صراحة معك من أى إنسان آخر قابلتَه فى حياتك، وسأكون كذلك أكثر صراحة معك منى مع أى إنسان آخر قابلتُه فى حياتى، ذلك أنى أحبك، ومع ذلك فإنى لا أكره أحدًا ولن أكره أحدًا بقدر ما أكرهك أنت لو ظللت على هذه الحال التى أنت عليها.

وأنا أكتب هذه الرسالة لك، لأنى عجزت أكثر من مرة عن أن أوصل لك المعنى الذى فيها، لأنك كنت تقاطعنى فى منتصف الكلام، وقبل أن أصل إلى المعنى الذى أريد أن أبلغك به، وكنت تظن نفسك قد فهمت ما أعنيه مع أنك لم تفهم، ولكننى أعذرك؛ لأننى كنت مترددة جدًا، إلى أبعد مما تتصور.

وهكذا كنت أبدأ من مقدمات لا علاقة لها بالموضوع، وكنت أنت للأسف تظن أن هذه المقدمات هى الموضوعات، ولهذا كنت تسارع بالرد على مالا ينبغى لك أن ترد عليه، وكنت أحاول أن أثنيك عن ردك، لأنه لم يكن يأتى بجديد فيما أريد أن أتحدث معك بشأنه، وإن كنت لا أنكر أنى كنت أستمتع بما كنت أسمعه منك من حديث شائق وشيق، ولكن غيظى منك كان أكبر، لأنك كنت لا تسمعنى.. ومع هذا فإنك كنت تقنعنى وتقنع نفسك بأنك سمعتنى إلى النهاية.

ألم تكن تسألنى بكل براءة: هل انتهيت؟ ولا تبدأ حديثك إلا بعد أن تحصل منى على الإذن وعلى الإقرار بأننى انتهيت من حديثى.. نعم كان هذا يحدث، وكان هذا يغيظنى أكثر؛ لأنك كنت تظن نفسك بهذا قد أنجزت ما عليك، ووفيت بحقى تجاهك، مع أنك لم تفعل.. ولا أظنك سوف تفعل.

(٢)

أنت لا تسمعنى جيدًا.. هذه هى الحقيقة.. ربما تنصت إلىَّ، وتظن أن الانصات أبلغ وأقوى من السماع، ولكنك لا تستمع إلىّ، وربما تستوعب ما أقول، وربما تتفعل بمضمون حديثى، وربما توليه كل اهتمامك، ولكن كل هذا ليس هو ما أشكو منه؛ لأنه لا يعنينى فى شىء، إنما أنا أقصد أن أقول لك إنك لا تسمع ما ينبغى عليك أن تسمعه وبالتالى فإنك لا تنتظر حتى أقول ما ينبغى لى أن أقول مكتفيا بسماع ما أقول فحسب، ألا تلاحظ يا حبيبى أننى أكون فى شوق عارم إلى الحديث إليك، وأن هذا الشوق لا ينتهى بنهاية لقائنا.

لعلك لاحظت، ولعلك لم تلحظ، ولعلك فهمت الآن ما أريد أن أقوله.. إنك لا تعطينى الفرصة لأعبر عن خلجات كثيرة بالحب أو بالكره، ولكنها خلجات ينبغى

لنا أن نتبادل الرأى فيها وحولها.. ولكنك تتشغل عن هذه الخلجات بما أقول من مقدمات.

نعم أنا أعرف ما سوف تقوله فى هذه اللحظة سواء لى أو لنفسك، ستقول إنك مشغول عنى بى.. وليس هذا عذرًا مقبولاً عندى فأنا لا أريدك مشغولاً عنى حتى ولو كان انشغالك بى، وبى شخصيًا، وفى حالتنا هذه فإننى أرجو أن تفهم أن حديثى الباكر ليس إلا مقدمات، وينبغى عليك أن تصبر على حديثى وعلىّ حتى أدخل من هذه المقدمات إلى الموضوع، وعندئذ فمن حقك أن تناقشنى.

ولكنك يا حبيبى بحكم أنك النموذج البشرى لصندوق السرعات تسارع إلى الرد على المقدمات، ومن أدراك أنى أريدك أن تتحدث فيها.. من قال لك يا حبيبى إن هذه المقدمات هى التى تهمنى من لقائك.

من قال إن هذه المقدمات هى كل ما يعنينى فى الحياة.. إنك فى هذه الحالة لا تكون أكثر تمييزا من الفتى الذى يظن أن المغنى يغنى أغنية اسمها «ياليل يا عين» مع أن هذا المقطع مجرد بداية لكل أغنية من أغانى كل المطربين. ومع هذا فأنت بذكائك لا تناقش إلا فى هذا المقطع «ياليل ياعين» مهما اختلفت اللغات أو الألحان التى أؤديها به فى كل حديث.

(٣)

هذا هو عيبك الأول يا سيدى ، وهو عيب يقع فيه كل الرجال بعضًا من الوقت ولكنهم سرعان ما يكتشفونه ويتجاوزونه.

أما أنت بكل علمك وتحضرك وتمدنك وثقافتك وفهمك وذوقك ورقيك وحساسيتك وإرهافك وإخلاصك وعشقك فمازلت حريصاً عليه، وقد ظننت أن من حقك علىّ أن أرشدك وأن أوجهك مع أنك تظن نفسك فوق التوجيه وفوق

الإرشاد، ولكنها على أية حال: مرة واحدة أقولها لك، وفيما بعد ذلك فأنت المسئول الأوحد عن نفسك.

(٤)

إنى أرجو أن تحذر أن تكرر الخطأ الذى أدمنته بأن تظن أنى أكتب إليك لأنبهك إلى هذا الخطأ بالذات، فإن فعلت ذلك فإنك لم تستوعب بعد الدرس الذى ألقيته عليك لتوى، ولا أظنك تستوعب أى درس آخر بعد ذلك أبدًا.

من حقك أن تسألنى الآن عما أنا بصدده من شكوى. . ولكنى لا أظنك ستفعل، لأنك لم تتدرب بعد على أن تصل إلى خفايا قلبى، وخبايا عقلى، أو فلنكن أكثر احتياطا ولنقل خفايا قلب المرأة وخبايا عقلها. ومع هذا فلا أظنك بواصل إلى ما أريد أن أوصلك إليه إلا بأن أبذل بعض الجهد معك مع أنك قد لا تستحق هذا الجهد!

إنى آسفة.. إنك تستحق كل الجهد الذى فى الدنيا ولكنك لا تستجيب، ولو أنك كنت تستجيب لما كان هناك داع إلى هذا الجهد!

(٥)

تظننى متناقضة مع نفسى، لك الحق إذا تصورت الأمر كذلك، ولكن أرجو ألا تنسى أن الطبيب حين ينصح مريضه بغذاء معين وبدواء معين فإنه يكون أقرب إلى الأبله إذا تصور أن مريضه سيطيع أوامره من فوره، وسيكون أبله بالفعل إذا جاءه المريض بعد أسبوع يشكو فلم يبدأ بسؤاله: هل استمع إلى نصائحه أم لا؟

إن بعض المرضى يا سيدى الدكتور . وأظنك منهم . لا يتعاطون الدواء ولا يتناولون الغذاء الذى أمرهم به الطبيب، ومع هذا فإنهم حينما يراجعونه بعد أسبوع من زيارتهم الأولى له فإنهم لا يجدون حرجا فى أن يكرروا شكواهم مع أنهم لم يلتزموا بتعليمات الطبيب. ولا هم تعاطوا عقاقيره، وكأن هؤلاء يظنون أنه يكفيهم لينالوا الشفاء أن يدفعوا أجر كشف بعدما ذهبوا إلى الطبيب.

وإنى لأرجوك ألا تكون مثل هؤلاء تظن أنك استمعت إلىّ لمجرد أنك أنصتّ إلى ما أقول بكل جوارحك، بينما أنت فى الواقع لم تستمع إلى ما يريد قلبى أن يقوله لك.

(٦)

إنى لا أستبعد أن يصيبك الملل الآن؛ لأنك بضبعك ملول، بل إنك أكثر مَنْ عرفت ملالا، ولو قلت لك إنك . كذلك . أكثر مَنْ عرفت إملالاً لما ظلمتك، فأنت ممل بالفعل يا حبيبى كما أنك ملول.

لكنى من باب الإنصاف لابد أن أعترف أنك ملول بأكثر مما أنت ممل، فإن الحياة معك لا تخلو من بهجة متجددة متعاقبة، بل إنها ممتعة بالفعل، ولكن متعتها تصل إلى درجة الملل لأن متعتها التى تصنعها تأتى فى نظام، ولعل هذا هو السبب فى أنك لا تعرف الملل فى حياتك، ولكن اللائى يعرفنك، يحسسن بالملل معك على الرغم من كل ما تقدمه لهن من إمتاع، ذلك أنه ينقصك أن تترك لهن فرصة اقتناص المتعة، وأنت لا تفعل ذلك، وإنما تظن تقديم المتعة على طبق من فضة نوعًا من أنواع التهذيب، وحقيقة الأمر أن مثل هذا ليس إلا نوعًا من أنواع البروتوكول فحسب.

وفى علاقات العواطف المشتعلة، فإن البروتوكول يكون بالفعل هو آخر شىء مطلوب.

هل قلت لك إنك لا تعرف الملل فى حياتك؟..

نعم هل تظننى بذلك أتراجع عن وصفى لك بأنك ملول؟ إذا ظننت ذلك فإنك تكون مخطئا، فأنت لا تعرف الملل فى حياتك حقيقة، ولكنك لا تكف عن البحث عن عناصر للملل من حياتك.

أنت لا تمل ما تصنع وتبدع وتنجز وتقدم، ولكنك فى الوقت ذاته لا تمل البحث عما يسبب لك الملل فى هذه الحياة، لعلك تفهمنى ولعل أحدًا غيرك وغير الأذكياء من الذين عاشروك لا يفهم هذا المعنى الصعب الذى وصلت إليه بعد عذابى معك.. وعذابى منك!!.

(٧)

هل بلغت روحك الحلقوم ولم تعد تدرى ما أريد من وراء ثرثرتى هذه؟..

ربما ولكنى لا أظن أننى وصلت إلى المرحلة التى ينبغى علىَّ فيها أن أبوح لك بما يقلقنى منك، أو ما يضايقنى فيك.. وكيف أصل إلى هذه اللحظة؟ ومازلت أحس معك بعدم الاطمئنان، فأنا كما ترانى الآن أخشى ما أخشى أن تكون أنت قد وصلت إلى الحدود التى لا تفهم عندها الفرق بين الرفض والدلال، وبين الحب والوصال، وبين الفن والجمال.

ألست أنت الذى علمتنى الفروق بين كل من هذه الأزواج الثلاثة، وألست أنت الذى تفشل، فى اللحظة المناسبة، فى اكتشاف هذه الفروق، وبالتالى فإنك فى تلك اللحظة تأخذ القرار الخاطئ، بينما الصواب أقرب ما يكون إليك.

هل تشك فى عاطفتى نحوك؟

هل أصبحت لا تعرف حقيقة مشاعرى تجاهك؟

هل ضاق وقتك عن استماعى؟

هل تعوقك مشاغلك عن فهمى؟

هل تبخل علىَّ ببعض نفسك وأنا التى وهبتك كل نفسى؟

ربما كان لك الحق فى كل ذلك، لأنك مغرور، ولكنى مازلت أعتقد أن لى حقوقًا أكثر بكثير مما تتصور، بل أكثر بكثير مما تتذكر.

أترانى أخطأت حين ذكرت لك الآن التذكر بعد التصور؟

لا أظنك ترانى هكذا لأنك تعرف نفسك جيدًا، ولأنك تعرف أنك تتذكر بأكثر مما تتصور.. بل ربما إنك لا تعرف!

(٨)

هل مازال عندك وقت يا حبيبى لتسمع منى كلمة واحدة هى خلاصة ما أردت أن أنبهك إليه طوال عمرى؟.

بل دعنى أسألك: هل فهمت ما أريد أن أقول وقد أوشكت على الانتهاء من حديثى؟.

لا أظنك تفهم، ولا أظنك تستطيع مع أن عندك القدرة، ولكنك لا تستخدمها.

هل تذكر آخر عبارة وقفنا عندها؟.. نعم.. تذكر أنى قلت لك إنك تتذكر بأكثر مما تتصور.. وقد لا تعرف هذا.. وقد لا تعرف يا حبيبى أن هذا هو جوهر

علاقتى بك وخوفى منك.. أنك تتذكر بأكثر مما تتصور.. ودون أن تدرى أنك تفعل هذا! هل تظن أننى وصلت إلى مثل هذه الجملة بالمصادفة.. نك أن تظن.

ولكنى كنت أود أن أقول لك منذ الصباح الباكر فى علاقاتنا إن عيبك الوحيد والأساسى والجوهرى والقاتل أيضًا هو أنك لا تجيد التغابى، ولو أنك أجدت التغابى ولو إلى حد بسيط لكنا أسعد مَنْ خلق الله.

ولكنك للأسف لا تجيد التغابى، إذن فدع ذكاءك ينفعك.. أو فدعه لا ينفعك.

تقبل تحياتى.. وحاول التغابى. ولو لمرة واحدة. وساعتها ستكون أسعد الناس!.

33 رسالة من فتاتي المغرورة

(١)

أنت يا حبيبي لا تكف عن وصفي بالغرور مع أنك أكثر غروراً مني بكثير، ولكنك تجيد إخفاء غرورك تحت غلالة رقيقة من التظاهر بالغرور، وليس في الدنيا كلها مَنْ يستطيع ذلك على النحو الذي تؤديه به في سلاسة وبساطة وبدون أن يحس أحد أنك مغرور، ولكني أنا دون الناس جميعا أعرف هذا الخلق فيك، وقد كنت في بداية معرفتي بك في حيرة: هل أصارحك به؟ هل أخبرك باكتشافي لحقيقتك أم أن الأفضل أن أتظاهر أنا الأخرى بأني لا أفهم غرورك؟ وهذا هو ما فعلته طيلة معرفتنا. ولكن يبدو أن الوقت قد حان لكي أنهي إليك في وضوح وصراحة أني أعرف حقيقتك التي لا يعرفها الآخرون.. ولكنك أنت تعرفها حق المعرفة.

(٢)

كنت أعجب طوال معرفتنا لماذا لا تثور علىّ حين أثور عليك؟ لماذا لا تنفعل كما أنفعل؟! لماذا لا توقف صياحى بصيحة أخرى؟!.. لماذا لا تهاجمنى حين أهاجمك؟!.. كنت أسائل نفسى هل وصلت بك الحكمة إلى هذا الحد؟! أو هل وصل بك البرود إلى هذا الحد؟!.

كنت أعرف - بالطبع - أنك حكيم، ولكنى لم أكن لأتصور أبدًا أن تصل حكمتك إلى مثل هذا القدر، وكنت أعرف - بالخبرة - أيضًا أنك لا تتمتع بأى قدر من أقدار البرود التى قد يتمتع بها آخرون.. وكنت حيرى فيما بين هذين الفرضين غير القابلين للصواب إلى أن فتح الله عينىّ على حقيقة غرورك الذى لا حدود له.. هذا الغرور الذى يهيئ لك أن كل ما أنفعل به ليس إلا دخاناً فى الهواء سرعان ما يتلاشى بحكم الطبيعة ويبقى لك الهواء النقى.

هكذا اعترفت لى ذات مرة فى لحظة صفاء كنت فيه شبه غائب عن وعيك المعرفى، وقد سعدتُ يومها بتعليقك هذا، ولكنى وجدت نفسى طيلة الأسبوع التالى، وأنا لا أكاد أصدق نفسى، أكانت حكمتك صورة مضخمة من غرورك، أم كان برودك صورة متحولة من غرورك أيضًا..

فيا لحماقتى التى كانت!!

ويا لحكمتى التى وجدتها أخيرًا.

(٣)

إنى أعرف أنك ستظل على هذا النهج فى استيعابى، وربما فى استيعاب غيرى، وإنى أظن أنك تعتقد أن هذا الأسلوب الذى تتعامل به معى أو مع أمثالى كفيل بأن ينمى حبى لك وثقتى فيك واعتمادى عليك.. نعم أنت تعتقد فى هذا..

ولكنى اريد أن أزحزحك عن هذه العقيدة؛. لأنى بالفعل أكرهك لهذا السبب الذى تظننى سأحبك من أجله.

إنى أكره صبرك علىّ، وأود لو أنك كنت أكثر حدة معى، إنى أضيق باستماعك إلىّ، فى لحظات غضبى، وأود لو أنك كنت لا تكف عن مقاطعتى بغضب آخر.. إنى أمقت تأويلك لأخطائى، وأتمنى لو أنك ضخمتها وعبرت عن عدم قدرتك على احتمالها، إنى لا أحب تسامحك معى، وكنت أحب لو أنك لم تغفر لى.

إنى أكرهك؛ لأنك تحبنى فى تلك اللحظة، ولو كرهتنى فى لحظتها لأحببتك.

(٤)

نعم يا حبيبى المغرور.. إنى لا أستطيع أن أفهم ذلك النبل الذى تتحدث عنه فى مقابلة إساءتى بالإحسان، إنى أفضل أن تسميه النفاق.. ومن أنت يا حبيبى حتى تقابل إساءتى بإحسانك؟ وهل أنا ـ بكل ما تعرفه عنى أنا ـ فى انتظار هذا الإحسان الذى تظن أنك تجود به علىّ.

إنى أرجوك أن تنازلنى على نحو ما يفعل الفرسان، إذا قاتلتك بسلاح، فقاتلنى بسلاح مثله.. إذا جرحتك فاجرحنى.. إذا آلمتك فآلمنى، إذا غزوتك فاغزنى، إذا هزمتك فاهزمنى. . ولكنى أعرف أنك لن تستطيع، لأنك شأن المغرورين يخافون المعارك، ولا يخوضونها من أجل الحفاظ على مكاسبهم السابقة، وأرقامهم القياسية التى حققوها من قبل، وهم يظنون أن خسارة المعارك تذهب بالمجد السابق، وفاتهم وفاتك ـ معهم ـ أن مجد الانتصار لا يُستبقى دون أن يجدده صاحبه بانتصارات جديدة.. ولكنك يا حبيبى المغرور أجبن من أن تبذل جهداً فى تجديد مجدك القديم، إنك تؤثر أن تحتفظ بالماضى كما هو؛ لأنك تعرف أنك لا

تستطيع أن تكسب الحاضر، وهكذا فإنك شأنك شأن المغرورين تنتصر للجبن على الشجاعة، وللخوف على الخسارة، وللماضى على الحاضر، وللوهم على الأمل، ولنفسك على الناس!

(٥)

إنك يا حبيبى تظن أنك قد خبرت النفس البشرية إلى الحد الذى لا يفوقك فيه أحد، ولقد كدت تصرح بهذا لولا بقية من تواضع تمثله وتتمثله، وبودى أن أقول لك إنك لا تفهم فى النفس البشرية أكثر مما يفهم الأطفال الصغار! ولو كنت فهمت أكثر من الأطفال ولو بدرجة قليلة لعرفت الحب كما يعرفه الفتيان.. ولكنك حتى هذه اللحظة لم تعرف ذلك النوع الصبيانى من الحب.

أترانى أقسو عليك؟ أم تراك أنت الذى قسوت على نفسك؟ أم ترى نفسك هى التى قست عليك وعلىّ؟ هل جاء ضميرى فى الحديث: هل قلت: وعلىّ؟ إنى آسفة أن أدخلت نفسى فى حياتك! ما ذنبى بك؟ وما ذنبك بى؟.. لا.. بل إنى لن أكون مغرورة مثلك لأنكر الواقع ولأنكر الظلام الظاهر الذى فى النور الساطع تحت ضوء الشمس.. نعم لقد كنت لك، ولكنك أنت الذى لم تكن لى، لأنك مغرور، ولأن المغرورين من أمثالك لاُ يحبِون ولا يحبّون.

هل جرحتك؟

ربما ولكننى أفضل أن أجرحك أنا عن أن يجرحك غيرى! ويلى! ومن تكون بالنسبة لى حتى أجرحك؟ بل من تكون حتى أجرحك؟.. إنى آسفة.. ولكنى وجدتنى بين خيارين: بين جرحى لك وإجراح غيرى لك بينما لا أحب هذا ولا ذاك، ولا أظننى قادرة على هذا أو ذاك، ذلك أن حدود غرورك لا تسمح للجرح أن يمسها بسوء، ولو من بعيد، ولا تسمح للإجراح أن يضيق عليها الأفق، أليس غرورك يمتد حتى لكأنه يطاول السماء! أليس غرورك هو الذى يصور لك

أنك تكاد تخرق الأرض! أليس غرورك هو الذى يجعلك تؤمن بهذا حتى من دون أن تمارسه!!

أجبنى.. إنك لن تعترف.. لأنك لو اعترفت لعرفت الحقيقة.. ولو عرفت الحقيقة لتغير حالك.. ولو تغير حالك لأحببتك.. ولكنك لا تريد!!.

ولهذا فإنى لا أريد!! لا أريدك بالتحديد!! لا اليوم ولا غدًا ولا بعد غد.. ومع ذلك فسوف أجد الشجاعة دوما لأعترف لك ولغيرك أنى أحببتك فى فترة من فترات حياتى.. ربما كنت مخدوعة.. وربما كنت أنت الذى خدعتنى، وربما كنت أنا الذى تمنيت ورغبت فى أن أنخدع فى ذلك الوقت.

ولكنها على كل الأحوال سكرة أو زهرة جاءت ثم ذهبت.. وتركت لى أثرًا فيه طعم جميل، وفيه مرارة مريرة، ومن حسن حظى أنى كلما تذكرت المرارة استعضت عنها بمشاعر الحب، وكلما تذكرت الحب أوقفته عند حده بفضل الذكرى المتبقية عن هذه المرارة، ولولا هذا المرارة لظللت أحبك إلى أبد الآبدين!. ولا أظنك قادرًا على أن تستأصل هذه المرارة. لأنك لست بجراح، مع أنك طبيب.

الباب التاسع

مذكـــرات

34 من مذكرات امرأة عصرية(*)

(١)

أكاد لا أصدق نفسى، فابنتى التى أفنيت عمرى فى تربيتها وتعليمها فى مدارس اللغات ثم فى كلية الطب تفاجئنى برغبتها فى أن تصبح سيدة بيت.. وليت هذا حدث بعد أن عانت من الزواج أو الانجاب، ولكنها تقول هذا رغم أنها لم تتزوج بعد.. وعلى الرغم من أنها تعيش فى بيت أبويها معززة مكرمة كما يقولون.. فهى لا تقوم بأى شىء فى البيت الكبير، وليس مطلوبًا منها أن تقوم بأى شىء.. ومع هذا فهى لا تكف عن التفكير بصوت عال فى أنها سوف تتفرغ تمامًا لنفسها.. وما يحيرنى هو أنها ليست من ذوات الهوايات اللواتى يتمنين الفراغ حتى يشبعن هذه الهوايات. نعم إن ابنتى ذكية، ولكنه الذكاء التقليدى الذى جعلها مع الظروف المواتية تنهى دراستها فى الجى سى إى بسرعة، وتلتحق بعدها بكلية الطب.. ولكن معلومات ابنتى الطبية عن أمراض الإنسان وعلاجها تكاد تكون

(*) قدمتها بصوتها السيدة الأستاذة نادية صالح فى البرنامج الذى يحمل هذا الاسم.

متواضعة بالنسبة لمعلوماتى أنا التى لم أدرس الطب ولا العلوم أصلاً.. وأنا حائرة هل أشجعها على هذا الاتجاه، وأتركها تستقيل لبدء رحلة مع الفراغ المتواصل وبخاصة أنها لا تندفع على الإطلاق إلى الحب ولا الإعجاب بالرجال على الرغم من أنها تتمنى أن يكون لها بيت فى أسرع فرصة.

(٢)

إن ما يحيرنى فى ابنتى أنها لا تعرف الحماس.. فهى تمارس كل حياتها فى هدوء.. بل فى برود.. عواطفها باردة.. وتفكيرها بارد.. وحتى حديثها معى ليس فيه أى قدر من الدفء.. وفى أحيان كثيرة يأخذنى التفكير ساعات طويلة لماذا صارت ابنتى على هذه الصورة على الرغم من أن قواها العقلية والبدنية فى كامل لياقتها؟ وفى لحظات كثيرة أحاول أن أنكر أننى أنا السبب.. فقد عزلتها عن الحياة العامة وعن دفء الصداقات، وعن تجارب الشعب.. هيأت لها الدروس الخصوصية فى كل مرحلة حتى فى الكلية.. جهزتها جيداً للامتحانات فاجتازتها، ولكنى لم أجهزها للحياة نفسها، ولم تدرس ابنتى أية صورة من الآداب العربية أو الأجنبية؛ لأنها تخطت مرحلة الدراسة الثانوية بالكامل، وللأسف فإن هذا هو حال مجموعة كبيرة من زميلاتها.. لم يكن عندها وقت لتقرأ قصة، لأن السيل الغزير من شرائط الفيديو المتاحة فى البيت كان يدعوها إلى أن تتفرغ لمشاهدته، ثم جاءت القنوات الفضائية اللانهائية لتؤكد على كل معانى السلبية فى حياتها.. ولهذا فإنى أعتقد أننى الملومة على هذا المستقبل السلبى الذى ينتظر ابنتى..

كنت أظن نفسى قد ضيعت نفسى من أجلها.. ولكن يبدو أنها هى التى ضاعت.

35 من مذكرات امرأة أكثر عصرية(*)

(١)

الدنيا لا تكاد تسعنى من الفرحة فأنا اليوم قد أصبحت جدة.. لم أكن أعرف أننى سأمر بهذا القدر من السعادة والنشوة فى حياتى.. حتى عندما أصبحت أما لأول ولثانى مرة لم أشعر بهذه السعادة ربما، لأننى كنت صغيرة، فقد أنجبت ابنى وابنتى عندما كنت لاأزال تحت العشرين.. وعلى الرغم من أنى تخطيت الخمسين الآن، فإنى أحس أن قلبى يكاد يقفز من مكانه.. لا أعرف السر وراء هذا الشعور الذى يلهب ويدغدغ كل أحاسيسى منذ الصباح الباكر عندما وضعت ابنتى طفلة صغيرة.. ومن العجيب أن فرحة ابنتى لا تعادل واحدًا على عشرة من

(*) قدمتها بصوتها السيدة الأستاذة نادية صالح فى برنامج «مذكرات امرأة عصرية».

فرحتى.. على الرغم من أنها بلغت الثلاثين من عمرها، وكنت أظنها ستطير من الفرحة عندما تصبح أما.. ولكنها طوال الساعات الماضية مازالت متحفظة فى إبداء مشاعرها تجاه قيامها بدور الأمومة.. إنها تفكر بصورة جدية فى الاكتفاء بهذه الأبنة.. وزوجها هو الآخر ليس متحمسا، حتى من قبل الوضع، لأكثر من طفل واحد سواء جاء الطفل ذكرا أم أنثى.

(٢)

وفى لحظات كثيرة كانا يتوعداننى بأننى أنا الأم الحقيقة مادمت ألح عليهما بالرجاء ولا أكف عن رفع يدى إلى السماء بالدعاء.. أما الآن وقد استجاب الله لدعائى فلابد أن أقوم لهما عن طيب خاطر بالمهام التى كانا يتوعداننى بها.. ومع هذا فأنا سعيدة.. بل أكاد أطير من الفرحة كما حدثتكم فى البداية.. ولكن هل يسمح لى قلبى أن أحرم ابنتى من ابنتها؟ هل أستطيع أن أستعيد ذكرياتى مع ابنتى الأم الجديدة حين كنت لا أفارقها ليلا ونهارًا؟ هل سأشعر أننى أغتصب سعادة ليست من حقى على الرغم من أن أصحاب الحق أنفسهم قد تنازلوا لى؟.

إننى أنظر إلى المسألة من زاوية أخرى وهى أن الله يحبنى، ولهذا فإنه يضاعف لى السعادة.. ويمنحنى السعادة بعد الخمسين كما منحها لى من قبل حين كنت فيما تحت العشرين.

ولا أكذبكم القول إننى أتمنى لو عرفت طبيعة السعادة التى أحست بها الأم الأوروبية التى حملت حفيدتها فى بطنها بالنيابة عن ابنتها التى كانت عاجزة عن الإنجاب بسبب مرض فى الرحم..

وكثيرا ما أسال نفسى هل كانت هذه السيدة تشعر بما أشعر به الآن؟ وهل هان عليها أن تترك حفيدتها لابنتها كما تترك ابنتى حفيدتى لى؟!.

إنى أسأل فهل من مجيب؟

الباب العاشر

مقـــالات

أوهام الحب.. وحقائقه المتوهمة

الأستاذ سامى خشبة
جريدة الأهرام
١٢ نوفمبر ١٩٩١م

تحت عنوان «أوهام الحب. دراسة فى عواطف الأنثى» صدر كتاب شيق للدكتور محمد الجوادى الكاتب والطبيب والمنهمك بدافع المهنتين فى الاشتباك مع أسرار القلب وعواطف الأنثى.. الكتاب صدر ضمن سلسلة كتاب الجمهورية التى تعود بهذا الكتاب بعد توقف ليس بقصير وهو عود حميد نرجوه دون توقف.

الكتاب يعرض للعديد من الصور الإنسانية المتباينة فى لحظات متباينة وبمشاعر متباينة ، لا يجمعها سوى موقفها المتوثب من الآخر «الحبيب» وهى على نقطة تماس مع حالة حب، ربما وهى توشك على الدخول، أو وهى تشرف على الخروج، أو وهى فى حالة إقلاع بعيدا عنه ونحو الذكرى، أو الشجن، أو الدموع الوجلة حيث الشعور بالفقد بعد الوداع، والحرمان بعد السعادة سواء الحقيقية أو المزيفة.

طبيب القلب يكتب عن حبيب القلب
دراسة شخصية فى عواطف الأنثى!

الأستاذ محمد الشاذلى
مجلة سيداتى سادتى
٢٧ يناير ٢٠٠٠م

الحب.. حقائق وأوهام.. وربما كانت حقائق الحب أقصر عمرا من أوهامه.. والحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد، كما قال ابن حزم الأندلسى فى «طوق الحمامة فى الألفة والأُلاف» أما طبيب القلب محمد الجوادى.. أو ابن حزم عصرنا.. فبعد أن أصدر رسائله الرقيقة فى كتاب «أوراق القلب» قرر أن يبحث عن الحقيقة بعيدا عن كثبان الخيالات المتحرّكة فى كتابه الجديد «أوهام الحب. دراسة فى عواطف الأنثى» .. والجوادى لا يعيد طلاء حكايات الحب بألوان قوس قزح، ولا يحيطها بالبالونات، ولا يفجر فى سمائها ألعابا نارية.. إنما يفتش فى أسسها وبنائها بعيدا عن الرغبة فى إيذاء الآخرين أو خداعهم، فأوجع قلبه وأوجعنا معه.

ليست أوهام الحب التى يتحدث عنها هذا الكتاب إلا حقائق موجودة وقائمة ومؤثرة.. ومنها أن طبيب القلب لم يستطع الكشف عن اسم حبيبته.. وحين أهداها الكتاب خشى من ألا ترحب هى بقبوله، فاكتفى بالحروف الأولى من

اسمها: «إلى الفاضلة أ.أ تحية لذكرى».. و«أمان غالية لن تموت».. إن تجربة الجوادى جعلته يقول باطمئنان إن الوهم هو الطابع المسيطر على آمال الحب، حتى فى إهداء الكتب أو المشاعر أو الأحاسيس!!

الفتاة الهشة..

هى فتاة هشة، وإن كانت قابلة للكسر أو القصف إلا أنها لم تنكسر أبداً.. وقد أحبها صديق مقرب جداً للمؤلف، وطلب هذا الصديق من المؤلف أن يكتب له رسالة إلى حبيبته، بعد أن شرح له كافة التفاصيل، وكتب الصديق تعهداً ينص على موافقته - بكل سرور - على نشر هذه الرسالة فى كتاب، بعد حذف كل ما يشير إلى اسمها ووظيفتها ومكانتها فى المجتمع!

أما هى فأشبه ما تكون باللبن الحليب، لابد له من وعاء يحفظه من كل ما يحيط به، وهى أيضاً لابد لها من ظروف مثالية حتى تظل فى صورتها العليا..

يقول فى رسالته: وأنت كاللبن الحليب. بوسع الذين يعرفونك أن يكتفوا بك عن كل شىء.. فأنت طعامهم وشرابهم فى الصباح والمساء.

فيك الحلاوة.. فيك الماء النقى.. وفيك المناعة بكل صورها.. ومناعتك تمتد فى الزمان.. ولا تقف عند ليل أو نهار.

أنت تبحثين عن مواصفات بعينها فى شريك حياتك.. تريدين منه أن يكون مثلك، وأنت نادرة الوجود، ولهذا سوف يستحيل عليك أن تجديه، لأنك لن تجدى مثلك أبداً.. ثم ماذا تفعلين بمثلك وأنت نفسك موجودة؟ هل تظنين أنك تسعدين حين يتكرر طرازك النادر؟ هل يتحمل الكون شمسين أو قمرين؟!

لا أستطيع أن أنكر أننى أعيش معك بوجدانى منذ عرفتك.

إننى أعرف أن أمثالك فى عصرنا نوادر، أعرف هذا عن يقين شديد.. إننى أقدر بكل حب كل ما تعيشين فيه من قيم سامقة..

أنت تخافين مسئوليات الارتباط وتقولين دائماً لنفسك ولغير نفسك إنك لم تتصوري أن تكوني مسئولة عن نفسك قبل اليوم، فكيف بك بعد هذا العمر الطويل تكونين مسئولة عن الآخرين؟!.. ولقد كان بودي أن أقنعك بما أنا مقتنع به طوال حياتي، من أن الكفء منا يكون في موضع القيادة أكثر راحة منه في موضع التبعية، وإن الإنسان الذي يُعتمد عليه يجد في المسئولية عن الآخرين راحة تفوق راحته حين يلقى بمسئولية نفسه على الآخرين.

إنك بحكم شفافيتك المفرطة ورهافتك المطلقة وهشاشتك البالغة تظنين أن ما تبدد في عبث وخطأ قد انتقص من الرصيد الضخم لتجربتنا الثرية.. ولكنني أكاد أتيقن وأجزم أنه زاد في هذا الرصيد حتى لو لم تكوني قادرة على تصديقي.. ولا أظنك الآن غير قادرة.

إنني أفتقدك، ولقد كنت أفتقدك فيما بين كل لقاء ين بأصعب مما تتصورين وبأشق مما تتخيلين.

سامحيني إذا أنا لم أوفك حقك فإنني أنا نفسي لا أوفيك حقا.. وسامحيني مرة ثانية إذا لم تكن نفسي كلها قادرة على أن توفيك حقك..

العنيدة والمتفانى

يخوض الدكتور محمد الجوادي تجربة أخرى كل طرف فيها أكثر ولعاً بالمخاطرة والمغامرة والتحدي. وعلى هذا النحو عاش هذان الحبيبان أحلى فترات عمريهما حين كانا معاً.. وعاشا أتعس لحظات عمريهما حين قدر لهما أن يفترقا، فلم يكن في وسعه أن يجد سلواه في سواها، ولم يكن في وسعها أن تجد سلواها في سواه. ومن المدهش أنهما كانا يعرفان في نفسيهما طبيعة انتمائهما لبعضهما ولكنهما كانا يعاندان، وكان عنادهما صورة طبق الأصل من نفسيهما، فقد كانت تعاند بالرفض المتكرر والحاسم والقاطع والبات. وكانت تتعدى الرفض إلى ما هو بعده، وكانت صديقاتها من ذوات الخبرة بالنفس البشرية يجدن في كل هذا

الرفض دلالة على حب لا يعرفن له حدوداً، وكان هذا الاكتشاف يغيظها ويدفعها دفعاً إلى الارتماء فى أحضان الرفض حتى ضاقت بها أحضان الرفض نفسه. أما هو فكان لا يفتأ يردد لكل الذين يعرفونهما أنه لا يستغنى عنها ولن يستغنى عنها، وأنه لا يعيش إلا ما دامت هى حية، وأنه يعشق كل ما فيها حتى الرفض، وأنه لن يرتبط بغيرها ما قدّر له أن يعيش، وأنه يكفيه منها بعضه ما منحته فيما مضى ليستبقى نفسه لها طول عمره الباقى. وكانوا يعجبون ولم يكن هناك قدر من العجب يمكنه أن يصف عجبهم من هذا المتفانى فى الحب دون أن يبذل أى جهد فى أن يعبر لحبيبته بفعل حقيقى ولو كان متهورا عن بعض هذه الصبابة.

مغرورة حبيبتى

حكاية جديدة من أوهام الحب..

هى فى حياتها اليومية كانت لا تكف عن إظهار أقصى درجات التعاظم، ولم يكن تعاظمها غروراً أبداً على الرغم من أن كثيرين ظنوه كذلك.. ولكنها كانت فيما بينها وبين نفسها تعلم حق العلم أن هذه الدرجات المفتعلة من التعاظم كانت بمثابة الصور المقلوبة لإحساس عميق ودفين ومتجدد بالدونية دون أن يكون لها ذنب فى هذه الدونية، فقد أنعم الله عليها بعقل متقدم عن أقرانه من العقول، وشاء جل جلاله أن يحرمها مما كانت تتوق إليه من سند اجتماعى يتوازى مع تفوقها العقلى، ولهذا كانت تلجأ إلى هذا التعويض فيما هى محتاجة إليه فيه، ولذلك لم تكن تقبل - شريك حياة - أقل من أن تجتمع فيه كل طموحاتها. بحيث يكون فى الوقت ذاته حبيباً مولها بها وخادماً أميناً عليها وسيداً مشرّفاً لنفسه ولها ومصرفاً لا يكف عن طبع البنكنوت وعصا سحرية تحيل لها أوهامها إلى حقائق وأحلامها إلى أوامر.

كانت تهوى جمع المعجبين حول قلبها، إلى أن صدمها حبيبها بقوله إنه يتعمد التقليل من كل ما قد تحبه حتى تظل دائماً أقل مما تبتغى أن تصور نفسها فيه

أمامه! وفى تلك اللحظة انهارت تماماً، واقسمت أنها لا تحب غير ما يفعله هو ولا تكره إلا ما ينتقده هو. ولربما بدأت الآن - والآن فقط - تعرف معنى الحب.

استاذى العزيز

كانت طموحة بلا حدود.. وكانت رغبتها فى الاتساع بمعارفها لا تقف عند حد.. كانت تجيد الاستماع وتجيد المقاطعة وتجيد التعليق.. أما تعليقاتها فكانت صادقة جداً فى التعبير عن كل ما فى النفس الشريفة من تطلع إلى المثل العليا. ولكنها على الرغم من ذلك كله كانت لا تزال حيرى تماماً بين كنه الصواب وكنه الخطأ. ولم تكن حتى قابلته قد عرفت مغزى القيم الإنسانية الكبرى: الحب والخير والجمال.. كانت لا تؤمن إلا بالصواب.. لا تحتكم إلا للعقل.. وكان يأخذ بيديها فى رفق لتفهم معنى الحق ومعنى الخير ومعنى الجمال. ولم تزل به حتى استطاعت أن تتشرب نظراته للحياة، ووصلت فى فترة قصيرة إلى السعادة التى لم تكن قد عرفتها من قبل، وكانت لغرامها بهذه السعادة أكثر حرصا منه على تدبر كل ما يقابلها فى ظلال فهمها الجديد.

مزايا الظل البعيد

وهم جديد أو قصة أخرى من شواهد الدكتور "لجوادى..

هو كان يبحث عنها منذ زمن بعيد، وكان كلما وجدها أو خُيل إليه أنه وجدها انتابته السعادة، ولكنه كان يفيق من سعادته، ليجد أنه وجد السراب فحسبه ماء.

ولكنه وجدها.. تلك التى، لحما ودماً ، هى الأقرب إلى الصورة التى رسمها منذ زمن بعيد وبحث عنها، ويتشابه الأمر عليه مرة بعد أخرى! ويقع صاحبنا فى حيرة شديدة.. أهو يبحث فى الواقع عن صورة فى الخيال؟

يسأل نفسه، ولكنه لا يجد للصورة التى فى ذهنه نفس اللذة التى يجدها فى حديث محبوبته.

إنه لا يكاد يصدق، فهو سعيد جداً بما وجد، وحريص على ألا يفقد هذه السعادة بأى نوع من التفلسف، ولكن فتاته التى وجدها لا تفتأ تبعد فيه القدرة على التفلسف، وهو سعيد بتلك الشرارات التى يطلقها كيانها على عقله، وهى سعيدة بسعادته وهو سعيد بسعادتها..

كانت ذكية إلى أبعد الحدود، وكانت قادرة على التعبير عن هذا الذكاء.. ولكنها كانت تأبى على صاحبها الاعتراف بأنها تحبه، وكان يحتال عليها فى أن يعترف لها بأنه يحبها، ولكنها كانت مصممة على تعطيل مفتاح الاعتراف بالحب. وذهبت إلى طبيب القلب تسأله وسيلة لتثبيت سرعة القلب حتى لا تظهر نبضاته المسرعة ما تريد إخفاءه من علامات الحب. وقالت له فى هدوء شديد إنى أريد جهازا كذلك الذى يسمونه «مثبت السرعة» ويركبونه فى السيارات الفاخرة حتى لا ترتكب مخالفات السرعة ويرصدها «الرادار». وقررت أن تدرس الطب بنفسها لعلها تستطيع أن تستخرج من نصوصه ما لم يصل إليه غيرها. وبعد دراسات طويلة وصلت إلى الحقيقة التى أفنت ما مضى من عمرها حتى تصل إليها. ولأنها كانت متواضعة ولأن تواضعها كان فى إطار العظمة، فإنها قامت إلى التليفون لتقول الرجل الذى أحبها إنها لا تملك أن تنكر أنها تحبه. لكنها كانت ترفض الزواج، وكانت بالتالى ترفض اللقاء. كانت تعتقد أن الحب لابد له - لكى يبقى أن يظل فكرة متجردة مجردة.

كان صاحبها يبحث عن مخرج يتيح له اقتحام حصن أفكارها الخاطئة عن الحب. ووجد ثغرة إذ المحبوبة تسأل نفسها ذات يوم بصوت عال عن سر هذا الاندفاع الذى تجده فى بنات جنسها نحو تجسيد العواطف المجردة على هذا النحو الذى لا تجده فى نفسها ويلتقط المحب الخيط. وحين لم يكن هناك بد أمام المحب إلا أن يقتحم هذه الثغرة التى توصل إليها بعد عناء شديد فإنه كان يخشى أن تنغلق عليه الصخرة فيصبح هو الآخر أسيراً لهذا الحصن الذى يحاول اقتحامه.

حتى الجفا محروم منه

عاطفة أنثوية أخرى فى هذه الحكاية.. إذ كانت هى سريعة الغضب.. وكانت فى غضبها أقرب إلى الافتعال وأبعد عن الانفعال، فهى تسمح بالتجاوز ثم تلوم عليه، وتبدأ المزاح ثم لا تلبث أن تنصرف عنه، وتفجر النقاش ثم تنسحب منه.

أما هو فكان رأيه قد استقر على أن يقاطعها أو أن يفارقها على الأقل لفترة طويلة. فقد كانت قد بلغت منتهى قدرتها على إصابته باليأس منها.. فهى فى اللحظة التى يبلغان فيها الذروة، تفاجئه بأن تتبعد مرة واحدة، وليتها كانت تتباعد بالتدريج، إنما كانت تعمد إلى الفرار المتعجل. كان يجدها حريصة على الفرار إلى «الفريجيدير» العميق كلما قاربت الانصهار.

وهكذا قادته حيرته إلى أن يقرر لنفسه أنه لا الابتعاد مجد ولا الهجران ولا حتى المقاطعة ولا الإهمال ولا الفراق. ولم يكن أمامه بد من أن يلجأ إلى الجفاء، وكان يسأل المجربين كيف يكون! وكان أصحابه يضحكون من عجزه وهو الذى كان يظن نفسه قادراً، ولكنه كان لأول مرة يفهم معنى استغلق عليه طيلة سنوات حياته حين كان يسمع كوكب الشرق وهى تشدو فتقول: حتى الجفا محروم منه.

ملامح شخصية

صاحبة هذه الحكاية توافرت فيها المقاييس الرائعة للجمال.

لم يكن فيها أى ابتعاد ولو طفيفاً عما يتمناه الرائى لناظريه، وعما يتمناه الفنان للوحة التى يضمن بها الفوز فى مسابقات الجمال. ولهذا لم يكن من الصعب على فنان متمرس أن يصورها، لكن المشكلة كانت فى أن كل صورة لها لم تكن قادرة على أن تحيط بها مهما بلغت من الدقة والتعبيرية والتصوير والتمثيل والتقليد.

كانت فتاة عالمية. وكانت تجيد كل لغة من اللغات كأنها ابنة هذه اللغة، وكانت قادرة على إدراك الفروق الدقيقة بين كل شيئين، وكانت تجيد التواضع، ومع هذا

التواضع فإنها كانت قادرة على أن تصوب للناس آراءهم الخاطئة وأن تصحح لهم مفاهيمهم الخاطئة، وكانت أكثر معاركها مع النرجسيين، أما استعدادها للعطاء فلا يتوقف عند حد. وكان إعلاؤها لقيمة الصدق يرتفع بها إلى ذرا سامقة فى أفئدة الناس وعقولهم. وهكذا ظلت ترتفع من نجاح إلى آخر، ولم يكن يزعجها فى حياتها إلا ذلك الشعور بالحيرة، الذى كان ينتابها حين تتلقى الإساءة ممن قدمت لهم المعروف، وكانت قد بدأت تؤمن بأن هناك نقيضين لا يجتمعان، هما الإنسانية والأنانية.

كانت تجمع فى شخصيتها بين طبيعتين مختلفتين. ولم يكن أحد يتصور أن تجتمع هاتان الطبيعتان فى شخصية واحدة، ولكن كثيرين كانوا يتصورون أن هاتين الطبيعتين وجهان لعملة واحدة، فقد كانت صاحبتنا رقيقة إلى أبعد الحدود، وحادة الطبع إلى أبعد الحدود أيضاً.

كانت فى لمساتها ولفتاتها ولمحاتها وإحساسها وكلماتها ونظراتها وصوتها.. تجيد التعبير عن الانفعال بالحب وعن صناعة الحب نفسه. وكانت تتفانى فى التعبير عن الحب حتى يتمنى الحب نفسه أن يتشبه بأدائها. ولكنها مع كل هذا كانت قادرة فى اللحظة المناسبة على إيقاف كل المشاعر، أن تحيل كل هذا إلى سراب.. فإذا بهذا الهرم المتنامى من دفء المشاعر والعواطف والكلمات قد تلاشى تماما، ويظن حبيبها أنه انهار فحسب، لكنه لا يجد أثراً لهذا الهرم على الإطلاق.

كان صاحبنا يظن أن الإرضاء هو أنسب السبل إلى التحكم فى هذه المشاعر ولكنه وجد الإرضاء يسرع بدفعها إلى التدمير، وفيما بعد عرف أنها لا تحب الاستجابة بقدر ما تستعذب التطويع.. وجرب أيضا القسوة، والتجاهل، والبعد، من دون جدوى.. وأخيراً وبعد سنتين من الحب اهتدى إلى أنها من أولئك الذين لا يسعدون إلا من تكرار التجربة فى المدى القصير.. وأصبح هو الآخر أكثر منها حدة حين تصل به إلى ذروة الحب، وأصبحا قطتين.

حصان أبيض

هذه فتاة أخرى، وحكاية أو عاطفة أنثوية جديدة، يسيطر عليها الشك

والقلق.. كانت أكبر مشكلاتها فى الحياة كثرة المحبين ثم كثرة العشاق ثم كثرة المعجبين، بدأت حياتها فى بيت جدتها التى كانت لا تفرط فيها على الإطلاق، وكانت تعنى بها عناية أشد مما تعنى أم بطفلتها. وهذه هى خالتها - هى الأخرى - تريد أن تستأثر بيها لأنها لم ترزق ذرية. وكان أبواها هما الآخران يتطلعان إليها وهى التى تمثل الرباط المقدس الذى ربط بين حياتيهما بعدما ربط بينهما الحب القوى العاصف.. وهكذا أتيح لفتاتنا أن تنشأ بين أحضان متنافسة على حبها. وكأن الحياة اختارت لها أن تكرر تجربتها مرة أخرى مع الجنس الآخر، فهى حتى اليوم لا تستطيع أن تزعم أن بإمكانها أن تحصر أولئك الذين وقعوا فى غرامها.

والآن، فإنها تستحضر أمام عينيها كثيرا من عذاباتها حين كانت لا تبخل بالعطاء ولا تريد أن تكرر المأساة، إنها لا تريد أن تستجيب، لأن الاستجابة قادتها فى الماضى إلى عذابات أصبحت تعيش فيها الآن، ومن أدراها أنها لن تعود إلى نفس الآلام التى اجتحاتها حين أدركت أخيراً أنها كانت تعطى من لا يستحق؟!

ولم يكن صاحبها بقادر على أن يستنقذها من براثن الخوف والشك.. كان يمضى الساعات الطويلة معها فى حوارات تكاد لا تنتهى، يطمئنها إلى الحياة، ولكنها تعود فى الصباح التالى لتبدأ من نقطة شك جديدة، فيبدأ هو فى دور الطبيب. وكان صاحبنا يحب الطب ويحب ممارسته، ولكنه لم يكن يحب الطب الروتينى الذى تتكرر فيه الممارسة على نحو يسير. وكان يظن الحب شيئا غير الطب، فإذا به يجد نفسه عاجزا عن أن يستمر فى هذه الممارسة العاطفية المتكررة.. أما هى فما زالت تنتظر الفارس على الحصان الأبيض.

■

هذه بعض من فصول «أوهام الحب» للدكتور محمد الجوادى الذى قدم فيه من خبرات الإنسانية قصصاً استوقفته وشعر تجاه تفاصيلها بملامح يمكنه من خلالها تقديم تفسير لمشاعر وعواطف المحبين.. ولكن بعد هذه الرحلة فى الكتاب فإننا نخرج أكثر حيرة وجهلاً بهذه العواطف، وأكثر اقتراباً من الوهم.

«أوهام الحب».. خطاب عميق ومباشر.. للإنسان

الأستاذ مصطفى القاضى
جريدة الجمهورية
١٧ أغسطس ١٩٩٩م

عاد كتاب «الجمهورية» مرة أخرى.. اكثر قوة وشباباً فى طفرة جديدة على طريق إثراء الثقافة العربية التى تحمل لواءه مؤسسة دار التحرير.. الرائدة فى نشر الوعى والفكر المستنير. الكتاب فى ثوبه الجديد يرأس تحريره د. فتحى عبد الفتاح.. وبدأ رحلة «الإبداع» نحو القرن الحادى والعشرين بكتاب «أوهام الحب.. دراسة فى عواطف الأنثى» للدكتور محمد الجوادى.. وهو خطاب ثرى وعميق ومباشر للإنسان.. وجدانا وعقلاً وأحاسيس..

أهدى محمد الجوادى كتابه إلى أنثى «مشفرية» بحرف الألف المكررة وهو لا يعلم إن كانت ستقبل الإهداء أم لا رغم أنها سبق أن قبلته فى مراحله الأولى من التكوين، والدكتور الجوادى معذور بالطبع لأن عواطف الأنثى متقلبة.

صور أدبية:

وفى تقديمه لكتابه ينفى د. الجوادى أن تكون مادته عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة أو الطويلة ويشبهها بالصور الأدبية أو ما يسمى فى العلوم البيولوجية بالقطاعات الطولية أو العرضية فى النسيج الحى، ومن خلال أول تلك القطاعات فى الكتاب والتى جاءت بعنوان «معشوقتى الهشة» وهى الصديقة المقربة بل والمعشوقة لصديق المؤلف والذى قصده فى كتابه رسالة غرامية ملتهبة إلى تلك المعشوقة.. وبعد خلاف على العنوان وجدل إنسانى وأخذ ورد، تجىء الرسالة لتصف تلك الأنثى من الداخل والخارج مستخدمة عوامل تعرية رقيقة وحساسة وجذابة تجعل من الرسالة غذاء روحيا يشفى النفوس ويبهج القلوب ويقوى الرباط العاطفى بين اثنين طار «كيوبيد» الحب فوق رأسيهما ونسج خيوطه الجميلة حول قلبيهما، لتظل المناجاة مستمرة بينهما.

وفى قطاع آخر بعنوان «لاتزال تنتظر فارسا على حصان أبيض» يقدم وصفا لتلك الفاتنة بجدائل شعرها الذهبى الذى تتدلى خصلاته على جنبيهما لتتلاعب بقلوب المحبين ووجدانهم فتغمرها السعادة وتشعر بكيانها وأنوثتها وسلطانها المسيطر عليهم بقوة هذا الجمال الطاغى وذلك الشعر الحريرى الذى يداعبهم ويحاورهم ولا يستطيعون التعلق بأطرافه ليصلوا إلى القلب الملىء بالحب والمتسارعة دقاته.

هى خائفة فى أحيان، وواجمة فى أحيان أخرى وأكبر مشكلاتها فى الحياة كثرة المحبين، والمعجبين.. أى أنها محط الأنظار فى كل الحركات السكنات. وتهاجمها الكوابيس التى تقض مضجعها، ويطير النوم من عينيها، ويظهر لها مَنْ يساعدها، وتبدأ العلاقة العاطفية التى ترهق الطرف الآخر وتجعله يضيع فى دهاليز جمالها وتظل هى تنتظر الفارس الذى يخطفها على الحصان الأبيض.

أما الإنسانة المعجزة فهى الإنسانة التى عاشت حياتها تظن أن الدنيا كلها خلقت كى تكون فى خدمتها أى أن الأنانية قد تغلغلت فى أعماقها فلم تعد ترى إلا نفسها ولذلك تطلب من المحيطين بها طلبات غريبة وعجيبة وتظن أن من يقطعون علاقتهم بها الخاسرون لأنها بكل بساطة إنسانة معجزة.

الجندول!!

الكاتب بدأ كتابه بقصيدة الشاعر على محمود طه «الجندول» ووضع عدة نقاط بعد «حلم ليل من ليالى...» قبل أن يكتب «كليوباترا» ليظهر موقفا شخصياً ورسالة مشفرة إلى شخص ما ذكرا كان أو أنثى... كما أنه رتب القصيدة لتتكيف مع قصة حياته، وينهى الكتاب بمذكرات لإمرأة عصرية تعقبها مذكرات من إمرأة أكثر من عصرية.

أوهام الحب.. دراسة فى عواطف الأنثى

د. ياسر طلعت
جريدة الأهرام المسائى
٢٥ أغسطس ١٩٩٩ م

يكشف كتاب «أوهام الحب: دراسة فى عواطف الأنثى» لمؤلفه الدكتور محمد الجوادى عن مدى أهمية رصد المشاعر الخاصة والتمييز بين الحقيقى والزائف منها، ولذا فإن د. الجوادى يؤكد أن التجربة كفيلة دائماً بالوصول إلى الحقيقة متى احترمناها فى كل لحظاتها، ومتى خضناها بروح منصفة بعيدة عن الرغبة فى إيذاء الآخرين أو خداعهم، بل إن خوض التجربة فى إطار غير هذا الإطار أو بروح غير هذه الروح هو الذى يقود بنا إلى أن نتخلف لنا فى نهاية التجربة أوهام تتراكم مع أوهام كثيرة يقود إليها العبث. لكن المشاعر الصادقة لا تنتهى إلا باكتشاف الحقيقة.

ومن هنا يأتى اسم هذا الكتاب «أوهام الحب» الذى يتحدث عن حقائق موجودة وقائمة ومؤثرة وذات حق علينا فى معاملتها معاملة الأشياء والموجودات،

والكاتب هنا يحتفى بالخبرة النفسية فى كل لحظة من اللحظات التى يرصدها أو التجارب التى خاضها.

وهكذا نتصفح عبر صفحات الكتاب مجموعة من العناوين المثيرة مثلا «أنا والأوهام»، «معشوقتى الهشة»، «كانا مقامرين»، و«ومن حب الذات إلى عشق الآخرين»، «لم تعرف فى حياتها إلا القلق»، «كانت تريده ممثلا»، «وكانت مثالا حيا للجهل العظيم».

والشىء المؤكد أن «أوهام الحب» يدرس بصدق عواطف الأنثى ومشاعرها المتباينة، ويحاول أن يقدم رؤية عميقة وكاشفة للعلاقة بين المرأة والرجل والمرأة وبنات جنسها، بأسلوب رشيق ولغة متميزة، مما يؤكد أن د. الجوادى لا يكتفى بالوقوف عند حدود المشاهدة وإنما يسبر أغوار الأحاسيس والمشاعر لكى يقدم فى النهاية لقارئه خلاصة قراءاته وتجاربه وخبراته بين دفتى كتاب يستحق القراءة والاقتناء.

كتب للمؤلف

فى التراجم

• الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ـ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».
فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبواباً كاملة وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

• مشرفة بين الذرة والذروة

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ـ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).
الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

• سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى انحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

• أحمد زكى حياته وفكره وأدبه

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

• الدكتور على باشا إبراهيم

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

• الدكتور نجيب محفوظ

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ ـ ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيراً من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

• الدكتور سليمان عزمى باشا

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ ـ ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

• عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢)

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ ـ ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق.

مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

• سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ ـ ١٩٨١)

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ ـ ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية.

مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

• إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيراً كبيراً بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

• صانع النصر.. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه.

دار جهاد، ٢٠٠٣ .

الطبعة الثالثة ، دار جهاد ، ٢٠٠٥ .

• مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

• سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

• توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

• عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٦.

● **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

● **كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات**

مجموعة منتقاة من الفصول والخطب والدراسات ألقيت أو كتبت فى تأبين بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وفى إحياء ذكرى رموز العلم والفكر والأدب فى احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها، وفى سلسلة عظماء المصريين (روز اليوسف) وأيام فى الذاكرة (الأهرام).

الطبعة الأولى : دار الخيال ، ٢٠٠٦ .

● **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكل من: بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

● **أحمد مستجير**

سيرة حياة وفكر وإنجازات عالم الوراثة المصرى والمفكر والأديب والمترجم عميد علماء الزراعة فى عصره وعضو مجمع الخالدين.

المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨.

● **مصطفى مشرفة**

سلسلة قمم مصرية ، السلسة الثقافية لطلائع مصر ،العدد ٣٧ ،

المجلس القومى للشباب ، القاهرة ، فبراير ٢٠٠٧.

دراسات أدبية

● **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته، وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.

دار الشروق، ١٩٩٧.

• **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

• **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيراً من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقاً جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

• **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

• **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكراً.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

• **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

• كلمات القرآن التى لا نستعملها

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

وجدانيات

• أوراق القلب (رسائل وجدانية)

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

• أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صوراً فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضاً دقيقاً لتقلبات الوجدان ودواعيها وتواعبها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

فى أدب الرحلات

• رحلات شاب مسلم

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

• شمس الأصيل فى أمريكا

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم

قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة.
صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

مدارسات تاريخية ونقدية لكتب المذكرات

• مذكرات وزراء الثورة

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.
دار الشروق، ١٩٩٤.

• المرأة والحرية، مذكرات المرأة المصرية

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.
دار الخيال، ٢٠٠٤.

• مذكرات المرأة المصرية

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية» ، دار الشروق، ١٩٩٥.

• نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة.
دار الخيال، ٢٠٠٣.

• مذكرات الضباط الأحرار

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.
دار الشروق، ١٩٩٦.

● محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء

دراسة لعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقانون، وكيف أعلت الثورة من قيمة القانون فى بعض المواقف والصراعات التى نشبت بين تنظيمات الثورة وبين رجال القضاء الوطنى وذلك من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أعلام القانون والقضاء الذين مارسوا السياسة أو شاركوا فى الحياة العامة، وتشمل مذكرات كل من: محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.

دار الخيال، ١٩٩٩ .

● الأمن القومى لمصر، مذكرات قادة المخابرات والمباحث

مرجع ضخم يتدارس قضايا الأمن القومى المصرى من خلال قضاياه الأساسية والممارسات التاريخية لقادة أجهزته ويستعرض مذكرات الرؤساء الأربعة الأوائل لجهاز المخابرات العامة : صلاح نصر ، ومحمد حافظ اسماعيل ، وأمين هويدى ، وأحمد كامل ، واثنين من قادة أجهزة أمن الدولة : حسن طلعت ، وفؤاد علام.

طبعتان ، دار الخيال، ١٩٩٩ .

● من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩ .

● الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧

مجموعة فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول فى حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التى صنعت الهزيمة أو أدت إليها، أو حالت دون السيطرة عليها فى الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى. وبعض هذه المذكرات لم تنشر إلا فى صحف محدودة التوزيع.

طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

● النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

مرجع أساسى لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التى خاضتها الأمة العربية فى ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطنى وعلمى أمين

مترفع عن الانحياز والغرض، ويقدم نظرات غير مسبوقة فى تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر فى صياغة وصناعة النصر : محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى.
طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

● فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التى اصطلح على تسميتها بحرب الاستنزاف وهى فترة حافلة بالتناقضات فى الرأى والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، والفريق صلاح الحديدى، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التى لم تنشر إلا فى الصحف.
دار الخيال، ٢٠٠١ .

● على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.
دار الخيال، ٢٠٠١ .

● فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

● الثورة والإحباط : مذكرات الأدباء وأساتذة الادب

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة

رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

● **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

● **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

● **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

تحليل تاريخى واستعراض نقدى لمذكرات أربعة من الذين شغلوا مواقع مهمة فى القصور الحاكمة وقدر لهم أن يشهدوا بأعينهم ما يجرى فى الكواليس فى فترة حافلة بالأحداث، ثم قدرت لهم حياة ممتدة أتاحت لهم أن يربطوا بين ما رأوه وما عرفوه عن تاريخ الفترات والأحداث التى عاشوها عن قرب. مذكرات : حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.
الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

● **فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين فى عصور مصر الحديثة**

مدارسة تاريخية نفسية لمذكرات أربعة من المحامين المصريين من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة (عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس) عملوا بالسياسة، والحزبية، والاقتصاد، والصحافة، والأدب، وظلوا على ولائهم لمهنة المحاماة يستلهمون قيمها، ويستعينون بخبراتها، ويوظفون مهاراتها، وحين كتبوا مذكراتهم فإنهم اعتبروها أداء للمحاماة عن معتقداتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، وانحيازاتهم.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ .

● **يساريون فى زمن اليمين : مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى**

تأملات فكرية فى مذكرات أدبية من قادة الفكر اليسارى المصرى فى ميادين مختلفة قدر لهم أن يعايشوا صعود الفكر اليسارى ثم معاناته فى زمن التحول إلى اليمين : د. مراد غالب ، د. حامد عمار ، د. رشدى سعيد ، د. عبد العظيم أنيس

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

● **فى ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السرى والاغتيالات السياسية**

مدارسة تاريخية لمذكرات قادة العمل السرى المرتبط بالحزب الوطنى ، وجمعية التضامن الأخوى (١٩١٠ - ١٩٢٥). عبد العزيز على ، وعبد الفتاح عنايت ، واحمد رمضان زيان

مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٧.

● **العمل السرى فى ثورة ١٩١٩**

مدارسة تاريخية لمذكرات قادة العمل الفدائى الوطنى فى ثورة ١٩١٩ : إبراهيم عبد الهادى ، وسيد باشا ، وعريان يوسف سعد ، ومحمد مظهر سعيد

مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٨.

فى الفكر التربوى

● **آراء حرة فى التربية والتعليم**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. طبعة خاصة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

● **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفاً تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

● **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية

تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم : شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدا& عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

● بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون
تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسة لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

● أستاذ الجيل فى السعودية : محمد طاهر الدباغ
سيرة حياته وفكره التربوى وإنجازاته التربوية.

● فى حدائق الجامعة : مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول (١٩٣٠-١٩٤٠)؛
عبدالعزيز كامل ، ابراهيم عبده ، شكرى عياد ، سعيد جودة السحار
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧.

فى الفكر التنموى

● القاهرة تبحث عن مستقبلها
مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقاً من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.
دار المعارف، ٢٠٠٠.

● التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار
مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ ـ ٢٠٠١) طارحاً فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل

ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

• مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.
الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

• الصحة والطب والعلاج فى مصر

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة.
الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

فى الفكر السياسى

• الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى ـ الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.
دار جهاد، ٢٠٠٢ .

• المسلمون والأمريكان فى عصر جديد

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من

الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.
دار جهاد، ٢٠٠٢ .

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر

• النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.
مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

• قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.
مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

• البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.
صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ .
طبعة خاصة : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

• الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب

رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.
صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

● التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.
الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

● المحافظون

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.
صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

● كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.
دار الخيال، ٢٠٠٢.

أعمال موسوعية

● القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.
دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

● دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى

الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة.
الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

فى طب القلب

• أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١
كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.
دار المعارف، ٢٠٠١.

• أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢
كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.
دار المعارف، ٢٠٠١ .

• أمراض القلب فى المسنين
مركز الإعلام والنشر والتعريب. ١٩٩٩

• الوظيفة الانبساطية للقلب
مركز الإعلام والنشر والتعريب. ١٩٩٨

• طب القلب التداخلى
جامعة الزقازيق، ٢٠٠٢

تحقيـق

• يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨
تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتناغل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.
مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

ببليوجرافيات

● مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ ٧٣٢، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتباً بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

● الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

المحتويات

إهـداء ٥

هـذا الكتاب ٧

الباب الأول: استثناءات ١٣

أنا والأوهام ١٥

معشوقتى الهشة ١٦

رسالة إلى معشوقتى الهشة ٢٠

كانا مقامرين ٢٩

من حب الذات إلى عشق الآخر ٣٣

الباب الثانى: أمنيات ٤١

كانا يمضيان فى نفس الطريق ٤٣

ظل يبحث عنها منذ زمن بعيد ٤٧

كان لا يجد ذاته إلا فيها ٥٩

وضاعت من بين يديه إلى الأبد ٦٥

الباب الثالث: شكايات ٦٩

حتى الجفا محروم منه ٧١

عاشا كما تعيش القطط ٧٩

لا تزال تنتظر فارسا على حصان أبيض ٨٩

كانت أضعف من أن تتحمل قسوة نبله! ٩٧

الباب الرابع: موازنات ١٠٧

لم تعرف فى حياتها إلا القلق ١٠٩

لا يفرق بينهما الزمان ١١٧
كانت تريده ممثلا ١٢١
كانت أعقل من أن تتمناه ١٢٧
كان يحبها بتناقضاتها ١٣٣
شاردة على الدوام ١٣٧
الباب الخامس: تصويرات ١٤٣
تتمنى لو أن الدنيا بوفيه مفتوح ١٤٥
المعجزة!! ١٥٣
وعاشت تسأل حتى اليوم ١٥٧
كان التحذلق يتوارى من قدرتها عليها ١٦٣
الباب السادس: نبوءات ١٦٧
كانت مثالا حيا للجهل العظيم ١٦٩
كانت تظن نفسها قادرة على كل شيء ١٧٣
كانت تعتقد أنها خلقت للجميع ١٨١
كانت تستثمر غرورها ١٨٧
كان الكذب إبداعها الوحيد ١٩٥
الباب السابع: محاورات ٢٠١
لم تعرف معنى السعادة ولو مرة واحدة ٢٠٣
كانت نموذجا للتفاهة المعبرة ٢٠٩
كانت أعقل من أن ترتبط ٢١٢
الباب الثامن: رسالات ٢١٧
خمس رسائل من فتاتي العاقلة ٢١٩
الرسالة الأولى ٢٢١
الرسالة الثانية ٢٢٢

الرسالة الثالثة ٢٢٣
الرسالة الرابعة ٢٢٤
الرسالة الخامسة ٢٢٦
رسالة من فتاتى الطائشة ٢٢٧
رسالة من فتاتى المغرورة ٢٣٥
الباب التاسع: مذكرات ٢٤١
من مذكرات امرأة عصرية ٢٤٣
من مذكرات امرأة أكثر عصرية ٢٤٥
الباب العاشر: مقالات ٢٤٩
أوهام الحب .. وحقائقه المتوهمة
للأستاذ سامي خشبة ٢٥١
طبيب القلب يكتب عن حبيب القلب.. دراسة شخصية فى عواطف الأنثى
للأستاذ محمد الشاذلى ٢٥٢
أوهام الحب.. خطاب عميق ومباشر للإنسان
للأستاذ مصطفى القاضى ٢٦١
أوهام الحب.. دراسة فى عواطف الأنثى
للدكتور ياسر طلعت ٢٦٤

كتب للمؤلف ٢٦٧
المحتويات ٢٨٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg